

موسوعة النظم الإسلامية

الكتاب الثاني

نظام الإسلام في صناعة الإنسان

تأليف

الأستاذ الدكتور

أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق

جامعة الأزهر

الناشر مؤسسة الرسالة

نظام الإسلام في صناعة الإنسان

الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الناشر مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

ويعد ؟؟؟؟

فإني أقرر ابتداءً أن الله تعالى بدأ خلق الإنسان بآدم عليه السلام على النحو الذي بينه الوحي، ووضحه القرآن الكريم، لأن القول بسبق أودم قبل آدم عليه السلام قول بلا دليل، ويرده عدم وجود أي أثر لواحد من هذه الأودم .

وأومن بأن الله تعالى خلق آدم عليه السلام نموذجاً للإنسان الكامل المتمتع ببدن يحتاج إلى الطعام، والشراب، والنكاح، ... ، ويعقل يفهم، ويعلم، ويقدر، ويختار ... وبروح تسبح، وترغب، وتسعى للتواصل مع الله تعالى .

وقدر للبشرية أن تنتسب لآدم عليه السلام أبا لهم جميعاً، وأنزل الوحي للناس في سائر الأمم ليسيروا على منهج الله كما كان أبوهم آدم عليه السلام .

خلق الله ﷻ آدم عليه السلام وسط كوكبة من الملائكة، ومعهم إبليس، فقد أمر الله تعالى الملائكة بتسوية مخلوق من طين الأرض فأطاعوه، وسوا من الطين كائناً على النحو المطلوب، وبقي الطين جسدا جامدا إلى أن نفخ الله تعالى فيه من روحه فتحرك، وتكلم، وقال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (١) .

(١) سورة ص الآيات من ٧١ : ٧٤ .

وبدأت حركة الحياة على الأرض مع وجود إنسان استخلفه الله فيها، وعظمته الملائكة بأمر الله تعالى .

وخلق الله تعالى حواء من ضلع آدم الأيمن، وأسكنهما الله الجنة، وقدر لهما الخروج منها، وتعمير الأرض، ووضح لهما عدوهما الذي جعله الله تعالى سببا لإخراجهما من الجنة، وهو إبليس اللعين .

وبدأ توالد الآدميين من آدم وحواء - عليهما السلام- على نحو أراده الله تعالى وقدره، ... وبذلك تجلت صورة الحركة في الحياة الدنيا، حيث يعمل آدم عليه السلام بالوحي الذي ينزل عليه من ربه ﷻ لتنظيم مسيرته، ومسيرة ذريته في الأرض، مع وجود إبليس وأبنائه وسط الآدميين للإضلال والوسوسة .

يقول الله تعالى للناس: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (١)، ويقول الله تعالى مخاطبا إبليس ليبين موقفه من آدم وذريته ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٣﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَأَنبِئَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢)

هذه الحقائق في إيجاد آدم عليه السلام تؤكد أن الله تعالى رفع شأن الإنسان منذ وجوده، فقد بث فيه من روحه، وأمر الملائكة أن تعظمه، وتقدره، فأطاعوه إلا إبليس فإنه أبى واستكبر فكان من الكافرين، وقد كرم الله تعالى الإنسان فجعله خليفته في الأرض، وسيد المخلوقات كلها، وميزه بمزايا عديدة

(١) سورة النساء الآية : ١ .

(٢) سورة الأعراف الآيات من : ١٢ : ١٧ .

خصه بها ليتمكن من القيام بما خلقه الله له .

وتؤكد الآيات كذلك أن الدنيا ليست صافية خالية من الخصومة والعداوة، ففيها صراع مستمر بين الخير والشر، وعداوة دائمة بين الإنسان والشياطين، وحرب شرسة يرجو كل طرف فيها أن ينجح ويحقق مآربه .
وتوات رسالات الله ﷻ للناس تهديهم للحق، وتبصرهم بمنهج الله تعالى، وتنظم أحوالهم وحياتهم بشريعة الله تعالى.

وختم الله تعالى الرسالات برسالة محمد ﷺ ، فبلغ الناس دين الله تعالى، وعلمهم شريعته ونظمه، وحفظ الله دينه ليبقى مع الناس إلى يوم القيامة هاديا مرشدا ، ومنظما لكافة جوانب الحياة والأحياء.

واستمر التكليف الإلهي للناس ليعمروا الأرض بشرع الله تعالى، ويعيشوا في رحابها بدين الله ﷻ، وأوجب الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المسلمين بعده الدعوة إلى دين الله تعالى بالحكمة واللين إظهارا للدين، وإبلاغه للناس، ومنع الصد عنه، ومواجهة أعداء الإسلام من شياطين الإنس والجن، ليتوقفوا عن الفساد والإضلال .

وصار من الضروري مواصلة الدعوة إلى الإسلام، والعناية بهذا الإنسان ليصير عبدا لله ﷻ، قادرا على تحمل المسؤولية، و متمكنا من تحقيق الخلافة في الأرض بمنهج الله تعالى .

وقد تجلت رحمة الله تعالى بالإنسان فخلقه بصورة جميلة، وعقل حسن، وعواطف راقية، وأكرمه بنزول الإسلام، وثبوت مصادره، وفيها كل ما يحفظ الإنسان، ويصلحه في كافة مراحل عمره، ويعينه على القيام بواجبه في الحياة .

لقد تجلت عناية الله تعالى بالإنسان في كافة مراحلها، فشرع الزواج، وهياً المحضن الحسن لإيجاد الولد، وشرع حق الولد في الرضاعة التامة، والحضانة الرشيدة، والنشأة السوية ، ونظم له حياته، وعمله، وامتد معه نظام الله تعالى إلى بعد وفاته .

ولما كان الإنسان هو محور الحياة، وهو أساس سائر الأنظمة رأيت أن أبدا في موسوعة النظم بـ " نظام الإسلام في صناعة الإنسان " .

وأثرت كلمة صناعة عن غيرها، لأن إرادة الصناعة بشكل عام تبدأ قبل وجود المصنوع، حيث التفكير، والتصوير، والعزم، والقدرة ، كما أنها تعني علم الصانع بما يصنع، وقدرته على إيجاد كل جزئية فيما يصنع ، كما تؤكد ضرورة وجود صانع يملك من الطاقات ما يمكنه من إيجاد المصنوع، ووضع كل شيء في موضعه مع إمكان إصلاح أي عطب فيه .

وتأملت مليا في الواقع الحياتي ، ونظرت إلى أسرار الله تعالى في خلق الإنسان فتأكدت من أن قدرة الله تعالى فوق إدراك الناس، وأن الإعجاز الإلهي يظهر جليا حين ثبت عجز الإنسان عن إيجاد مخلوق فيه حياة .

وقد عجز "دارون" عن معرفة سر الحياة في الخلية الأولى التي يزعم أنها أساس الحياة والتطور، كما ثبت دائما عجز الإنسان عن اختيار نوع المولود، ومعرفة قواه، وطاقاته المختلفة، فهو سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝﴾ (١) .

من خلال الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان ازداد إيماني بالله تعالى،

(١) سورة الشورى الآيتين : ٤٩ ، ٥٠ .

وتأملت في نفسي لقوله تعالى ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١)، وتأكد لدي ما أؤمن به، وهو أن الإنسان صناعة إلهية خالصة، فهو سبحانه ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (٢)، وهو سبحانه الذي وضع منهاجا كاملا لمسيرة حياة الإنسان، ونظم كل شيء، ووضع شريعته لتحقيق مصالح العباد، ... ولهذا جعلت المسمى لهذا الكتاب " نظام الإسلام في صناعة الإنسان " للإشارة إلى أن الإنسان ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣)

وقد يتصور البعض أن الاهتمام بالولد يبدأ عند مولده، إلا أن هذا التصور ليس دقيقا، لأن عناية الله تعالى بالولد تبدأ قبل اقتران الزوج بزوجته بمراحل طويلة، فقد خلق الله تعالى الرجال والنساء، وأوجد فيهما ميلا فطريا يجمع بينهما، كما وضع فيهما حب الولد، وحدد لهما المنهج المشروع لإشباع ميلهما، وولادة الولد، وذلك بالزواج وفق ما جاء في دين الله تعالى. وأمل في دراسة هذا النظام أن أقف على عناية الله تعالى بالإنسان قبل وجوده، وبعد وجوده، وطوال حياته، وأن يعرف الإنسان فضل الله تعالى عليه، فيشكره ويستقيم على منهجه، ويعود إليه في السراء والضراء .

يجب على الإنسان أن ينظر في أطوار حياته، ويتأمل في أسرار خلقته ليعرف الله ﷻ، ويحافظ على حقوقه، وفي الحكمة جاء " من عرف نفسه فقد عرف ربه" فالمسلم إذا عرف نفسه حق المعرفة، ونظر إلى أسرار خلقته،

(١) سورة الناريات الآية : ٢١ .

(٢) سورة الأعلى الآيتين ٢ ، ٣ .

(٣) سورة النمل الآية : ٨٨ .

وحياته في بطن أمه، وكيفية خروجه، وحياته بعد ذلك، يدرك عظمة الخالق ﷻ ورحمته به .

وعليه أن يتأمل في لحظة خروجه من بطن أمه ، حيث ينقلب وضعه ، وتنتجه رأسه إلى أسفل لتنزل أولاً، وهذا من تمام العناية الإلهية بالجنين وأمّه، لأن خروج الرأس أولاً يسهل خروج البدن كله سليماً صحيحاً ، بخلاف ما لو خرجت رجله أو يده أولاً ، لأنه يجوز أن تتعلق يده أو رجله بالرحم، أو يلتوي عنقه ، وبهذا تتألم الأم ألماً شديداً ، وقد يموت الجنين ، والأطباء يدركون ذلك جيداً ، ويطمئنون ابتداءً باتجاه الرأس للخروج ، فإذا لم يتأكدوا من ذلك لجأوا إلى الولادة الصناعية بإخراج الولد من جنب أمه ، يقول الله تعالى :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١)

أسأل الله تعالى أن يبصرني بنفسي، ويعينني في ضعفي، ويلهمني الصواب في قولي، وأن يتقبل مني جهدي وعملي، فهو مقصدي وغايتي، ورضاه رجائي وأملي، عليه توكلت وإليه أنيب .

ا . د احمد احمد غلوش

أول جمادي الأولى ١٤٣٨ هـ

٢٩ يناير ٢٠١٧ م

التجمع الخامس نرجس / ٤ في

(١) سورة الذاريات الآية : ٢١ .

الباب الأول

تهيئة الحضانة الصحيح

لإيجاد الولد

تهيئة المحضن الصحيح لإيجاد الولد

المراد بالمحضن البيئة التي تضم الولد، وتحيط به، وتحافظ عليه، وتمده بالعواطف، والعادات، والتقاليد بما يناسب عمره، ومداركه، وعناية الإسلام بالمحضن تبدأ قبل ظهور الولد في عالم الحياة، وحتى قبل أن يقترن أبوه بأمه، وسبب ذلك أن الله تعالى أراد إيجاد الولد وسط محضن صالح، بعد لقاء نظيف، لينشأ عبدا مؤمنا صالحا على نمط أبويه.

لم يرد الله تعالى للولد أن يأتي من سفاح كما كان يأتي في الجاهلية، ولم يرد له أن يخرج من أبوين لا دين لهم، ولا نسبا يعرف بهما، ولا صلاحا يرفعهم، ولذلك شرع الزواج، وحث عليه، ووضع له المنهج القويم ليقوم الناس به .

أودع الله تعالى في نفوس الرجال والنساء حب الولد، ورزقهم ميل كل منهما للآخر لإشباع رغباتهم المادية، والروحية، وحث كل منهما على الاقتران بالآخر في إطار المشروعية الدينية لينالا الأجر، وهما يعملان لإشباع البدن، وإرضاء الروح، وكسب خيرات الدنيا من مال، وجاه، وولد .

وفي هذا الباب سنعيش مع منهج الإسلام وهو يدعو إلى تأسيس محضن حسن للولد، يبدأ بالاختيار، واتباع منهج واضح في خطوطه المشروعة، ففيه الخطبة، والمهر، والإعلان، والبشر، ... وبهذا يولد الولد في بيئة صالحة، ومع أبوين مؤمنين ينشأ بينهما، ويرى وسطهما، ويكتسب منهما الدين، والمعرفة، ومكارم الأخلاق .

إن الإنسان الفرد هو أساس الأسرة، وهو أساس المجتمع كله، وإصلاحه إصلاح للمجتمع كله .

ومن الحقائق الدينية الواقعية أن الناس رجالا ونساء ليسوا على صورة واحدة، فهم يتنوعون إلى أنواع شتى بعدد معادن الأرض التي صنعوا منها أول مرة ، يقول النبي ﷺ : (تجدون الناس معادن ، فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) (١) ، ومن هذا الحديث ندرك كما هو الواقع أن الناس أنواع شتى .

وقد أثبت العلم الحديث أن عدد معادن الأرض تسعة وتسعون معدنا، منها الصفيح الرديء، ومنها الحديد الصلب، ومنها المعدن الثمين .

وعندما يبلغ الفتى، ويملك مؤن الزواج فإنه يفكر في زوجة تشاركه سعي الحياة، وتعينه على لأوائها، وقضاياها، ويأنس بها كما تأنس به، ويحققا معا آية كبرى من آيات الله تعالى في الناس، وهي الترابط البدني والروحي، يقول الله ﷻ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

ووسط الحياة الزوجية يوجد الولد معبرا عن صفات أبيه وأمه، وينطق بما هم فيه من خلق، وعادات، وتقاليد .

وسياتي هذا الباب في فصول عديدة، حيث يشمل كل فصل بعض أحكام تهيئة المحضن السليم لإيجاد الولد وفق شرع الله تعالى .

(١) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب خيار الناس - حديث رقم : ٤٦٩٢ .

(٢) سورة الروم الآية : ٢١ .

الفصل الأول

الولد في عالم الغيب

الولد في عالم الغيب

خلق الله الإنسان من زوجين اثنين، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، وعمر الأرض بذريتهما، وجعل من هذه الذرية أمما تنتشر في الأرض كلها .
وفطر الله تعالى الناس بدوافع كامنة ينشأون بها، ويعملون لإشباعها ،
ومن أهم هذه الدوافع دافع الميل بين الرجل والمرأة، ودافع الوالدية عندهما
كذلك .

وقد عمل الإنسان على إشباع هذين الدافعين بوسائل كثيرة ، وطرق
شتى، تختلف باختلاف الأمم، والمذاهب، والعادات، بعضها نزل به الوحي،
وبعضها من اختراع الناس .

وأرسل الله تعالى رسله للناس بنظم عديدة، ومنها نظام الزواج الذي
جعله الله تعالى بديلا لإخراج حواء من آدم ﷺ ، وشرعه لتعمير الأرض
بالذرية، ونشر المودة والرحمة بين الناس .

وقد شرع الإسلام الزواج، ووضع له للعالمين نظاما يحدد الحقوق،
والواجبات للزوجين، وللوليد الذي تلده الأم .

إن الأبوين يحبان الولد، ويعلمان أنه هبة من الله تعالى ، ويتعلقان به
بعد مولده، ويحافظان عليه، ويرعيانه حتى بعد أن يصير شابا فتيا إلى أن
يتركانه إلى الله تعالى .

وفي هذا الفصل سأبين حب الوالدين للولد قبل أن يكون شيئا ، وإيجاد
ميل فطري نحوه وهو في عالم الغيب، والقيام بتهيئة المحضن الحسن
استعدادا لمقدمه المأمول ، وذلك في المباحث التالية : -

المبحث الأول الولد هبة من الله تعالى

خلق الله ﷻ آدم ﷺ ، ومنه ومن حواء تناسلت البشرية، وعمرت الأرض بمنهج الله تعالى الذي علمهم إياه أبوهم آدم ﷺ، وقدر الله تعالى لكل إنسان أجلا يترك الدنيا عنده، ويترك ماله لولده الذي وهبه الله له، وقد فطر الله تعالى الآباء على حب الولد، وجعل الزواج لهم طريقا شرعيا لإيجاده وولادته .

فمع السكن النفسي، والراحة القلبية في الزواج كانت الرغبة في إيجاد الولد دافعا رئيسيا فيه، فكل من الرجل والمرأة يميل أحدهما للآخر، وفيهما رغبة قوية في إشباع غريزة الجنس، وغريزة الولد ، وحب البقاء بالفعل أو بالقوة، ولذلك يسعى الوالدان لملكية المال ليتركاه لولدهما عن رضى وحب .

وبالولد تتكون الأسرة، وتوجد القبيلة، ويتكامل المجتمع، ومن المستحيل أن تجد حنانا ورحمة بالولد أكثر من حنان الآباء، والأمهات، هذان في الدنيا هما الرحماء بعد رحمة الله تعالى .

وبسبب هذا الحنان يتحمل الوالد متاعب العمل، والسعي في الأرض، وكسب المعاش لزوجته وولده، ... وتتحمل الأم عناء الحمل، ومشقة الولادة، ومتاعب الرضاعة، والحضانة، ولولا هذا الحنان الأبوي لرفض الناس الولد، وأبوا متاعبه بصورة عامة .

إن الله خلق الإنسان وأودع فيه غرائزه النفسية، وحاجاته الطبيعية، وشرع له السبل لإشباع هذه الغرائز .

يشبع الإسلام غريزة الجنس بصورة سوية ونافعة، ويربط هذا الإشباع بغريزة الأبوة والأمومة، ويجعل المتعة الزوجية المشروعة وسيلة لبقاء النوع

الإنساني ، ووجود الذرية والولد، ... يقول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَهْلًا لِيَسْكُنُوا فِيهَا وَلِيَتَذَكَّرُوا فِيهَا وَاللَّهُ غَافِلٌ عَنِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) ، ويقول ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ (٢) .

ويشبع الإسلام حب الإنسان للجماعة، وميله الفطري إلى التواصل مع الغير، وبخاصة مع الأهل والأقارب، يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ ﴾ (٣) .
إن الله ﷻ يشبع دوافع الرجل والمرأة بتشريع الزواج، ويأمر به رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وفيه يقول : (كنا مع النبي ﷺ شبابا لا نجد شيئا، فقال لنا رسول الله ﷺ : يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) (٤)، وفي الحديث يوجه رسول الله ﷺ الشباب ليتزوجوا عند امتلاكهم مؤن الزواج المادية والبدنية لما فيه من فائدة. ومن فوائد الزواج تحقيق رغبتهم في الولد، فقد تعود الناس أن يدعوا بعضهم لبعض بقولهم: "بالرفاء والبنين"، وجاء الإسلام وشرع الدعاء بالبركة في الولد، وحسن العشرة .

(١) سورة النحل الآية : ٧٢ .

(٢) سورة النساء الآية : ١ .

(٣) سورة الحجرات الآية : ١٣ .

(٤) صحيح البخاري - كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم - حديث : ٤٧٨٠ .

روى الحسن البصري رحمته الله (عن عقيل بن أبي طالب رحمته الله أنه تزوج امرأة من بني جشم ، فقالوا : بالرفاء، والبنين . فقال : لا تقولوا هكذا ، ولكن قولوا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم بارك لهم، وبارك عليهم) (١) .

ومن البركة الولد الصالح، والمودة والرحمة .
وبعد الزواج تتأجج نفس الزوجين بالرغبة في الولد، وتميل عواطفهما نحوه، ويدعوان الله تعالى أن يرزقهما الولد ذكرا كان أو أنثى، وبصبيهما القلق إن تأخر الحمل، ويبحثان عن إزالة أي سبب مادي يؤخر الحمل، ويدعوان الله تعالى ليرزقهما الولد .

يصور القرآن الكريم حب الزوجين للولد، فجعله مع المال زينة الحياة الدنيا التي يتمناها الآدميون رجالا ونساء، يقول الله تعالى : ﴿ أَمْ أَلْمَأُؤُاْ وَالْبَسُوْنَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢) .

وقد أودع الله تعالى في قلب الوالدين حب الأولاد، وأمر بالعناية بهم، والحرص عليهم، تدل على ذلك الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها:
- عن أبي هريرة رحمته الله قال : (كان رجل من الأنصار عند النبي صلى الله عليه وسلم ومعه صبي له فجعل يضم صبيه إليه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أترحمه ؟ "

قال : نعم يا رسول الله .

قال صلى الله عليه وسلم : " فالله أرحم بك منك به، وهو أرحم الراحمين) (٣) .

(١) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح، باب تهنئة النكاح - حديث : ١٩٠٢ .

(٢) سورة الكهف الآية : ٤٦ .

(٣) السنن الكبرى للنسائي - كتاب النعوت، أرحم الراحمين - حديث : ٧٤٥٣ .

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (جاءت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها تسأل ومعها صبيان فأعطتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل صبي تمرة ، وأمسكت لنفسها تمرة ، فأكل الصبيان التمرتين ، فعمدت إلى التمرة فشقتها نصفين فأعطت كل صبي لها نصف تمرة .
فجاء النبي ﷺ فأخبرته .

فقال : " وما يعجبك منها ، لقد رحمها الله برحمتها صبيها) (١) .

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : تقبلون الصبيان ؟ فما قبلهم .

فقال النبي ﷺ : أوأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟) (٢) .

والنصوص الإسلامية كثيرة، وكلها تبين ما عند الأبوين من حب للولد، وحب العناية به.

إن وجود الولد أعظم هدايا الله تعالى للوالدين، يقول ﷺ: **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝** (٣) .

فالولد هبة إلهية يقدرها الله تعالى للوالدين ، ليشبعا بها دوافع الفطرة ويشعران باستمرار نسلهما، وذريتهما من بعدهما، ولذا ينشد الآباء بعد الزواج طلب الولد، ومن نجواهم بعد الزواج ما حكاه الله تعالى عنهم، وهم يدعونه،

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب البر والصلة، حدیث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه - حدیث

: ٧٤١٧ .

(٢) صحیح البخاری - کتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته - حدیث : ٥٦٥٨ .

(٣) سورة الشوری الآيتين : ٤٩ ، ٥٠ .

ويقولون : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (١) .

وقد أكرم الله تعالى رسله وأنبياءه فوهبهم الأبناء والذرية، وفي هذا يقول الله تعالى :

- ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ (٢) ﴿
- ﴿ وَرَكَرِبًا ۚ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ ۖ زَوْجَةً لَهُمْ كَانُوا يُسَدِّعُونَ فِي الْخَيْلَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (٤) ﴿ (٣)

ومما يحكى في حب الولد، وتعلق الآباء بأولادهم ما قاله الأستاذ عمر بهاء الأميري عندما سافر بنوه الثمانية، ورجعوا إلى موطنهم "حلب"، وتركوه وحده في مصيف "فرنا يل" بتركيا، فقد تأثر بفراقهم، وأخذ يسلي نفسه بتذكر أحوالهم معه، فقال :

أين الضجيج العذب والتعب؟	أين التدارس شابه اللعب؟
أين الطفولة في توقدها؟	أين الدمى في الأرض والكتب؟
أين التشاكس دونما غرض؟	أين التشاكس ما له سبب؟
أين التضاحك والتباكي في وقت معا، والحزن، والطرب؟	
أين التسابق في محاورتي	شغفا إذا أكلوا وإن شربوا؟
يتزاحمون على مجالستي	والقرب مني حينما انقلبوا
يتوجهون بسوق فطرتهم	نحوي إذا رهبوا وإن رغبوا

(١) سورة الشورى الآية : ٧٤ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٧٢ .

(٣) سورة الأنبياء الآيتين : ٨٩ ، ٩٠ .

فنشيدُهُم "بابا" إذا فرحوا ووعيدُهُم "بابا" إذا غضبوا
وهتافُهُم "بابا" إذا ابتعدوا ونحيبُهُم "بابا" إذا اقتربوا
بالأمس كانوا ملء منزلنا واليوم ويح اليوم قد ذهبوا
وكأنما الصمت الذي هبطت أثقاله في الدار إذ غربوا
إغفائة المحموم هدأتها فيها يشيع الهم والتعب
ذهبوا، أجل ذهبوا، ومسكنهم في القلب ما شطوا وما قربوا
إني أراهم أينما التفتت نفسي وقد سكنوا وقد وثبوا
وأحسّ في خلدي تلاعبهم في الدار ليس ينالهم نصب
وبريق أعينهم إذا ظفروا ودموع حرقتهم إذا غلبوا
في كل ركن منهم أثر وبكل زاوية لهم صخب
في النافذات زجاجها حطموا في الحائط المدهون قد ثقبوا
في الباب قد كسروا مزاجه وعليه قد رسموا وقد كتبوا
في الصحن فيه بعض ما أكلوا في العلبه الحلوى التي نهبوا
في الشطر من تفاحة قضموا في فضلة الماء التي سكبوا
إني أراهم حيثما اتجهت عيني كأسراب القطا سربوا
بالأمس في "قرنايل" نزلوا واليوم قد ضمتهم "حلب" (١)

وهذا هو أمية ابن أبي الصلت يروي مشاعره نحو ولده، ويحثه على بره
وحسن معاملته ، ويشكو مرارة العقوق، ويقول :

غدوتك مولودا وعلتكَ يافعا تعل بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت لسقمك ليلاي إلا ساهرا أتملل

(١) تربية الولد في الإسلام للأستاذ / عبد الله علوان ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .

كأني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني فعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما كنت فيك أوئل
جعلت جزائي غلظة وفضاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حـق أبوتي فعلت كما الجار المجاور يفعل
فأوليتني حق الجوار فلم تكن على بمال دون مالك تبخل (١)

إن الحنين إلى الولد غريزة إنسانية حدد الإسلام طريقة الوصول إليها بمنهج شرعي واقعي يرضى الإنسان، ويشبع حاجاته، ويحقق رغباته مع السمو إلى إنسانية الإنسان، وعظمة المنهج الإلهي، فيأمر بالزواج لإخراج الولد، وتحقيق الود، وينهى عن السفاح، ويجعل الزواج شطر الدين، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : من تزوج فقد استكمل نصف الإيمان، فليتق الله في النصف الباقي) (٢) .

وأعطى الإسلام للساعي على زوجته وولده أجر الساعي في سبيل الله تعالى، وأمر الإسلام الشباب بالزواج إذا ملكوا مؤنه البدنية، والصحية، والمالية، آملين في حياة هنية، وولد صالح نجيب .
ومن هنا نبدأ الرحلة مع منهج الله تعالى في صناعة الإنسان الذي وهبه الله تعالى لأبويه إرضاء لعواطفهما، وتعميرا للأرض بمنهج الله تعالى .

(١) تربية الأولاد في الإسلام ج ١ ص ٤٦ .

(٢) المعجم الأوسط للطبراني - باب العين، باب الميم من اسمه : محمد - حديث : ٧٧٨٨

المبحث الثاني مرحلة البحث والاختيار

يحرص الإنسان العاقل على الوصول إلى أحسن ما يحتاج إليه وفق مصالحه، وأمانه خيرا أو شرا ، فالتاجر يبحث عن الأشياء القيمة ليربح من بيعها، والمزارع يبذل أقصى الجهد للوصول إلى نتاج جيد، والطالب يواظب على المذاكرة لينجح، ويحصل على تفوق بين زملائه ، ... كل ذلك في إطار إيمانهم بقدر الله تعالى .

والزواج أهم أعمال الإنسان في حياته، وأدومها أثرا مع الزوج والزوجة، والحاجة إلى الأُنس والمودة عامل مشترك بين الرجل والمرأة .

ويتميز الزواج في الإسلام بطول الأمد، وقسوة الانفصال فيه، فكل عمل يقوم به الإنسان في الدنيا يسهل أن يستبدل به غيره إن لم يتحقق المراد منه، فمن السهل تغيير العمل، والنشاط التجاري، وجهات الحركة والسفر، إلا أن تغيير الزوجة أمر شاق، لأنه يورث الحرمان، ويضر الأولاد، ويفرق الأسر، وينشر الكراهية، ولذلك حسن بذل الجهد في الاختيار، والتحري الدقيق عند الرغبة في الزواج، لمعرفة صفات المرأة المراد خطبتها، وصفات الرجل الذي يخطب .

وقد وضح الإسلام الصفات التي يجب مراعاتها في الرجل والمرأة عند الاختيار، وهي : -

- ١ -

صفة اللين

يدعو الإسلام إلى اختيار المرأة المتصفة بصفات معينة تدعو الرجل إلى نكاحها يقول النبي ﷺ : (تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها

وجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين ، تربت يداك (١) ، ويتأمل الحديث ندرك أنه يوضح أهم صفات المرأة التي تدعو الرجل إلى الاقتران بها ، وهي الغنى، والحسب، والجمال، والدين، ... ويدعو الحديث بعد ذلك إلى تفضيل ذات الدين بقوله ﷺ : " تربت يداك " ، ... و" تربت يداك " كلمة يستعملها العرب في الدعاء على من يترك أمرا ما، ومعناها في الحديث افتقرت والتصقت يداك بالتراب إن لم تتزوج ذات الدين.

ويحذر الإسلام الرجل من تزوج امرأة غير متدينة، وغير مسلمة، فيقول الله تعالى: ﴿ وَالْأَمَةُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَتُوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ (٢)، ويقول النبي ﷺ : (من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزد الله إلا فقرا ، ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يتزوجها إلا ليغض بصره أو ليحصن فرجه ، أو يصل رحمه بارك الله له فيها ، وبارك لها فيه) (٣) .

ويقول ﷺ : (ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه) (٤) .

ويقول ﷺ : (أربع من السعادة : المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنيء .
وأربع من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب

(١) صحيح البخاري - كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين - حديث : ٤٨٠٢ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٢١ .

(٣) المعجم الأوسط للطبراني - باب الألف، باب من اسمه إبراهيم - حديث : ٢٣٨١ .

(٤) المطالب العالية للحافظ ابن حجر - كتاب الرقائق، باب الوصايا النافعة - حديث : ٣١٧٩ .

(السوء) (١) .

وفي تفضيل ذات الدين أسباب عدة، فذات الدين تقوم بواجبها على الوجه الأكمل كما شرعه الله تعالى، فتحافظ على حق الزوج، وتعينه في حياته، وتملأ البيت أنسا وبهجة، وتطيع الله تعالى، فتهيئ المسكن الجميل، وتنشئ لزوجها كيانا يسعده من حبها، وحنانها، وصفائها، وتعلقها، ... وتقوم بشئون الأولاد، وتربيههم على دين الله تعالى، وتحافظ على صلة رحم زوجها من أب، وأم، وأهل، وأقارب، في حدود ما شرع الله تعالى .

وحث الإسلام أولياء المرأة باختيار الخاطب ذي الدين، ليحافظ على موليتهم، ويصونها بجهد، وعقله، وروحه، يقول النبي ﷺ : **(إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه ، فأنكحوه ، ألا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض) (٢) .**

والأحاديث في جملتها تحت الرجل ، وأولياء المرأة على اختيار ذي الدين منعا للخلل داخل الأسرة بعد الزواج، لأن الرجل إذا لم يكن متدينا فإنه لا يراقب الله في عمله، وسلوكه مع زوجته، وبظلمها، ويعتدي عليها بغير حق، وقد يكون هذا الرجل متحلا، أو سكيما، أو ملحدا، ولا يرى مانعا من السفر والاختلاط، ومرافقة زوجته للرجال ، والتقلت من تعاليم الإسلام، وشعائره، ومعالمه، وحينئذ تنال المؤمنة منه ضررا خطيرا.

وإذا كان الرجل متدينا، والزوجة غير متدينة فإنها ستصر على السفر والاختلاط، والتشبه بالمرأة الغربية في لباسها وزينتها، والتحكم في الرجل،

(١) صحيح ابن حبان - كتاب الحج، باب الهدى، حديث : ٤٠٩٤ .

(٢) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب النکاح، حديث : ٢٦٢٥ .

ومنع الإنجاب، وعدم مراعاة واجبات الزوجة، وحينئذ يضيع المقصود الديني والاجتماعي من إنشاء أسرة، ويتحول البيت إلى ساحة صراع وشقاق .

فغير ذات الدين تضيع المال بالسفه والتبذير، وتسيء لزوجها بسوء خلقها... وإن كانت جميلة فإنها ترهق الزوج بجمالها، وتتعالى عليه، ولا ينال منها إلا المغالاة في الصداق، والنفقة، وفوت الخدمة، والتنازل عن حقوقه عليها ليرضيها

ومن روائع الإسلام أنه لم يهمل صفات المرأة الأخرى، وإنما حث عليها مع حثه على ذات الدين، وفضل صفة الدين حين انفرادها .

ومزية صفة التدين أنها تؤثر في كيان الإنسان كله، وتقوى كلما امتد العمر بخلاف سائر الصفات، فإن فيها ضررا، وتقل كلما طال العمر، وربما تفنى فناء كلياً .

إن صفة التدين هي أساس كمال الشخصية المسلمة رجلا كان أو امرأة، وغيرها من الصفات كالحسب، والجمال، والمال إن خلت من التدين تتحول إلى صفات قلق واضطراب ، وتجعل الأسرة ساحة للخلاف والخصومة .

يقول الإمام الغزالي : والغالب أن حُسن الخُلق والخلق لا يفترقان ، والحث على اختيار ذات الدين ليس زاجرا عن رعاية الجمال، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين (١) .

إن ما عليه الآباء والأمهات من دين وخلق ينتقل إلى الأبناء بطريقة تلقائية، وما ضاعت الأسر المسلمة اليوم، وانحرف الأولاد إلا بسبب عدم قيام الأسرة على الدين.

(١) إحياء علوم الدين / لحجة الإسلام الغزالي ج ٢ ص ٣٩ .

والمقصود بتدين الرجل والمرأة أن يكون كل منهما فاهما لحقيقة الإسلام
ومطبقا لكل ما جاءت به شريعة الله تعالى، وملتزمًا بمكارم الأخلاق، وراضيا
بشعائر الإسلام، ومناسكه .

وعندما يكون الخاطب والمخطوبة بهذا المستوى الديني الواجب ، يصح
وصفهما بأنهما أصحاب دين .

وليس صحيحا ما يزعمه المبتدعه من أن المتدين هو من يربي لحيته،
أو يقصر ثوبه، أو يمشي والسبحة أو السواك في يده فقط، لأن هذه مظاهر
لا قيمة لها إذ لم يكن معها حسن الاعتقاد والعمل، وحسن الخلق والسلوك .
وليس صحيحا كذلك أن تنتقب المخطوبة أو تتحجب مع عدم الالتزام
بتعاليم الإسلام، وأداء فرائضه، والمحافظة على أعماله ونسكه، والتمسك
بأخلاقه، وتوجيهاته، لأن المظهر يجب أن يكون معبرا عن الباطن والسلوك
... ولهذا يقول النبي ﷺ: (**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن**
ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) (١) .

ولا يعني هذا ترك تربية اللحية، أو الحجاب، أو ما يماثلهما من أعمال
مشروعة، وإنما المقصود توضيح أن التدين الصحيح يشمل الأقوال، والأفعال
والأخلاق في كل حال، وأعمال الإنسان اللسانية، والعملية، والقلبية مدونة
ومسجلة، والحساب عند الله شامل لحياة الإنسان كلها .

والشهود يوم القيامة عديدون على الرجال والنساء، وهم في الدنيا
يكتبون، ويحفظون أقوال الإنسان ، وأعماله، وخلقه، وكافة معاملاته مع أهله
وأقربائه، والناس أجمعين .

(١) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم - حديث: ٤٧٥٦ .

إن التدين الحقيقي اليوم عملة نادرة ، والبحث عنه في الرجل والمرأة عند الاختيار واجب يحتاج إلى التفصي والبحث الدقيق، وعدم الاكتفاء بالمظهر والصورة العامة .

وعلى الرجل، وأولياء المرأة اتباع المنهج العمري في معرفة الإنسان .
فعن خرشة بن الحر رضي الله عنه قال : (شهد رجل عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشهادة .

فقال له عمر : " لست أعرفك ، ولا يضرك أن لا أعرفك ، إئت بمن يعرفك .
فقال رجل من القوم : أنا أعرفه .

قال عمر رضي الله عنه : " بأي شيء تعرفه ؟ "
قال : بالعدالة والفضل .

فقال عمر رضي الله عنه : " فهو جارك الأدنى الذي تعرف ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ؟ "
قال : لا .

قال عمر رضي الله عنه : " فمعاملتك بالدينار والدرهم اللذين بهما يستدل على الورع؟ " .
قال : لا .

قال عمر رضي الله عنه : " فرفيقك في السفر الذي يستدل على مكارم الأخلاق ؟ "
قال : لا .

قال عمر رضي الله عنه : " لست تعرفه " .

ثم قال للرجل : " إئت بمن يعرفك) (١) .

(١) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب آداب القاضي، باب من يرجع إليه في السؤال ، حديث : ١٨٩٦٦ .

فوضح عمر بذلك أن معرفة حقيقة الإنسان تكون بمعاشرته، ومعاملته، واكتشاف ورعه، وصدق تدينه ... وبهذا يمكن الوقوف على صفات الإنسان، ومعرفة أخلاقه، وتدينه ... فلم يرض عمر رضي الله عنه بشهادة الرجل، لأنه أخذها من الظاهر، ولم يتعمق في شخصية صاحبه بالسفر معه، أو معاملته بالدينار، والدرهم، أو مجاورته في السكن .

ويصاب المؤمن اليوم بالذهول حين يرى اهتمام الشباب والشابات بالمظاهر الشكلية، والأزياء البراقة، والميوعة، والدلال ، ... وهذا يؤدي إلى الفساد، ويخرج جيلا من الأولاد لا يعرف ديننا، ولا يلتزم بسلوك مشروع ، ... ولسوء الاختيار كثر الفراق والطلاق .

**إن التدين يجعل العبد يراقب الله تعالى، ويلتزم بمنهجه المشروع في تعامله مع الناس، والإحسان إلى زوجته، وإدراك وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء .
والزوجة المؤمنة هي التي تطيع الزوج إذا أمر، وتحفظه في ماله وولده، وتراعي الله في حقوق زوجها وأولادها، ولا ترضى لأحد أن يكون أحق بصحبتها بعد الله عز وجل إلا زوجها .**

ولا شك أن الأسرة المؤمنة ستنشئ الأولاد على الخلق الحسن، وحب دين الله القويم .

ولذلك دعا الإسلام إلى ضرورة التحري والبحث عند الاختيار .

- ٢ -

الأصل والحسب

من الصفات التي يحسن مراعاتها في الاختيار النسب والحسب للرجل وللمرأة على السواء، لأن أصالة النسب، وكرم الأرومة في الزوجين يخرجان أولادا يتمتعون بصفات أبائهم ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

- (تخيروا لنطفكم ، فانكحوا الأكفاء ، وأنكحوا إليهم) (١) .
- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (سمعت النبي ﷺ وهو يوصي رجلا يقول : " يا أبا فلان : أقل من الدين تعش حرا ، وأقل من الذنوب يهن عليك الموت ، وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس) (٢) .
- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (قال رسول الله ﷺ : " تخيروا لنطفكم وانظروا أين تضعونها ، فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن ، وانكحوا الأكفاء ، وانكحوا إليها) (٣) .
- فهذه الأحاديث ترشد إلى اختيار زوجات نشأن في بيت صالح، وفي أسرة عرفت بأصالة النسب، ومكارم الأخلاق، وتعودت الصلاح والتقوى، يقول النبي ﷺ : (حق الولد على والده أن يحسن اسمه، ويحسن موضعه، ويحسن أدبه) (٤) .
- ويحذر النبي ﷺ من اختيار المرأة التي نشأت في أصل دنئ وضيع، فيقول ﷺ : (إياكم وخضراء الدمن " .
- ف قيل : يا رسول الله ، وما خضراء الدمن ؟
- قال ﷺ : " المرأة الحسناء في المنبت السوء " (٥) .

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب النکاح، حدیث : ٢٦١٨

(٢) معجم ابن الأعرابي حدیث : ٩٤٦ .

(٣) معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني - الكنى، عائشة الصديقة بنت الصديق - حدیث : ٦٧٦٧ .

(٤) معجم الشيوخ لابن جميع الصيداوي - حرف العين، حدیث : ٢٨٣ .

(٥) مسند الشهاب القضاعي - إياكم وخضراء الدمن، حدیث : ٨٨٨ .

وتطبيقاً لهذا التوجيه الإسلامي أوصي عثمان بن أبي العاص الثقفي أولاده بتخير المرأة الأصلية ، فقال لهم : (يا بني الناحح مغترس ، فليُنظر كل منكم حيث يضع غرسه ، والعرق السوء قلما ينبج ، فتخيروا ولو بعد حين) (١) ، ... ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (حق الولد على أبيه أن ينتقي أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه القرآن) (٢) .

ومن الثابت دينياً وعلمياً تأثير النسب في الأبناء ، وتوارث الأولاد صفات آبائهم ، ومن ذلك قول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام حين دعا على قومه ، وقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فٰجِرًا كَفَّارًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (٣) ، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم سر عندما سمع المدلجي يقول بعدما رأى أقدام أسامة بن زيد ، وزيد بن حارثة رضي الله عنهما (إن هذه الأقدام بعضها من بعض) (٤) .

فهذه النصوص تدل بوضوح على أن الأبناء يرثون من آبائهم الصفات الجسدية ، والعقلية ، والنفسية .

وكان هذا التوارث معروفاً قبل الإسلام ، فقد جاء في عيون الأخبار أقوال عدة ، ... منها :-

قول أكتم بن صيفي لبنيه ، قال : لا يفتنكم جمال النساء عن صراحة النسب ،

(١) تربية الولد في الإسلام ج ١ ص ٣٨ .

(٢) تربية الولد في الإسلام ج ١ ص ٣٨ .

(٣) سورة نوح الآيتين : ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) صحيح البخاري - كتاب الفرائض ، باب القائف - حديث : ٦٤٠٠ ، وسبب سروره صلى الله عليه وسلم أن قول المدلجي ينفي ادعاء الكفار أن أسامة ليس ابن زيد بن ثابت ، لاختلاف لونيها .

فإن المناجح الكريمة مدرجة الشرف" (١) .

ويقول أحد الحكماء لبنيه: قد أحسنت لكم صغاراً، وكباراً ، وقبل أن تولدوا .

قالوا : كيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟

قال: اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها (٢) .

ولهذا كان الاهتمام باختيار ذات النسب عاملاً أساسياً في الاختيار مع

الصلاح والتقى .

- ٣ -

الرضى النفسي

يبحث الرجل عن زوجة تؤنسه، ويؤنسها، ويتبادل معها المودة والرحمة،

ويسكن كل منهما للآخر، كما قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِيَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ

لَهُنَّ ﴾ (٣) ولذلك كان من الضروري حين البحث عن زوجة، وعند اختيار

الزوج أن يتخير كل من الزوجين شريكه بما يرضي ميول نفسه، ورغبات

عقله، وتوهج وجدانه في الإطار المشروع والواقع .

وليس كل الناس ذا ميول واحدة، أو ذا حب واحد، ولكنهم أشتات كثيرة،

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ (٤) .

ولذا كان على الرجل والمرأة أن يتخيروا ما يرضيهما بعد الدين من

صفات ... أهمها : -

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٤ ص ٣ .

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٤ ص ٣ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١٨٧ .

(٤) سورة الليل الآية : ٤ .

أولاً : الجمال، فالجمال محبب إلى النفس، يميل إليه القلب، ويسعد به العقل والروح، وعليه قام الوجود كله، فالزرع أخضر جميل، والثمر أشكال شتى، والطير مسخرات في جو السماء، والشمس تجري لمستقر لها، والهواء يجري للناس رخاء، والماء ينزل من عليائه بأمر الله تعالى، والوديان تمتلئ بالأنهار، والزرور، وألوان الجبال المتعددة، والكواكب زينة للناظرين
يقول الله تعالى :

- ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)
- ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴿١٧﴾ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢) .
- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣) .
- ﴿ أَمْ مَنْ حَقَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي قُوَّةٍ يَعْدِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٤) .

ولقد ميز الله تعالى الإنسان بالجمال الخلقى الذي لا وجود له في سائر

(١) سورة الحجر الآية : ١٦ .

(٢) سورة فصلت الآية : ١٢ .

(٣) سورة فاطر الآيتين : ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) سورة النمل الآية : ٦٠ .

المخلوقات، فحواسه متنوعه، وأذنه في جانبي رأسه، وعينه في وجهه، ولسانه يتكلم به، ويده يبطش بها، ورجله يمشي عليها، وجعل له الوجه للمواجهة، والكلام ، وتناول الطعام، والشراب، وزرع فيه الحواس فبدت بحسن وجمال .

يقول الله تعالى :

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (١) ﴿
- ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ ﴾ (٢) ﴿

- ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) .

وأمر الله تعالى بلبس الثوب الجميل، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال :
(كان النبي ﷺ مربوعا، بعيد ما بين المنكبين ، له شعر يبلغ شحمة أذنه، رأيته في حلة حمراء ، لم أر شيئا قط أحسن منه) (٤) .

وأحب الله تعالى لعباده الطيب، يقول النبي ﷺ : (حُب إلي من الدنيا النساء ، والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة) (٥) .

ولقد جبل الإنسان على حب الجمال في كل شيء، ولذلك حسن له أن يتخير من النساء ما يرضيه حسنهن، وجمالهن بشرط تمتعهن بالصلاح والتقوى، وأصالة النسب .

(١) سورة المؤمنون الآية : ٧٨ .

(٢) سورة السجدة الآيات من ٧ : ٩ .

(٣) سورة التغابن الآية : ٣ .

(٤) صحيح البخاري - كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم - حديث : ٣٣٧٩

(٥) مستخرج أبي عوانة، مبتدأ كتاب النكاح، باب ذكر حض النبي ﷺ على تزويج الأبقار - حديث : ٣٢٥٦

ومن المعلوم أن الجمال نسبي، ولكل إنسان نظرة خاصة إلى الجمال، فمن الرجال من يرى الجمال في المرأة الطويلة، البيضاء، النحيفة، ومنهم من يراها على خلاف ذلك، ومنهم من يخلط بين هذه الصفات، ولكل بلد جماله، فالمرأة الإفريقية الزنجية غير العربية، وغير الأوربية، والمهم أن يختار الرجل والمرأة الجمال الذي يرضيه في الحياة الزوجية حتى لا ينظر لغيرها بعد الزواج ، ولا يفارقها لدمامتها، ولا تنتظر هي لغيره .

والجمال حسي ومعنوي، وليبحث كل من الرجل والمرأة عما يرغب ويريد، لتقوم الأسرة على الحب الروحي، والرضى العقلي، والإشباع الجسدي .

ثانياً : اليسر المالي :

يرغب بعض الناس في الثروة والمال، وعليه أن يبحث عن المرأة الغنية بما تملكه، أو بما سترثه، لأن غنى الزوجة يعود لولدها، وقد تعطي لزوجها شيئاً، وقد تكفيه المؤنة المادية، والنفقة .

والبحث عن المرأة الغنية أمر مشروع بشرط المحافظة على الدين، وما دام غنى الزوجة أو غنى الزوج يرضي الطرف الآخر، فليبحث كل منهما عما يرضيه في هذا الجانب، مع ضرورة وجود صفة الدين حتى لا يكون المال شؤماً على الأسرة عند عدم وجود الدين .

ثالثاً : البكر :

من الصفات التي يحسن وضعها في الاعتبار حين البحث والاختيار أن تكون البنت بكرًا لم يسبق لها الزواج، لأن ذلك يولد الحنان والمحبة، ويملاً الحياة الزوجية بالأنس والبهجة، يقول النبي ﷺ : **(عليكم بالأبكار ، فإنهن**

أعذب أفواها ، وأنتق أرحاما ، وأرضى باليسير) (١) ، ومعنى الحديث أن البكر طيبة الحديث، ولا يخرج فوها إلا الكلام العذب الحسن، وأنها تكون أكثر أولادا لصغرها، وأنها أقل مكرًا وخداعًا، وأنها أحسن وأيسر في المعاشرة ولا تقارن بين زوجها وبين رجل آخر سبق لها الزواج به .

يقول الإمام الغزالي : في البكر ثلاث فوائد : -

أولها : أنها تحب الزوج وتألفه، وهذا يؤثر في معنى الود، والطباع مجبولة على الأُنس بأول مألوف .

ثانيها : يألف الزوج البكر أكثر، لأن الطبع ينفرد عن التي مسها رجل آخر تزوجته قبله .

ثالثها : أكد الحب ما يقع للحبيب الأول (٢) .

وقد ألمح النبي ﷺ لجابر بن عبد الله رضي الله عنه عن محاسن الزواج بالبكر، فقد روي عن جابر رضي الله عنه أنه قال : (هلك أبي وترك سبع أو تسع بنات ، فتزوجت امرأة ، فقال النبي ﷺ : " تزوجت يا جابر " ؟ قلت : نعم .

قال : " بكر أم ثيبا " ؟

قلت : ثيبا .

قال : " هلا جارية تلاعبها وتلاعبك ، أو تضاحكها وتضاحكك " ؟

قلت : هلك أبي فترك سبع أو تسع بنات ، فكرهت أن أجيئن بمثلهن ، فتزوجت امرأة تقوم عليهن .

(١) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح، باب تزويج الأبكار - حديث : ١٨٥٧

(٢) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٤٢ .

قال : " فبارك الله عليك " (١) .

ففي الحديث إشارة إلى حسن الزواج من البكر، إلا أن الثيب قد تفضلها في حالات خاصة .

وقد ضربت السيدة عائشة رضي الله عنها مثلا لبيان فضل الزوجة البكر حين قالت: (قلت يا رسول الله ، أرأيت لو نزلت واديا وفيه شجرة قد أكل منها ، ووجدت شجرا لم يؤكل منها ، في أيها كنت ترتع بعيرك ؟

قال : " في الذي لم يرتع منها " (٢) ، وزاد البيهقي قولها رضي الله عنها : (فأنا هي) (٣)، وتقصد رضي الله عنها بيان مزيتها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها .

إن الزوجة البكر ترى في زوجها الذي رضيت به ما تتمناه من رجل في الدنيا، وتعيش على فطرتها، ولذلك يصل الزوج معها إلى الهناء والرضى، وتحقيق المودة والرحمة .

ومما يجدر ذكره ضرورة الإخلاص بين الزوجة البكر وزوجها، وعدم إشراك غيرها في حياتهم، ولو كانوا أقرباء، ليبقى أمرهما لهما وحدهما، ولا تضطر الزوجة لاتباع مشورة غيرها ممن لا خبرة لهم، ولا معرفة لديهم بالروح التي تسود الحياة الزوجية من اتصال وتلاق، ... فلقد خبرت زوجات أبكارا أسلمن أمرهن لغير أزواجهن، فانقلب الحال الأسري إلى خصومة، وخلاف، وشقاق.

(١) صحيح البخاري - كتاب الدعوات، باب الدعاء للمتزوج - حديث : ٦٠٣٣ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب النكاح، باب نكاح الأبكار - حديث : ٤٧٨٩ .

(٣) السنن الكبرى للبيهقي - كتاب النكاح، باب استحباب التزويج بالأبكار، حديث : ١٢٥٩٣ .

رابعاً : المرأة الولود :

الشاب حين يفكر في الزواج يأمل في أمرين :

أولاهما : السكن النفسي، والهدوء في حياته ومعاشه .

والأمر الثاني : أن يرزقه الله تعالى أولادا، يربيهم على الدين، يرثونه بعد

وفاته، وبذلك تبقى ذريته، ويستمر نسله .

ولذلك حسن للشباب عند الاختيار أن يبحث عن المرأة الولود، وهذا يعرف

من النظر إلى حال أمها، وأخواتها، فإن علم لهن أولادا فهي مثلهن بأمر الله

ومن ملامح المرأة الولود سلامة البدن، وقوة الصحة، وحب النشاط

والحركة، عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ،

فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب ومنصب ، إلا أنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟

فنهاه ثم أتاه الثانية ، فنهاه ثم أتاه الثالثة ، فنهاه .

فقال ﷺ : " تزوجوا الولود الودود ، فإني مكاثر بكم) (١) .

وتفضل المرأة السوداء الولود المرأة الجميلة العقيم، لقوله ﷺ : (سوداء

ولود خير من حناء لا تلد) (٢) .

وللبنت أن تتحرى عن عقم من يتقدم لخطبتها أو خصوبته، لأن الولد

غاية لها كما هو غاية للرجل، ولا مانع من أن يتفق الرجل وولي المرأة

على أخذ رأي الأطباء في هذه الصفة، فهو أيسر، وأحسن للطرفين .

إن الإسلام يوضح الصفات التي يحسن للرجل أن يختار زوجته متصفة

بها، والصفات التي ترضى الزوجة بها في زوجها، وأولها التدين والإيمان في

(١) السنن الصغرى - كتاب النكاح، كراهية تزويج العقيم - حديث : ٣١٩٢

(٢) المعجم الكبير للطبراني - باب الميم، حديث : ١٦٧٤٢

كليهما، وهي الصفة التي لا يصح إغفالها، أو الإقلال من شأنها، أو التنازل عن جزء منها، في الوقت الذي يمكن التنازل عن قدر من الصفات الأخرى. وعلى أولياء الزوجة أن يوافقوا على الرجل المتصف بالدين والأمانة، يقول النبي ﷺ : (إذا أتاكم من ترضون خلقه، ودينه فأنكحوه ، ألا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض) (١) .

ومن حق المرأة أن تختار الرجل الذي يتقدم للزواج منها كما هو حق للرجل، وأولياؤها معها في تخير الرجل، فلقد خيرت السيدة عائشة ؓ بريدة ؓ بعد أن اعتقتها في زوجها مغيث ؓ أن تظل زوجة له وهو لا يزال عبداً، أو تختار نفسها ، فاختارت نفسها ، وقررت مفارقتها مع شديد تعلقه بها، فعن ابن عباس ؓ (أن زوج بريدة كان عبداً يقال له مغيث ، كأني أنظر إليه، يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيل على لحيته .

فقال النبي ﷺ للعباس : " يا عباس ، ألا تعجب من حب مغيث بريدة ، ومن بغض بريدة مغيثاً ؟ !

فقال النبي ﷺ : " لو راجعته " .

قالت : يا رسول الله تأمرني ؟

قال ﷺ : " إنما أنا أشفع " .

قالت : لا حاجة لي فيه (٢) .

وأقر رسول الله ﷺ خلع جميلة ؓ أخت عبد الله بن أبي ؓ ، فعن أبي جرير ؓ (أنه سأل عكرمة ، هل كان للخلع أصل ؟

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم کتاب النکاح، حدیث : ٢٦٢٥ .

(٢) صحیح البخاری - کتاب الطلاق، باب شفاعة النبي ﷺ في زوج بريدة - حدیث : ٤٩٨١ .

قال : كان ابن عباس يقول : " إن أول خلق كان في الإسلام أخت عبد الله بن أبي ... إنها أنت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبدا ، إني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة ، فإذا هو أشدهم سوادا ، وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجها .
قال زوجها : يا رسول الله إني أعطيتها أفضل مالي حديقة فلترد علي حديقتي .

قال ﷺ : " ما تقولين ؟ "

قالت : نعم ، وإن شاء زدته .

ففرق بينهما (١) .

وكما ندب الإسلام مراعاة الخصال المرغبة في النساء ، ندب إلى مثله في الرجال ، فعلى الولي أن ينظر لكريمته فلا يزوجه ممن ساء خلقه ، أو تشوهت خلقته ، أو ضعف دينه ، أو كان لا يكافئها في نسبها ، ومالها .
والاحتياط في حقها أهم من الاحتياط في حقه ، لأن المرأة رقيقة بالنكاح ، لا مخلص لها إلا في حالات خاصة ، بينما الزوج قادر على الطلاق بكل حال (٢) .

وأیضا فإن الإقبال على نكاح الثيب المطلقة قليل ، بينما لا يتأثر الرجل عند زواجه بطلاق سبق له في حياته .

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري - سورة البقرة، القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ ۚ ۝۱۸۲ ﴾ .

فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ ۚ ، حديث : ٤٣٨٢ .

(٢) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٤٣ .

إن الأسرة المسلمة بستان الخير والفلاح، تتميز بخصوبة أرضها ،
وجمال أزهارها، وحسن ثمارها ، وهي لذلك تتطق بعظمة الأصل، وحسن
الصفات ، وتشهد لخريجها بالدين والخلق .

إن هذه الصفات تجعل الأسرة حصنا منيعا، تسكن فيه زوجة، لا تخرج
إلا قولاً طيباً، وتلد أولادا يمرحون وسط هذه الروضة اليانعة التي تطعمهم
الدين والخلق، وتسقيهم القيم النافعة، والمبادئ الجميلة .

إن حث الإسلام على الاختيار عند الزواج يعود للولد، فقد ثبت أن كثيرا
من صفات الوالدين الجسدية، والعقلية، والزوجية تنتقل إلى الولد ، فإن الحياة
لا تلد إلا حياة مثلها، وقد سبق بيان ذلك (١) .

إن الإسلام بهذا الاختيار يضع الأساس القوي لصناعة الولد على ما يريده
رب العالمين .

ولابد للرجل والمرأة من الاختيار والرضى عند النكاح لما يترتب على
ذلك من هناءة الحياة ، واستمرار المودة بين الزوجين ، وتوجههما معا في
العناية بالولد، والحرص على سلامة الذرية، وأسباب الرضى النفسي كثيرة ،
وكل يختار لنفسه ما يرضى به .

وقد عبرت المرأة البدوية عن راحتها النفسية بزواجها من ابن عمها
الصالح مع فقره، وإقامته وسط صحراء مقفرة في خيمة منصوبة لا ترد مطرا،
ولا تمنع طيرا، ... ولكنها نظرت إلى راحة النفس، وتوافق الطبع، وتلاقي
الأرواح، ... فضلت ابن عمها على المال، والغنى، والجاه، ... وقالت :

ولبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف

(١) انظر ص ٢٧ وما بعدها .

وبيت تنعق الغربان فيه أحب إلي من قصر منيف
وزوج من بني عمي تقي أحب إلي من جسد علوف
ورزق طيب من عند ربي أحب إلي من عد الألووف
وخير أن أعيش اليوم دينا وأسكن في الجنان مع الصفوف

الفصل الثاني

التوجيه العملي

لصناعة الولد

التوجيه العملي لصناعة الولد

شرع الله تعالى الزواج لتحقيق الأُنس والمودة، وإيجاد الولد في جو آمن يحيطه الحب، والحنان، والرعاية .

إن تشريع الزواج بمنهج الله تعالى يؤدي إلى ظهور أبناء ينشأون في محضن كريم، يعلمون نسبهم، ويرون في الآباء والأمهات الإسلام الحقيقي في أقوالهم ، وأفعالهم ، وينتقد بهم العمر ومعهم معالم آبائهم وأمهاتهم .
إن عظمة التشريع الإسلامي في الزواج تبدو حين ننظر إلى أي مجتمع إباحي، يبيح الفجور والفسق، ويسمح للشباب والبنات باللقاء الشهواني، والإعجاب المتبادل، والنظرات الماجنة، حيث نجد أطفالا تربيتهم الخادمت بلا حنو ولا شفقة، ونرى لقطاع ينشأون في الملاجئ ودور اللقطاء بلا رحمة ولا حنان .

وقد حاولت بعض المذاهب الوضعية إلغاء الزواج، ونادوا بشيوعية المرأة، ففشلوا فشلا ذريعا، وعادوا إلى الفطرة، وأباحوا لأتباعهم الزواج .
إن الإسلام يشرع الزواج، ويبسر كل ما يتعلق به، ويوصي بضرورة إنشاء الزواج على أسس متينة، لتقوم الأسرة المسلمة بدورها التي شرعت له، وهو تحقيق الأمن والاستقرار للزوجين، في جو من الأُنس والمودة، وإيجاد نسل كريم، وذرية طيبة تتصف بصفات والديهم في الدين والخلق .
ولهذا شرع الله تعالى أمورا عدة لأبد منها قبل الزواج ، وأهمها ما سأوضحه - بإذن الله تعالى- في المباحث التالية : -

المبحث الأول توثيق الاختيار بالخطبة

بعدها يبذل الرجل المقدم على الزواج جهده في اختيار زوجته، فإنه يتقدم لخطبتها من وليها ليزداد التعارف، ويتم الزواج .

والخطبة ليست عقداً، وإنما هي مرحلة لاحقة لفترة الاختيار، وممهدة للعقد والنكاح، فالرجل فيها غريب عن المرأة، لا يختلي بها، ولا يلمسها، ولا يرى منها إلا الوجه والكفين .

إن الخطبة مقدمة للزواج، وهي امتداد لفترة الاختيار، ليعرف كل من الرجل والمرأة صاحبه، وبخاصة أن العرف الاجتماعي لا يبسر هذا التعارف قبل الخطبة، ويتم هذا التعارف برؤية كل منهما للآخر، ويصح أن يتعمق التعارف ليشمل الظاهر الجسماني، وملامح الشخصية النفسية والعقلية، والخلفية، وذلك خلال لقاء يحضره بعض محارم المرأة .

يقول الإمام النووي الشافعي : مذهبنا ومذهب الإمام مالك ، وأحمد، والجمهور جواز النظر إلى المخطوبة لقول النبي ﷺ : (إذا خطب أحدكم امرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى بعض ما يدعوها إلى نكاحها فليفعل) (١)
ويقول أبو إسحاق الشيرازي : يجوز للمرأة إذا أرادت أن تتزوج برجل أن تنظر إليه، لأنه يعجبها من الرجل ما يعجب الرجل منها (٢) .

ولا مانع من أن تنتزين المرأة الزينة العادية عند لقاء من يتقدم لخطبتها،

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب النکاح، حدیث : ٢٦٢٦

(٢) المجموع شرح المهذب للشيرازي ج ١٥ ص ٢٩٥ .

فقد أباح الشرع الحنيف ذلك حين تتعرض البنت للخطاب، فعن عائشة رضي الله عنها (أن أسامة عثر بعتبة الباب، فدمي، فجعل النبي ﷺ يمصه ويقول: " لو كان أسامة جارية، لحليتها، ولكسوتها حتى أنفقاها) (١) .

يقول ابن حجر: ذهب الجمهور إلى أنه لا بأس أن ينظر الخاطب إلى المخطوبة، ولا ينظر إلى غير وجهها وكفيها .

وقال الأوزعي : يجتهد وينظر إلى ما يريد منها إلا العورة .

وقال ابن حزم : ينظر إلى ما أقبل منها، وما أدبر منها (٢) .

وعلى أولياء المرأة أن يسألوا البنت عن رأيها في الخاطب الذي تقدم لخطبتها بعد رؤيتها له، وإحاطتها بشخصيته، وهل هي موافقة عليه أم لا ؟، وعليهم مشاركتها في الحوار والرأي، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : " الثيب تستأمر في نفسها ، والبكر تستأذن " .

قالوا : يا رسول الله ، وكيف إذنها ؟

قال : " أن تسكت) (٣) ، أي إن إذن البكر، ورضاها عن الرجل الذي جاء يخطبها يكون بالسكوت، وما يشابهه من ضحك، وخجل .

وأرى اليوم ضرورة استئثار البكر والثيب على سواء، فقد صارت البكر مثل الثيب في التصريح برأيها عند اختيار الخاطب، بسبب انتشار الثقافات ، وطول الاختلاط في التعليم والعمل، وتغير الأحوال، وظهور الجرأة في الأبيكار، حتى أن البكر تختار الرجل قبل أن يتقدم لوليها أحيانا .

(١) مسند أحمد بن حنبل - مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، حديث : ٢٤٥٢٤

(٢) فتح الباري ج ١١ ص ٨٦، ٨٧ .

(٣) مسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم، مسند أبي هريرة رضي الله عنه - حديث : ٩٢٨٨

المبحث الثاني ضرورة المهر

المهر نوع من الهبة يحدده ولي الأمر مع الخاطب قبل عقد النكاح، وقيمة المهر في رمزيته، فهو يرمز إلى استعداد الرجل للتضحية ، والإنفاق على زوجته، وقيامه بالسعي وتحقيق حاجاتها بعد أن كفلها، وصار قواما عليها

إن هذا المهر يزرع في قلوب الزوجين ألفة ومحبة، ولا حد له فيجوز بالقليل والكثير، ويصير ملكا للمرأة بعد أخذه إن كان مقبوضا، وهو لها حين تأخذه إن كان مؤجلا، ولا يجوز للزوج أن يأخذ منه شيئا إلا بإذنها.

والمهر هو الصداق، وعنه يقول الله تعالى : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ (١) أي هبة وعطية .

ويجوز للمرأة أن تتنازل عن مهرها، أو عن جزء منه لزوجها لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوْهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ (٢) .

ولم يحدد الإسلام مقدار المهر، ولم يحدد نوعه، فقد يكون مالا مقبوضا، أو مؤجلا، أو عقارا، أو أرضا مزروعة، أو أنعاما، أو منفعة، ففي حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : (جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، جئت أهب لك نفسي .

قال : فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر فيها وصوبه ، ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه .

(١) سورة النساء الآية : ٤ .

(٢) سورة النساء الآية : ٤ .

فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست .
فقام رجل من أصحابه، فقال : يا رسول الله ، إن لم يكن لك بها حاجة
فزوجنيها .

فقال ﷺ : " وهل عندك من شيء ؟ "

قال : لا والله يا رسول الله .

فقال ﷺ : " اذهب إلى أهلِكَ فانظر هل تجد شيئاً ؟ "

فذهب ثم رجع ، فقال : لا والله ما وجدت شيئاً .

فقال رسول الله ﷺ : " انظر ولو خاتماً من حديد " .

فذهب ثم رجع ، فقال : لا والله يا رسول الله ولا خاتماً من حديد ، ولكن

هذا إزاري - قال سهل : ما له رداء - فلها نصفه .

فقال رسول الله ﷺ : " ما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء "

، وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء " .

فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام ، فرآه رسول الله ﷺ مولياً ، فأمر

به فدعي .

فلما جاء قال ﷺ : " ماذا معك من القرآن ؟ "

قال : معي سورة كذا وسورة كذا ، عددها .

فقال ﷺ : " تقرؤون عن ظهر قلبك . "

قال : نعم .

قال ﷺ : " اذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن (١) ، وهذا الحديث يدل

على جواز أن يكون المهر منفعة ، فقد زوج النبي ﷺ الرجل ، وجعل المهر

(١) صحيح البخاري - كتاب النكاح، باب تزويج المعسر - حديث : ٤٧٩٩

أن يعلمها ما يحفظ من القرآن الكريم .

وفي الحديث دلالة على أن الإسلام لم يحدد أقل المهر ، ، فقد جعل التعليم مهرا.

ولم يحدد الإسلام أكثر المهر، وإنما تركه لسعة الزوج، لقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْتُمُ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ (١) ، فذكر القنطار نكرة يفيد الكثرة .

وأحب هنا بيان أن الإسلام يكره المغالاة في المهر تيسيرا للزواج، وعدم إرهاق الرجل، وبيانا للرمزية المعنوية في المهر، فليس هو ثمنا لشيء، وإنما هو إعلان عن الاستعداد والبنل، والكرام لا ينظر لكم بقدر ما ينظر للكيف، وكم من بسمه حانية خير من مال وفير ، يقول الله تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وعن أبي العجفاء السلمي رحمته الله قال: (سمعت عمر يقول : ألا لا تغلوا صدق النساء ، ألا لا تغلوا صدق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبي صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه ، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية " وإن الرجل ليبتلئ بصدقة امرأته ، - وقال مرة : وإن الرجل ليغلي بصدقة امرأته - حتى تكون لها عداوة في نفسه ، وحتى يقول: كلفت إليك علق القربة) (٣) .

(١) سورة النساء الآية : ٢٠ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٦٣ .

(٣) مسند أحمد بن حنبل - مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عمر بن الخطاب ، حديث : ٢٨٠

المبحث الثالث إتمام العقد

إذا وافق الطرفان على الزواج، وتقدم الخاطب للولي، ورضيت به الزوجة ووليها، وتم تحديد المهر، وكيفية دفعه، وزمن أخذه يقومان بتوثيق الاتفاق بالعقد في وسط من الإعلان العام، وإظهار الفرح والسرور، والبهجة، ليفرح المسلمون المحيطون من أهل الرجل والمرأة، ومن يجاورهم، ومن يعيش معهم بإنشاء أسرة مسلمة على سنة الله تعالى ورسوله ﷺ، ويعرف الجميع أن فلانا تزوج فلانة، وعقد قرانهما الساعة، على منهج الإسلام، وليعلم الجميع أنه خال من الأنكحة التي حرمها الإسلام، ونهى عنها، فقد حرم الإسلام نكاح الشغار (١)، ونكاح الضيزن (٢)، ونكاح البذل (٣)، ونكاح الاستبضاع (٤)، ونكاح البغايا (٥)، ونكاح الرهط (٦).

-
- (١) نكاح الشغار: هو أن ينكح كل ولي مولية الآخر بلا صداق لهما.
 - (٢) نكاح الضيزن: أن يزاحم الرجل أباه في أمة ليست أمه إذا طلقها الأب، أو مات عنها
 - (٣) نكاح البذل: أن يتنازل الرجل عن امرأته لغيره مقابل أن يتنازل له الغير عن امرأته أيضا.
 - (٤) نكاح الاستبضاع: أن يقول الرجل لزوجته إذا طهرت من طمئتها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها حين يشاء، وإنما يفعل ذلك نجابة في الولد
 - (٥) نكاح البغايا: أن يجتمع عدد كثير من الرجال على المرأة فإذا حملت أرسلت إليهم، وعرفتهم أن ما في بطنها هو ولد فلان، فلا يستطيع أحد رد قولها، وكانت البغي تضع راية حمراء على دارها ليأتيها من يبغوها.
 - (٦) نكاح الرهط: هو أن يجتمع الرجال دون العشرة على المرأة، فإذا حملت وولدت أرسلت إليهم، وعينت منهم أبا للولد، فلا يستطيع أحد رد قولها.

وقد اشترط الإسلام أن يتم العقد بولي وشاهدي عدل، يقول النبي ﷺ فيما رواه عنه معقل بن يسار رضي الله عنه: (لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل ، وما كان من نكاح على غير ذلك ، فهو باطل ، فإن تشاجروا فالسلطان ولي من لا ولي له) (١) .

والحديث واضح الدلالة على اشتراط وجود الولي والشهود في عقد النكاح وسط عدد من المسلمين، يباركون للعروسين ، ويدعون لهم بالولد والتوفيق . وقد نظم الإسلام مراسم الزواج، وبين من يحل من النساء ، ومن يحرم منهن، لإقامة الزواج على أصول نظيفة تحافظ على حرمة الأقرباء ، وتؤلف الغرباء، وتجدد عوامل الائتلاف، والتعاون، والمودة بين المسلمين .

وقد حرم الإسلام على الرجل أن يتزوج واحدة من أصوله، وفروعه ، فقال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِمَّنْ أَرْضَعْتُمْ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ سَاءَ بِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ (٢)

وكذلك حرم الإسلام على الزوجة أن تقترن بأحد من أصول زوجها وفروعه بعد زواجها منه، فقد حرمهم الله تعالى عليها، كما حرم على الرجل أصولها وفروعها، فكأنما أنزل الله تعالى كلا الزوجين منزلة الآخر، وجعل

(١) صحيح ابن حبان - كتاب الحج، باب الهدى ، حديث : ٤١٣٨

(٢) سورة النساء الآية : ٢٣ .

فروع كل منهما وأصوله بالنسبة إلى الآخر منزلة أصول نفسه وفروعه، فهذه حكمة بالغة أقامها الشرع لنا برهاناً واضحاً على أن اتصال إحدى العائلتين بالأخرى بطريق المصاهرة مساو لنفس القرابة النسبية في الأحكام والحقوق والاحترام .

وهذا هو الموافق لما عليه طبيعة الاجتماع الإنساني، ... فمن كانت له ابنة، وهو يميل إليها ميل الوالد إلى ولده ، ثم قضت سنة الله في خلقه بأن يقترب بها شخص من الناس، فمقتضى محبة الوالد لابنته أن يطلب لها جميع الخيرات ، ويود لو بلغت أقصى درجات السعادة، وحيث أن سعادتها يبعد أن تكون بدون سعادة زوجها الذي هي مقترنة به ، فمن الواجب عليه أن يميل إلى زوجها ميله إلى ابنته، ويكون عوناً له على سعادته، لتتصل بها سعادة ابنته، وهكذا كل من ينتسب إليها بنوع من القرابة، فعليهم أن يكونوا على طراز من المحبة لزوجها، مثل ما هم عليه بالنسبة إليها (١) .

وقد اختلف العلماء في اشتراط الولي في النكاح:

فذهب الجمهور إلى اشتراط الولي في عقد النكاح ، وقالوا : إن المرأة لا تزوج نفسها أصلاً، واحتجوا بالأحاديث النبوية، ومنها حديث معقل بن يسار المذكور، ومن أقوى أدلتهم قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ (٢)، فهو أصح دليل على اعتبار الولي، وإلا لما كان لعضله معنى، ولأنها لو كان للمرأة أن تزوج نفسها ما احتاجت إلى وليها، ومن كان أمره بيده لا يقال عن غيره أنه منعه وعضله.

(١) الإسلام والمرأة في رأي الإمام محمد عبده : ص ٤٩، ٥٠ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٣٢ .

وذكر ابن المنذر أنه لا يعرف عن أحد من أصحابه خلاف ذلك.
وفي رواية عن مالك أن المرأة إن كانت غير شريفة تزوج نفسها، لكثرة
اختلاطها بالرجال أثناء عملها .

وذهب الأحناف إلى عدم اشتراط الولي، وجوزوا للبنت أن تزوج نفسها
قياسا على جواز قيامها بالبيع والتجارة .

وقد اعتبر الأحناف المرأة البالغة رشيدة عاقلة، وحملوا الأحاديث الواردة
في اشتراط الولي على الصغيرة، وجعلوا القياس عاما لكل تصرفاتها، وهو
عمل سائغ في الأصول .

لكن حديث معقل المذكور يدفع هذا القياس، ويدل على اشتراط الولي في
النكاح دون غيره ليرفع عن موليته العار باختيارها غير الكفاء، وحينئذ
يخصص الحكم بعين ما جاء له، ولا يكون عاما .

وذهب الأوزاعي، وأبو ثور إلى عدم مباشرة الولي العقد، وأجازا للمرأة أن
تزوج نفسها بشرط إجازة الولي، وهذا قولهما في سائر تصرفات المرأة (١).

وإذا كان إذن الولي للمرأة يدور بين الوجوب والندب، فمن بر الولد
والبنت بأبويهما مشاورتهما، وطاعتهما في نصحهما لأسباب عدة، .. منها:-

١- زواج الابن والابنة أمر يهم والديهما، ولذلك كان حرصهما على

تزويج أولادهما ممن يتميزون بمزايا خيراها في الحياة الزوجية .

٢- رأي الأب والأم فيه مزيد رعاية للفتى والفتاة من إنسان محب ،

كبير، يقف بجانبهما ساعة تأسيس أسرة صغيرة جديدة.

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ج ١١ ص ٨٧، ٩٠، ٩٢، ٩٣ .

٣- المشاورة لا تعني إلغاء إرادة الفتى والفتاة واختيارهما، وإنما تعني الترشيد، لأن الآباء يقصدون الخير للأبناء، وما أصدق قول الشافعي: " إن المعنى في اشتراط الولاية في النكاح كيلا تضع المرأة نفسها في غير كفاء" (١) ، أو ينكح الولد بنتا لا تناسبه .

فإن رأى الولد صواب رأيه المخالف لرأي والديه ، فعليه أن يبين لهما موقفه بهدوء وأناة ، ولا يصطدم معهما لقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (٢) ، وكذلك تفعل البنت .

إن بعض الآباء والأمهات يرغبون في تزويج ولدهم قريبة لهم لصفات يرونها في الأصول، ويغضون الطرف عن النظر في صفات البنت نفسها، ولذلك جاز للولد مخالفة رغبة والديه مع معاملتهم بالخلق الكريم، والأدب الجم، وعليه أن يبين لهما أن الاغتراب في الزواج أولى، وتخير الزوجة الصالحة أولى، ويوضح لهما سبب عزوفه عن الزواج بهذه البنت، أو تلك ، وللبنت أن تفعل ذلك مع أביها إن امتنعت عن الزواج من قريب لهما، أو لأحدهما، أو لم يكن قريبا لهما وهما يرغبان فيه ، لأنهما في النهاية يرغبان ما يصلح الولد والبنت وما ينفعهما في الدنيا والآخرة .

يقول الإمام محمد عبده : لا يخفى أن أحكام الشريعة المقدسة ترشدنا إلى أن المصاهرة نوع من أنواع القرابة ، تلتحم بها العائلات المتباعدة في النسب، وتتجدد بها صلات الألفة والاتحاد، ولذلك شرع الله تعالى الزواج، وحسنه بين الغرباء ليقربوا ، وحرّم الله تعالى على الشخص أن يتزوج بأمه،

(١) فتح الباري ج ١١ ص ٣٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ٢٣ .

أو بأنثى من أصولها، وفروعها، كما حرم عليه أن يتزوج بأخته أو أنثى من أصول نفسه، وفروعه، صيانة للقرابة الثابتة بين الأرحام (١) .

ومما يصاحب العقد وجوب الإعلان عنه، فعن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال : (لقي رسول الله ﷺ جوارى يتغنين يقلن : تحيونا نحبيكم ، فوقف رسول الله ﷺ ثم دعاهن ، فقال : لا تقولوا هكذا ، ولكن قولوا : حيانا وإياكم " فقال رجل : يا رسول الله ، أترخص للناس في هذا ؟ قال : " نعم ، إنه نكاح لا سفاح ، أشيدوا بالنكاح) (٢) .

ويندب إعلان الزواج للأقارب، والجيران، والأصدقاء، وإقامة حفل عام خال من أي مُحَرَّم، يقول النبي ﷺ : (فصل بين الحلال والحرام الدف، والصوت في النكاح) (٣) .

وليس من السنة إقامة عقد النكاح في المسجد لما فيه من الضجيج ، وإعلان السرور، والغناء بالدف، وحضور كثير من النساء، والصبيان والبنات...، إلا أن العقد في المسجد مباح مع تجنب المخالفات الشرعية .
ومن السنة إقامة وليمة العرس للأهل، والأقرباء، والأصدقاء، والجيران، ومن يحضر العقد ، وقد نقل عن ابن عبد البر ، وعياض ، والنووي الاتفاق على القول بوجوب الإجابة لوليمة العرس (٤) .

والمشهور من أقوال العلماء الوجوب، وصرح جمهور الشافعية والحنابلة

(١) الأحوال الشخصية للشيخ / محمد أبو زهرة ص ٢٠

(٢) المعجم الكبير للطبراني - من اسمه السائب، حديث : ٦٥٠٩ .

(٣) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح، باب إعلان النكاح - حديث : ١٨٩٢ .

(٤) فتح الباري ج ٩ ص ٢٤٢ .

بأنها فرض عين، ونص عليه مالك (١) .

وعن بعض الشافعية والحنابلة أنها مستحبة ، وذكر اللخمي من المالكية أنه المذهب، وكلام صاحب الهداية يقتضي الوجوب (٢) .

وعن بعض الشافعية والحنابلة هي فرض كفاية، وحكى ابن دقيق العيد في شرح الإمام أن محل ذلك إذا عمت الدعوة، أما لو خص كل واحد بالدعوة فإن الإجابة تتعين (٣) .

ويستحب أن يدعو الحاضرون للزوجين اقتداء برسول الله ﷺ ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه (أن النبي ﷺ كان إذا رفا الإنسان إذا تزوج قال : " بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير) (٤) ، ومعنى رفا أي دعا له بالرفاء والبنين .

وعن أنس رضي الله عنه (أن النبي ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة ، قال : " ما هذا ؟ "

قال : إني تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب .

قال ﷺ : " بارك الله لك ، أولم ولو بشاة) (٥) .

وبعد انتهاء مقدمات الدخول ، يأخذ الرجل زوجته إلى كفالته وبيته ، ويستحب له أن يبدأ معاشرتها بالدعاء والصلاة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال:

(١) فتح الباري ج٩ ص ٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق .

(٤) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب النکاح، أما حدیث سالم - حدیث : ٢٦٧٦ .

(٥) صحیح البخاری - کتاب النکاح، باب : کیف يدعی للمتزوج - حدیث : ٤٨٦١ .

(قال النبي ﷺ : أما لو أن أحدهم يقول حين يأتي أهله : باسم الله ، اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، ثم قدر بينهما في ذلك ، أو قضي ولد ، لم يضره شيطان أبدا) (١) ، ... وهكذا يكون بدء التلاقي بين الزوجين بالدعاء، وطلب الولد الصالح النجيب .

إن هذه الأعمال الشرعية التي تسبق دخول الزوجة بيت زوجها أساس بيت كريم ينشأ الولد فيه، ويعلم الجميع أن الولد من نكاح مشروع ، وسيتولى أمره أبواه المؤمنان، وسيرعيانه كما أمر الله تعالى . وهذا من دقة التشريع في صناعة الولد، وإيجاد المحيط الطيب الذي سيؤثر فيه بإذن الله تعالى .

بهذا المنهج تقوم الأسرة المسلمة في إطار إسلامي خالص، ليعلم الجميع أن هذا الزواج لا سفاح فيه ولا جهالة، وأنه موطن جيد لمجيء الولد. وتبدأ الحياة في الأسرة بعد ذلك وقد تهيأت لإتيان الولد، وأمل الزوجين في الله ﷻ أن يهبهما ولدا صالحا .

وحينما نعيش الواقع اليوم، ونرى الأسر المفككة، والأولاد الضائعين ، وكثرة حالات الطلاق، ونبحث عن السبب في هذه المآسي ندرك أن هذا يرجع إلى عدم الاختيار الصحيح، وإهمال صفة الدين، وجهل حقوق الآخر وواجباته، والبعد الكلي أو الجزئي عن عبادة الله تعالى، وعسى أن يتدارك المسلمون الأمر، ويعملون على إنشاء جيل مؤمن ، ويعودون إلى منهج الله تعالى في تأسيس الأسرة كما كان في عصر السلف الصالح .

(١) صحيح البخاري - كتاب النكاح، باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله - حديث : ٤٨٧١ .

الباب الثاني

الجنين في بطن أمه

الجنين في بطن أمه

شرع الله تعالى الزواج، ووضحت الشريعة مقدماته التي ذكرتها في الفصل السابق ويبدأ الزوجان حياتهما بعد إتمام عقد الزواج بالدعاء والتوجه إلى الله تعالى ليصلح ما بينهما، ويوفقهما لحياة أسرية طيبة، مليئة بالحنان والمودة، ويهبهما الولد كما يشاء ﷻ ، ويشبع ما فطرهما عليه من غرائز تتعلق بحب الجنس الآخر، وحب الولد، وحب الأمن والاستقرار .

يجب أن تقوم حياة المسلمين على منهج الله تعالى، وتستقيم على نظمه، وشريعته في كل حال، وفي كل وقت ، لأن المسلم الحق عبد صادق أمين في عبوديته لربه، وبخاصة أن سيده هو رب الوجود كله ، ولا يغيب شيء عن علمه ، وكل شيء بيده، وعطاؤه واسع ، وليس كمثل شيء، وهذا يجعل العبودية قائمة على منتهى الخوف، ومنتهى الحب، ومقتضى هذا الشعور الصدق التام في القول، والإخلاص التام في الاستسلام والطاعة.

إن الجنين يبدأ علوقه برحم أمه بعد الدخول بتقدير الله تعالى في وقت لا يعلمه إلا الله ﷻ ، ويأخذ في التطور وهو في محضنه الحصين حتى يتم تكوينه، ثم يخرج إلى الدنيا طفلاً يحتاج للرعاية من رضاعة، وحضانة، ونفقه، وتلك كلها أمور قدرية بحتة يتم خلالها المحافظة على الطفل، ورعايته .

يقول ابن قيم الجوزية : والجنين في بطن أمه بمنزلة الثمرة على الشجرة في اتصالها بمحلها اتصالاً قويا ، فإذا بلغت الغاية لم يبق إلا انفصالها لتقلها، وكما لها، وانقطاع العروق الممسكة بها ... فهكذا الجنين تنتهك عنه تلك الأغشية ، وتنفصل العروق التي تمسكه بين المشيمة والرحم ، وتتصب تلك الرطوبات المزلقة فتعيّنه على الخروج، ويفتح الرحم انفتاحاً عظيماً جداً

عند الخروج، وهذا لا يتم إلا بعناية إلهية ، وتدبير تعجز عقول الناس عن إدراك كلفيته (١) .

وفي هذا الباب سنعيش مع الجنين وهو في بطن أمه ، ونتعرض لأحكام بعض التصرفات التي تتصل بالحمل، كالعزل، والتلقيح الصناعي، والإجهاض ، ومنهج الإسلام في المحافظة على الجنين،
وذلك في الفصول التالية : -

(١) تحفة المودود بأحكام المولود لابن قيم الجوزية ص ٢٢٧

الفصل الأول

أطوار

الجنين في بطن أمه

أطوار الجنين في بطن أمه

يمر الجنين في بطن أمه بأطوار عدة تبدأ بالنطفة التي تتكون في الرحم نتيجة التقاء الحيوان المنوي للرجل ببويضة المرأة في الرحم، ويأخذ التطور أشكالاً متعددة تبدأ بالعلوق، وتنتهي بالولادة .

وهذه الحالات التطورية في بطن الأم تتم في ستر تام، والفقهاء والعلماء يسمون الولد خلال هذه المراحل بالجنين لبعده عن أنظار الناس، يقول الله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ تَلِكِ ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿١﴾ ، وهذه الظلمات هي ما يحيط بالجنين من خفاء، بحيث لا يراه أحد، وبسبب هذا الخفاء سمي الجن جننا لعدم رؤيته .

ويرى جمهور الفقهاء أن مسمى " الجنين " يطلق على الولد من اللحظة الأولى للحمل، ويذهب الإمام الشافعي إلى أن الاستعمال الحقيقي للجنين يكون بعد مرحلة المضغة، وما قبلها فهو استعمال مجازي باعتباره مقدمة لتكوين الجنين (٢) .

ويؤيد الطب الحديث رأي الشافعي، لأنه يذهب إلى أن الجنين اسم يطلق على الولد في بطن أمه عندما يظهر عليه الطابع الإنساني بتكون الأجهزة المعروفة للإنسان، وهذا الطابع يكون بعد مرور ثلاثة أشهر من الحمل (٣)

وسأبين هذه الأطوار في المباحث التالية : -

(١) سورة الزمر الآية : ٦ .

(٢) مختصر المازني بهامش كتاب الأم، ونقلا من رعاية الطفولة في الإسلام ص ٥٢ .

(٣) الاستفادة من الأجنة للدكتور محمد علي البار ص ٦ .

المبحث الأول استقرار النطفة

تطلق النطفة على أي ماء صاف قل أو كثر، ومن ماء الرجل ، وماء الأنثى تكون النطفة، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾ ﴾ (١).

ويقدر الله تعالى لحيوان منوي من ماء الرجل أن يلحق البويضة الموجودة في رحم الأنثى، لينشأ من التلاقي نطفة متناسقة الأجزاء ، يوجد الله تعالى فيها الأعضاء، والعقل، والروح، كما قدر سبحانه وتعالى منذ الأزل وتتكون النطفة من خلية واحدة تتكاثر في الأطوار التالية، وتستمر في النمو إلى نهاية الحمل، وبعد الولادة، وتظهر الخصائص الكامنة في الجنين بعد مولده على فترات متباعدة، يقول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢)

وذهب البعض إلى أن المراد بالنطفة ماء الرجل وحده، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ ﴾ (٣) ، وقالوا: إن الماء الدافق هو ماء الرجل، لأن ماء المرأة ساكن، يستقبل ولا يتدفق، إلا أن الأمر ليس على ما ذهب إليه هؤلاء، لأن المائين يلتقيان في الرحم، حيث يتدفق ماء الرجل الخارج من الصلب ، ويستقبله ماء المرأة الذي جاء من

(١) سورة المؤمنون الآيتين ١٢ ، ١٣ .

(٢) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٣) سورة الطارق الآيتين : ٦ ، ٧ .

الترائب، وسكن الرحم بهدوء، وبدون هذا الالتقاء لا يحدث حمل .
وقد بين رسول الله ﷺ ذلك عندما سأله حبر من أحناب اليهود، وقال
له : (جنئت أسألك عن الولد ؟

قال ﷺ: ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل
مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آثنا بإذن الله) (١)
ويعد التقاء الماعين في الرحم يحدث تشابك بينهما، ويصيران شيئاً واحداً
متماسكاً بعد أسبوع من الحمل، ومع الأسبوع الثاني تبدأ النطفة المتحدة في
تكاثر الخلايا، ويتكون الجنين، ويأخذ في النمو والتحول إلى اكتساب صفات
الإنسان وهو في بطن أمه .

يقول الدكتور/ محمد أحمد سليمان رئيس الطب الشرعي بجامعة الرياض
في قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۗ ﴾ (٢) : إن الصلب هو
العمود الفقري للرجل، وأن الترائب هي ضلوع المرأة، ومنهما يخرج المنى
المكون للنطفة الأولى .

فإن قيل : إن منى الرجل يخرج من الخصية ، ومنى المرأة يخرج من
تجويف الرحم، فكيف نفهم خروجهما من الصلب والترائب ؟ ...
أقول : إن ماء الرجال يبدأ من الصلب وينتقل إلى الخصية التي تدفعه
إلى الرحم عن طريق الذكر،... وماء المرأة يبدأ من الترائب، وينتقل إلى
المبيض داخل الرحم حيث يستقبل ماء الرجل (٣) .

(١) صحيح مسلم - كتاب الحيض، باب بيان صفة منى الرجل - حديث : ٤٩٩

(٢) سورة الطارق الآية : ٧ .

(٣) الطفل في الشريعة الإسلامية للدكتور محمد بن أحمد الصالح ص ٢١ بتصرف .

وبدء الجنين بالنطفة آية تدل على قدرة الله تعالى في إعجاز كبير، لأن تعانق المائين في الرحم ، واشتمال النطفة على الحياة، وعلى كافة صفات الإنسان أمر معجز لا يقدر عليه إلا خالق الكون ومدبره .

فقد وضع الله تعالى في النطفة الحياة، وأمدّها بالغذاء والنماء، ومكنها من التطور، ووضعها في مكان مكين، وقدر لها الحياة إلى أن تكتمل لتخرج إلى الحياة في موعد لا يعلمه إلا رب العالمين .

يبين رسول الله ﷺ أن بداية الجنين تكوين النطفة ، بما رواه عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه فقال: (حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق ، قال : " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه ، وأجله ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح) (١) ، وأول الحديث يشير إلى تجمع النطفة من مائي الرجل والمرأة في بطن الأم مدة أربعين يوماً .

وعنه رضي الله عنه قال : (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكا، فصورها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، ولحمها، وعظامها .

ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟

فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك .

ثم يقول : يا رب أجله ؟

فيقول ربك ما شاء ، ويكتب الملك .

ثم يقول : يا رب رزقه ؟

(١) صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة - حديث : ٣٠٥١

فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك .

ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده ، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص (١)
ومن قدر الله المعجز أن وضع النطفة في " قرار مكين " داخل الرحم
وجعلها تتمكن من جدار الرحم، وتمسك به ولا تنفصل عنه وإن ثقل وزنها،
ولا تتأثر بما في الرحم من مواد، ولا تتناثر جزئياتها الكامنة فيه، وهذا
يشير إلى أن القدرة الإلهية تلازم الجنين، وتعتني به من أول أطواره حتى
خروجه من البطن ولدا متكاملا ، ... وبعد ذلك يتطور الرحم، ويتخلص من
الدماء التي تجمعت داخله لتهيأ لصناعة جنين آخر يريد الله تعالى .
وهذا يؤكد عناية الله تعالى بالإنسان وهو في بطن أمه، فقد هيا الله
تعالى له الموطن القوي، وأمدّه بالغذاء الكافي، ورزقه الخواص البشرية،
وأخرجه إلى الحياة مولودا كاملا، جامعا لدقة الصناعة وإتقان التركيب
والواجب أن يقر الإنسان بفضل الله تعالى عليه، وعلى الناس أجمعين،
ويحيا عبدا مطيعا ليرجع إليه سعيدا في الآخرة، ويسكن عنده في جنات
النعيم .

(١) صحيح مسلم - كتاب القدر، باب كيفية خلق الأدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله -

المبحث الثاني تكوين العلقة

اتصال شيء بشيء، وتشبيته به يعرف بالتعلق، ويراد بالعلق مع الجنين النطفة إذا صارت قطعة لحم ملتصقة بجدار الرحم محاطة بغشاء يحميها، ويحافظ عليها، وهذا طور من أطوار الجنين تتحول النطفة فيه إلى قطعة دم جامدة شديدة الحمرة تلتصق بجدار الرحم، وتتشبث به، وتبدأ بالنمو، وتأخذ في التكاثر، يقول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ (١) أي إن النطفة بعد مدة تصير علقة .

وسميت العلقة بأهم صفة اتصفت بها، وهي التعلق المتين بجدار الرحم، حيث تثبت في مكنها، ولا تتأثر بالاهتزاز الشديد، ولا بالحركات الصعبة .
وفي طور العلقة يتم تشكيل صورة الجنين، وتبدأ عناصر الإنسان في البروز، يقول الله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (٢)، ويقول ﷺ: ﴿ أَلْمَرِيكَ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيٍّ يُمَيِّئُ ۗ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۗ ﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۗ ﴾ (٣) .

وتطور النطفة إلى علقة آية من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى، وعنايته بالإنسان، وصناعته له، وهو في ظلمات الرحم، يحيطه غشاء رقيق مملوء بالسوائل، ويخلقه بصورة خاصة، ويمده بالغذاء بكيفية خاصة، ومقادير معينة .

(١) سورة المؤمنون الآية : ١٤ .

(٢) سورة العلق الآية : ٢ .

(٣) سورة القيامة الآيات من ٣٧ : ٣٩ .

المبحث الثالث تخليق المضغة

المضغة هي القطعة الصغيرة من اللحم التي كانت علقة، وسميت بالمضغة لأنها تصير على قدر ما يمضغه الآكل في فمه، وزنتها " فُعلُه" بضم الميم وسكون الضاد، وفتح العين ، ...

وقيل للجنين وهو في بطن أمه مضغة حينما يصير حجمه قدر قطعة اللحم التي يلوکها الفم عند الأكل، وحين تتحول النطفة بعد تعلقها بجدار الرحم إلى مضغة لحمية صغيرة تحمل بذور إنسان أخذ في النمو والتشكل .
ومرحلة المضغة تكون بعد مرحلة العلقة، وهي المرحلة التي تظهر فيها عناصر الجنين، متميزة، مغايرة للأطوار السابقة .

والمضغة تكون ﴿ مُخَلَّقَةٌ وَعَيْرٌ مُخَلَّقَةٌ ﴾ (١) ، بمعنى أنها تبدأ قطعة لحم ملساء خالية من التصوير التام، ثم يكون التصوير والتخليق للمضغة فتكون لحما، وأعضاء، وعظما، وإنسانا كاملا .

ومعنى كون المضغة مخلقة، وغير مخلقة أنها ليست على صورة واحدة في سائر الأجنة ، فمن الأجنة ما هو كامل الخلقه ، سالم من العيوب ، ومنها مع هو على عكس ذلك بصورة جزئية أو كلية، وهذا يؤدي إلى تفاوت الناس في خلقتهم، وصورهم وطولهم، وقصرهم، وتمامهم، ونقصانهم، وسلامتهم، وظهور عاهات فيهم كما هو مستفاد من دلالة الآية (٢) .
وقد تمكن العلماء من متابعة تطور الجنين في بطن أمه بالآلات الحديثة...

(١) سورة الحج الآية : ٥ .

(٢) خلق الإنسان بين الطب والقرآن الكريم / الدكتور محمد علي البار ص ٣٦٥ .

فذكروا أن الجنين في نهاية الشهر الأول تظهر فيه أربعة براعم تمثل اليدين والرجلين، وطول كل برعم سنتمتر تقريبا.

وفي الشهر الثاني تتميز اليدان، والأصابع، والأذن الخارجية ، وفتحة الفم، وفتحة الأنف .

وفي الشهر الثالث يظهر جفن العين ، وأعضاء التناسل، ومن الممكن تمييز الذكر والأنثى في نهاية هذا الشهر .

وفي الشهر الرابع تتكون الأصابع، وتتضح ملامح الوجه، ويظهر الكبد والأمعاء، ويتحرك الجنين .

وفي الشهر الخامس ينفصل الجفن عن العين، ويبدأ العظم في التكوين ابتداء من الكعبيين .

وفي الشهر السادس تظهر أهداب الجفنين، وشعر الحاجبين.

وفي الشهر السابع تتضح العين، وتنزل خصية الذكر .

وفي الشهر الثامن ينبسط الجلد، ويأخذ اللون الوردي اللامع، وتثبت الأظافر .

وفي الشهر التاسع يتم تخليق سائر أجزاء الإنسان، ويصبح الجنين تام الخلقة، ويستقر أسفل البطن استعداد للخروج إلى الحياة (١) .

وعناية الله تعالى واضحة مع الجنين في بطن أمه ، فقد جعله ينمو ويتطور وفق خطة منظمة متألفة تتجه لغاية منشودة، وكأنه عقل كامل يدبر، ويقرر ، ويقدر، ويحمي نفسه من السقوط، ويسكن في قرار متين ، يلهو فيه ويلعب حتى يخرج إلى الحياة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

(١) خلق الإنسان بين الطب و القرآن للدكتور / محمد علي الباز ص ٣٦٦ .

الفصل الثاني

الأحكام الشرعية

لأعمال تتصل بالحمل

الأحكام الشرعية لأعمال تتصل بالحمل

ينشد الأبوان الولد بالزواج، ويهتمان بالإنجاب اهتماما خاصا، ويدعوان الله تعالى أن يرزقهما الولد، يسألون ربهم، ويقولون: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤ ﴾ (١)، لما في فطرتها من حب الولد، وما في عقلها من أن الولد هبة الله تعالى .

وقد امتن الله تعالى على عباده ورسله بهبة الولد، فوهب لإبراهيم عليه السلام الولد، والحفيد، وجعلهما رسلا، يقول الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۝٧٢ ﴾ (٢) .

واستجاب الله تعالى لذكرى عليها السلام حين طلب منه الولد، يقول عليها السلام: ﴿ وَرَكَرَبًا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝٨٣ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْأَخْيَارِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٨٤ ﴾ (٣) .

وامتن الله تعالى على الإنسان بأن رزقه زوجة من نفسه، ورزقه وزوجته البنين والحفدة، يقول عليه السلام: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۝٧٢ ﴾ (٤) .

(١) سورة الفرقان الآية : ٧٤ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٧٢ .

(٣) سورة الأنبياء الآيتين : ٨٩ ، ٩٠ .

(٤) سورة النحل الآية : ٧٢ .

ويمضي القدر في الناس كما يشاء الله رب العالمين ، فشرع الزواج،
ووهب الولد، إلا أن أموراً قد تحدث في حياة الناس تدفعهم إلى أعمال
خارجية تتصل بالولد إيجاباً أو سلباً .

فقد يحدث عجز عند الرجل يمنعه من إيصال مائه إلى رحم زوجته
بسبب صحي، أو عضوي، أو بغير ذلك ...

وقد يحدث أن يحتاج أحد الزوجين لتأخير الإنجاب مدة ما، وتنظيمه
لظروف تخصصهما .

وقد يضطر الزوجان أو أحدهما إلى التخلص من الجنين، وإسقاطه .

وهذه مسائل يتعرض لها بعض الأزواج، ... وبمشيئة الله تعالى سأتناول
دراسة هذه القضايا، وبيان أحكامها في شريعة الله تعالى، وذلك في المباحث

التالية : -

المبحث الأول التلقيح الصناعي

التلقيح الصناعي معناه الاحتفاظ بماء الرجل في جو يناسبه خارج الرحم، وتلقيح البويضة به بعد ذلك وهي داخل الرحم بوسيلة صحية بغير الطريقة الطبيعية حين التقاء الرجل بزوجته .

وقد أثبت العلماء أن الحيوان المنوي للرجل يمكن أن يعيش في الدفء والظلام مدة يحتفظ فيها بحيويته إلى أن ينتقل إلى رحم المرأة ، ويتصل بالبويضة داخل الرحم ويلقحها (١) .

وبذلك يحدث الحمل بغير اتصال جسماني بين الزوج والزوجة، وقد يضطر الأزواج إلى التلقيح الصناعي لواحد أو أكثر من الأسباب التالية : -

١- إذا كان عدد الحيوانات المنوية عند الزوج قليلة، فيضطر الأطباء إلى جمع عدد كاف من مني الزوج، وإدخالها في رحم الزوجة .

٢- إذا كانت خلايا المهبل لا تقبل الحيوانات المنوية ، وتقتلها، ويستلزم الأمر جمع الحيوانات المنوية للرجل حتى يتم علاج خلايا المهبل، وإزالة الحموضة منه.

٣- إذا كانت إفرازات عنق الرحم تعوق ولوج العضو الذكري ووصول المنى إلى البويضة وهي في الرحم .

٤- إذا أصيب الرجل بمرض يمنعه من الإيلاج، مع قدرته على إخراج الحيوانات المنوية .

وفي هذه الحالات يجوز التلقيح الصناعي لإيصال ماء الزوج إلى بويضة

(١) أحكام الجنين في الفقه الإسلامي للدكتور / محمد سلام المذكورج ١ ص ١٣٢ .

الزوجة في رحمها لضرورة تقتضيها أحوال الزوجين .

ويسمى الشافعي التلقيح بالطريقة الصناعية " الاستدخال " بمعنى إدخال

ماء الرجل للرحم بلا عضو ذكري (١) .

وقد أجاز الفقهاء التلقيح الصناعي بشرط أن يخرج ماء الرجل بطريقة

محترمة من زوج المرأة التي تلقح به ، وقد يكون للرجل عدد من الزوجات ،

ولا مانع من تلقيحهن بماء زوجهن .

ويحرم التلقيح إذ لم تكن المرأة زوجة لصاحب الماء، كما يحرم ما يسمى

بـ " إيجار الرحم " ، ومعناه أن يتم تلقيح ماء المرأة بماء الرجل في أنبوب،

وإدخاله في رحم امرأة أجنبية مستأجرة لينمو الجنين في رحمها، ويتخلق

ويتصور لمدة قصيرة ينقل بعدها إلى رحم أمه، وقد تطول المدة إلى الولادة.

وسبب تحريم تأجير الرحم أنه يؤدي إلى إدخال نطفة جامعة لماء الرجل

والمرأة في رحم امرأة أجنبية، والاستفادة برحم امرأة أجنبية في تكوين الجنين.

كما أن هذا التصرف يؤدي إلى إدخال ماء رجل أجنبي في رحم امرأة

أجنبية عنه، وهذا إثم محرم .

وتلقيح امرأة بماء رجل أجنبي عنها حرام لشبهه بالزنا، إلا أن فاعله

لا يعاقب بحد الزنا، وإنما يعاقبه الولي المسلم بما يناسب الجرم ، وخطورته،

ويعزر فاعله وفق ما جاء في شريعة الله تعالى .

(١) نهاية المحتاج ج٧ ص ١٢٠ .

المبحث الثاني تنظيم النسل

كثر الحديث في العصر الحالي عن " تنظيم النسل"، ويراد به التحكم في إنجاب الأولاد - عددا وزمنا- بحيث لا يتحقق إلا وفق خطة مرتبة، ونظام محدد .

ويطلق " تنظيم النسل " على أحد معنيين يختلف الحكم الشرعي فيهما اختلافا كليا :

فالنوع الأول منهما ويراد به منع النسل بعد ولادة عدد من الأولاد منعا كاملا، وهو ما يعرف بـ" تحديد النسل" ، وهو الذي ينادي به بعض السياسيين وبعض رجال الاقتصاد، **وحجتهم ما يلي :** -

(١) **مساحة الأرض الزراعية الصالحة للزراعة محدودة،** وتتناسل الذراري

مستمر، وسيصل الحال إلى عدم كفاية المنتجات الزراعية للناس .

(٢) **وسائل المعاش الأخرى غير الزراعية من صناعة، وتجارة، وتعددين**

لا تكفي لزيادة النسل، ويرى أصحاب هذا الاتجاه ضرورة تحديد

النسل لسائر الناس، والاكتفاء بعدد محدد من الأولاد لكل زوجين ،

ويذهبون إلى أن هذا التحديد يكون عاما لسائر البشر .

إن أصحاب "تحديد النسل" يرون مذهبهم هو الحل الوحيد لعلاج زيادة

السكان، ويطلقون على هذه الزيادة " الانفجار السكاني" وكل كتاباتهم تذهب

إلى أن الزيادة السكانية هي الغول المفترس، والدمار الكامل، والخراب

الشامل لكل ما صنعه الناس خلال تاريخهم الطويل، وليس أمامهم للقضاء

على هذا المصير البئيس إلا منع النسل وتحديده .

يرى " مالتس " وهو رأس المنادين بتحديد النسل ومنعه أن السكان يتزايدون بمتوالية هندسية، بينما الغذاء يزيد بمتوالية حسابية.

ومن اليسير رد فكرة تحديد النسل بإظهار خطاهم بأن الزيادة السكانية لم تحدث على النحو الذي ذكروه طوال عصور التاريخ، ولو كان رأيهم صحيحا لرأينا عالما مكتظا بالسكان، ولعجز الناس عن وجود مكان لهم فوق الأرض يسكنون فيه .

وفكرة المتواليات التي ذكرها " مالتس " فكرة مردودة بشقيها الهندسي والحسابي، لما نراه من أوبئة، وأمراض، وحروب تقضي على كثير من الناس، وتؤدي إلى نقص العدد ، وفي نفس الوقت تؤدي المكتشفات العلمية العديدة في الزراعة، والصناعة إلى زيادة خيرات الله كثيرا .

إن القدر الإلهي في حياة الناس يحدد الأرزاق، والآجال، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، **وَمَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾** (١) .

وصدق من قال :

كم عامل عاقل أعيت مذاهبه وكم جاهل غافل تلقاه مرزوقا

هذا هو الله قد أجرى إرادته وصير العالم النحرير زنديقا

إن الماء الذي يفرزه كل رجل في اتصال واحد من اتصالاته الجنسية يكفي لحمل ثلاثمائة امرأة على الأقل في آن واحد، ومع هذا لا يحدث منه إلا حمل امرأة واحدة، بحيوان منوي واحد وعلى فترات متباعدة، وعلى غير علم من البشر .

(١) سورة فاطر الآية : ٢ .

وقد بين علماء الاقتصاد أن الناس في العالم كله لم يستغلوا ما لديهم من ثروات موجودة في البر والبحر والوديان، والصحاري، ووضحوا فساد رأي المنادين بمنع النسل .

والسبب الرئيسي الذي جعل البعض ينادي بتحديد النسل هو عدم إيمانهم بالله تعالى الذي خلق الخلق، وقدر الأقوات، وحدد الأرزاق، وضمن الحياة للإنسان وهو في بطن أمه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (١) ، ويقول ﷺ : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٢) .

وأثبت الواقع جهل المنادين بتحديد النسل لظهور ما في الأرض من ثروات كامنة تظهر شيئاً فشيئاً، ويكفي ما نراه اليوم من اكتشاف العديد من المعادن والثروات المخبأة في جوف الأرض، وباطن الجبل، وعمق المياه، وعند السحاب .

ومما يبين فساد هذا الرأي ما نراه من أمراض، وحروب، وصراعات لأنها تؤكد خطأ ما ذهبوا إليه .

إن الذين أخذوا بتحديد النسل في الغرب بدأوا يدركون خطورة قلة النسل على تقدمهم ، فبدأوا يستقدمون أناساً من الأمم الأخرى لمساعدتهم في العمل والإنتاج .

ولو نظرنا في وطننا مصر لرأينا ثروات عديدة مهملة في البر والبحر، والوادي والصحراء، فما زالت سيناء مليئة بالخيرات الهائلة، ومع هذا فهي خالية من أي استثمار جاد له قيمة ، وفي كل ركن في مصر مجال واسع

(١) سورة الذاريات الآية : ٥٨ .

(٢) سورة الذاريات الآية : ٢٢ .

للعمل والاستثمار يحتاج لخطط مدروسة تحقق الخير للناس .
والنوع الثاني لـ " تنظيم النسل " يعني إيقاف الإنجاب مدة معينة لضرورة
تقتضيها مصالح الأفراد.

والتنظيم بهذا المعنى تجيزه الشريعة الإسلامية، وترخصه لمن يحتاج
إليه بشرط أن يبقى في حالات خاصة ترتبط بالضرورات الفردية على أن
تقدر كل ضرورة بقدرها، وتنتهي الرخصة بعد انتهاء الضرورة .
إن الأصل في الإنجاب في الإسلام التيقن بأنه هبة الله تعالى، ولا يصح
رده، لأن منعه ورده بلا ضرورة يناقض الحكمة الإلهية التي أرادها الله تعالى
من خلق الإنسان .

ومع ذلك أجاز الإسلام للمضطرين تنظيم النسل، لأنه دين واقعي
يراعي المصلحة دائما، ولا يقف في طريقها، وهو عند الضرورة يرخص بترك
الحكم العام إلى حكم آخر يناسب الواقع، ويحقق المصلحة، يقول الله تعالى:
﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١)، ويقول
ﷺ: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٢) ، ويقول ﷻ: ﴿ لَا يَكُفُّ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا ﴾ (٣) .

ولذلك وضع الفقهاء القواعد الفقهية التي ترخص عند الضرورة ما هو
غير جائز عند عدمها، ومن قواعدهم : -
- الضرورات تبيح المحظورات .

(١) سورة المائدة الآية : ٣ .

(٢) سورة الحج الآية : ٧٨ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٨٦ .

- المشقة تجلب التيسير .
- إذا ضاق الأمر اتسع .
- الضرورة تقدر بقدرها .

واستنتاجا من ذلك نعلم أن الشريعة الإسلامية أجازت للزوجين عند الضرورة رخصة تنظيم النسل، فإن زالت الضرورة يمتنع التنظيم .

يقول الإمام الشاطبي: المباح ضربان :

أحدهما أن يكون خادما لأصل ضروري، أو حاجي، أو تكميلي.
والثاني أن لا يكون كذلك .

فالأول قد يراعي من جهة ما هو خادم له فيكون مطلوبا، ومحبوفا فعله، وذلك أن التمتع بما أحل الله تعالى من المأكل، والمشرب، والملبس، ونحوها مباح في نفسه، وإباحته بالجزء، وهو خادم لأصل ضروري، وهو إقامة الحياة ، فهو مأمور به من هذه الجهة، ومعتبر ومحبوب من حيث هذا الكلي المطلوب، فالأمر به راجع إلى حقيقته الكلية لا إلى اعتباره الجزئي، ومن هنا يصح كونه هدية يليق فيها القبول دون الرد، لا من حيث هو جزئي معين.

والثاني إما أن يكون خادما لما ينقض أصلا من الأصول الثلاثة المعتبرة ، أو لا يكون خادما لشيء كالطلاق، فإنه ترك للحلال الذي هو خادم لكل إقامة النسل في الوجود، وهو ضروري، وإقامة مطلق الألفة والمعاشرة ، واشتباك العشائر بين الخلق، وهو ضروري أو حاجي، أو مكمل لأحدهما، فإذا كان الطلاق بهذا النظر خرما لذلك المطلوب ونقضا عليه كان مبغضا، ولم يكن فعله أولى من تركه إلا لمعارض أقوى، كالشقاق وعدم إقامة حدود الله تعالى، وهو من حيث كان جزئيا في هذا الشخص، وفي هذا

الزمان مباح وحلال (١) .

وعلى هذا يبقى تنظيم النسل خاصا لأصحاب الأعدار، ولا يصح تعميمه على الجميع ، ومن المقرر في شريعة الإسلام أن أحكام الأفراد تبقى لهم، ولا تصير عامة، وحكم الجميع يبقى على عمومته بلا تأثير في الحكم الخاص .

إن الأرزاق بيد الله تعالى، وعلى الإنسان أن يبذل جهده في العمل والإنتاج كما أمره الله ﷻ ورسوله ﷺ .

يقول الله تعالى :

- ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢)
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٣)
- ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٤) .

ويقول النبي ﷺ :

- (لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) (٥) .

(١) الموافقات للإمام الشاطبي ج ١ ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) سورة التوبة الآية : ١٥ .

(٣) سورة الكهف الآية : ٣٠ .

(٤) سورة الجمعة الآية : ١٠ .

(٥) صحيح البخاري - كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة - حديث : ١٤١٣

- ويقول ﷺ: (ما أكل أحد طعاما قط، خيرا من أن يأكل من عمل يده
وإن نبي الله داود عليه السلام ، كان يأكل من عمل يده) (١) .
- وقال ﷺ : (التمسوا الرزق في خبايا الأرض) (٢) .
- وليس للمنادين بتحديد النسل حجة في مصر، ولا دليل لهم من واقعها ،
فقد تضاعف عدد سكانها، وهم يعيشون فيها مع أنهم لم يستغلوا طاقات
إنتاجية عديدة موجودة في البحر، والبحيرات، والوادي، والجبل ...
- ومساحة مصر تبلغ مليون كيلو متر مربع، يشغل الوادي المزروع فيها
٤%، والباقي وقدره ٩٦ % يحتاج إلى العمران، والتنمية، واستخراج الكنوز
المخبوءة في باطن الأرض، وجوف الجبل، وعمق البحار والبحيرات
والأنهار، وإمكان التوسع الزراعي في الأماكن التالية : -
- أ- الساحل الشمالي الممتد من الإسكندرية حتى حدود ليبيا الشرقية فهو
مليء بالإمكانيات الاقتصادية، والسياحية، والزراعية، ويمكن
الاستفادة فيه بماء المطر ، ومياه البحر المحلاة .
- ب- الوادي الجديد ، وفيه واحات سيوه، والفرافرة، والبحرية، والداخلية،
والخارجة ، ومساحته واسعة، وبه إمكانات هائلة للزراعة، وتربية الماشية،
وإقامة مجمعات صناعية ضخمة ، والمياه الجوفية فيه متوفرة .
- ت-جنوب الصحراء الشرقية وفيه العديد من مناجم الذهب، والكثير من
المعادن، والأرض الصالحة للزراعة، ويمكن الاستفادة به سياحيا،
فمياه البحر الأحمر عنده مليئة بالشعب المرجانية .

(١) صحيح البخاري - كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده - حديث : ١٩٨٤ .

(٢) المعجم الأوسط للطبراني - باب الألف، من اسمه أحمد - حديث : ٩٠١ .

ث-محيط بحيرة السد العالي حيث المساحات الشاسعة الصالحة للزراعة، ويمكن الاستفادة بطمي النيل وصيد السمك، واستغلال الجبال حولها ج-شبه جزيرة سيناء، وهي مليئة بالخيرات ، ففي شمالها توجد الأرض الصالحة للزراعة، وفي جنوبها توجد أماكن السياحة، وفي وسطها توجد الأماكن الدينية، حيث مسرى موسى عليه السلام ، ورحلة العائلة المقدسة " مريم وعيسى عليهما السلام " وقد أقسم الله تعالى بالطور، والطور في سيناء .

وقد اثبت العلماء أن عديدا من المعادن توجد في سيناء ، وصحراء مصر الشرقية والغربية، وقد أعان الله تعالى العلماء فاستخرجوا من أراضي الوادي، وقاع البحر الغازات ، والبتروول ...

ومن الممكن تحويل كل قرى مصر إلى مصانع غذائية وخدمية تتاسب ما في كل قرية من منتجات زراعية، وحيوانية، وما تحتاجه من أعلاف، وبيذور، وكيمائيات، وبذلك يجد كل إنسان عملا، وتتخلص القرى من البطالة، ويمتلئ المجتمع كله بالخير، والبركة، والنماء .

ولا يليق بمصري عاقل أن ينادي بتحديد النسل في مصر وفيها كل هذه الخيرات المعلومة، وما خفي من خيراتها كان أعظم، وأكثر .
إن رقي الشعب المصري أمر ضروري، وطريقه للرقى هو العمل، والإنتاج ، وليس في تحديد النسل .

إن الله تعالى قد حبا مصر باعتدال المناخ، وحسن المكان، واتساع الأرض، وكثرة المعادن، ولو قام المصريون بواجبهم، واستفادوا بالتقدم العلمي في مجال الاقتصاد لاحتاجوا إلى أضعاف عددهم .

إن العالم الغربي طبق تحديد النسل، فصار يحتاج إلى مهاجرين يأتيون إليه للعمل والإنتاج .

والخلاصة إن تنظيم النسل لحاجات الأفراد الضرورية جائز، أما تحديد النسل بصورة عامة لسائر الناس فهو أمر لا يجوز .

ولهذا

أجاز جمهور الفقهاء من الصحابة والتابعين وغيرهم (١) أن يعزل الرجل ماءه عن زوجته أو أمته بعد الإيلاج حتى لا يصل ماؤه إلى البويضة الكامنة في الرحم، لضرورة يراها الزوج، أو تراها الزوجة، ودليلهم قول جابر رضي الله عنه (كنا نعزل على عهد النبي صلى الله عليه وآله والقرآن ينزل) (٢) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : (سأل رجل النبي صلى الله عليه وآله ، فقال : إن عندي جارية لي ، وأنا أعزل عنها . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : " إن ذلك لن يمنع شيئاً أرادته الله) (٣) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسأل عن العزل .

فقال صلى الله عليه وآله: لو أن الماء الذي يكون منه الولد أهرقته على صخرة لأخرج الله منها - أو يخرج منها ولدا الشك منه- وليخلقن الله نفساً هو خالقها) (٤)

(١) بدائع الصنائع ج٣ ص١٥٣ ، مواهب الجليل ج٣ ص٣٧٦ ، المغني ج٨ ص١١٣ ، وروضة الطالب من أسنى المطالب ج٣ ص١٨٦ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب النكاح، باب العزل - حديث : ٤٩١٤

(٣) صحيح مسلم - كتاب النكاح، باب حكم العزل - حديث : ٢٦٨٥

(٤) مسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه - حديث : ١٢١٧٦

وسُئِلَ رسول الله ﷺ عن العزل، ولم ينه عنه، فدل ذلك على جوازه عند الحاجة إليه، وهو يشبه التعقيم المؤقت الجائز للأفراد عند الضرورة .
وقد ذهب بعض فقهاء الشافعية (١) ، وبعض الحنابلة (٢) إلى كراهية العزل، لأنه يؤدي إلى عدم تحقيق الحياة الجنينية .
وذهب ابن حزم (٣) ، والروباني من الشافعية (٤) إلى تحريم العزل مستدلين بالحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال : (ذكر العزل عند النبي ﷺ ، فقال : " وما ذاكم ؟ " قالوا : الرجل تكون له المرأة ترضع ، فيصيب منها ، ويكره أن تحمل منه ، والرجل تكون له الأمة فيصيب منها ، ويكره أن تحمل منه .
قال ﷺ : " فلا عليكم أن لا تفعلوا ذاكم ، فإنما هو القدر) (٥).
ورأي الجمهور هو الأولى بالصواب، ويحمل رأي من خالفهم على أنه خلاف الأولى ، أو أنه يتعلق بحالات خاصة معينة .
وكما يجوز العزل عند الضرورة يجوز التعقيم المؤقت عند الضرورة أيضا، وذلك يكون برضا الزوج والزوجة، لأنه يشبه العزل، ... وأما التعقيم الدائم فهو حرام ، وهو يشبه تحديد النسل ومنعه .

(١) المجموع شرح المهذب ج١٦ ص ٤٢١ .

(٢) الكافي ج٣ ص ١٢٥ .

(٣) المحلى ج١٠ ص ٧٠ .

(٤) المجموع شرح المهذب ج١٦ ص ٤٢٣ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب النكاح، باب حكم العزل - حديث : ٢٦٨١

الفصل الثالث

رعاية الجنين

في بطن أمه

رعاية الجنين في بطن أمه

الجنين في بطن أمه يبدأ بنطفة مكونة من مادة سائلة، وحياة تحركها ، ولهذا لا تقف النطفة عند صورة ثابتة ، ولا تجمد على حالة واحدة، وإنما تكبر، وتتطور، وتتخلق إلى أن تصير وليدا يخرج من بطن أمه .

ورعاية الجنين يكون برعاية أمه ، فهو جزء منها، يسكن في أحشائها، ويرتبط غذاؤه بغذائها، ويستمد إدراكاته، وأحاسيسه من عواطفها، وحنانها.

إن الأم في فترة الحمل لا تغفل عن حركة جنينها، وتمني نفسها بيوم خروجه إلى الدنيا، وتستعد لاستقباله بإعداد المكان واللباس، وكل ما يساعد في المحافظة عليه .

ويهتم الزوج بما في بطن زوجته، ويطمئن عليه في غدوه ورواحه، ويسارع بها إلى الطبيب إذا شعرت بمكروه في بدنها، أو في بطنها، ويعمل الزوج مع زوجته في نشاط دائم استعدادا لمقدم الوليد الميمون .

إن الإسلام يراعي الحامل، ويحافظ على طاقتها البدنية، وهدوئها النفسي، وتفكيرها العقلي، لما في ذلك من أثر ينعكس على نمو الجنين بدنيا، وعاطفيا، وعقليا .

وفي هذا الفصل سنتناول بالدراسة - بإذن الله تعالى - المباحث التالية: -

المبحث الأول : رعاية النمو البدني للجنين والأم .

المبحث الثاني : صيانة حياة الجنين .

المبحث الثالث: المحافظة على هدوء الحامل .

وذلك فيما يلي :

المبحث الأول رعاية النمو البدني للجنين والأم

مرحلة وجود الجنين في بطن أمه هي مرحلة البناء الرئيسية للطفل ، ففي بطن أمه تظهر عناصره جميعا، وتتضح ملامحه، فحياة الجنين تتصل عضويا بحياة الأم ، ودمها هو دمه، وقلبه متصل بقلبها، ولذلك ذهب العلماء إلى ضرورة أن تعيش الأم بعيدا عن الاضطرابات، وأن تهتم بالغذاء، فهي تأكل لنفسها وللجنين في بطنها، وأن تترك الكسل والنوم تنشيطا لبدنها ، لأن الكسل يؤدي إلى العجز في تحقيق ما يحتاجه الجنين .

وقد أوصى ابن سينا المرأة الحامل بما يلي : -

١- تناول الغذاء المفيد المتنوع الذي يحافظ على عناصر الجسد، ويوصل الغذاء للطفل .

٢- ممارسة الرياضة المعتدلة، والمشي الهادئ غير المفرط، لأن الإفراط يؤدي إلى إسقاط الجنين، وبخاصة في شهوره الأولى بعد العلق .

٣- تجنب الحركات الشديدة، والوثبة العالية، وعدم الإكثار من الأكل ، وتجنب الخصومة والكراهية .

٤- تجنب أكل أي طعام يضر بالحمل، مثل الترمس، والزيتون الفج، واللوبيا، والسهم (١) .

وجملة كلام ابن سينا التنبيه على ضرورة المحافظة على الجنين، وتجنب أي حركة، وأي طعام يؤدي إلى إسقاطه، لأن الجنين في الشهور

(١) القانون في الطب لابن سينا ج ٢ ص ٥٧ .

الأولى يشبه الثمرة المتعلقة بالشجرة ، فهي في أول ظهورها على الشجرة تسقط بالرياح، وبحركة الشجرة ، وبعد نموها يقوى ارتباطها بالشجرة ، ويصعب سقوطها، ولهذا وجب الحرص على صيانة الجنين عند العلق ، وتجنب أي فعل عضلي يضر نموه وهو في بطن أمه .

" وقد اهتم الإسلام بصحة الأبناء وهم أجنة في بطون الأمهات، فدعا إلى العناية بالحامل ورعايتها، بتوفير الطعام، والشراب، لأن ذلك يهيئ لها الصحة والراحة النفسية والسكنية، ويعود بالصحة على الجنين، وذلك أن الجسم السليم المطمئن يساعد صاحبه في السيطرة على نفسه، وعلى أعضاء جسمه، ومنها الأعضاء التي توفر الصحة للجنين "قالجنين في الرحم يتغذى بما يلائمه، ويجتذب بالطبع القدر الذي يلائمه من دم أمه" (١) فإن كان الغذاء صالحا صلح المغتذي به، وحسن، فيولد صحيحا، بحيث يسهل إعداد الإعداد الجيد ، ليبدأ الحياة كنسمة تعبد الله تعالى ، وتشارك بعون الله ومشيئته في إعمار الحياة .

والاهتمام بتغذية الأم لا يستلزم توفير أفخر الطعام، وأغلاه، وكذا المسكن، والملبس، وقد وفر الله تعالى الطبيبات للفقراء ، كما وفرها للأغنياء، فما من طعام غالي الثمن توفرت فيه بعض العناصر الغذائية إلا ويقابلها - بفضل الله تعالى - طعام رخيص الثمن، تتوفر فيه العناصر الغذائية نفسها، وربما أكثر منها وأنفع، فإذا رضى كل إنسان بما قسم الله له في معيشته وفق فيها، وأكرمه ربه بالصحة، والرزق الطيب، ورغد الحياة بأقل المال وأيسره (٢)

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص ٢٠٢ .

(٢) الأسرة في ضوء الكتاب و السنة، د / السيد فرج ص ١٤٨

إن الإسلام يحرص على الجنين وهو في بطن أمه، ويحافظ عليه ، ولذا يبيح للأُم الفطر في رمضان إن كان الصوم يضرها، أو يضر ما في بطنها، أو يضرهما معاً، لأن الأمر المؤكد أن ضعف جسد الأم يؤدي إلى ضعف الجنين، كما أن نقص غذائها ينعكس على الجنين، وكما يباح لها الفطر عند الخوف على جنينها يباح لها تأخير الحج إن خافت من مشاق السفر على ما في بطنها .

وقد اجمع الفقهاء على هذا الحكم (١) ، وأوجبوا على الأم الفطر، وألزموها به إن رغبت في الصوم خوفاً من أي ضرر يلحق بالجنين، واستدلوا على ذلك بقوله ﷺ: (إن الله ﷻ وضع عن المسافر شطر الصلاة، وعن المسافر والحامل والمرضع الصوم ، أو الصيام) (٢).

ومن القواعد الثابتة أنه (لا ضرر ولا ضرار) (٣) ويتحدد الضرر من الصوم بالتجربة ، ورأي الأطباء المسلمين المجيدين، أو بغلبة الظن . ويلزم الإسلام الوالد بالإنفاق على زوجته بما يكفيها وجنينها، يقول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٤) ، ومعنى هذا ضرورة أن ينفق الوالد على زوجته، وحملها بما هو معلوم اجتماعياً، وخلقياً، وهذا يشمل الطعام، والشراب، واللباس، والمأوى، والخلق الكريم المعروف في العقل والدين.

(١) حاشية ابن عابدين ج ٢ ص ٤٢٢ .

(٢) سنن ابن ماجه - كتاب الصيام، باب ما جاء في الإفطار للحامل والمرضع - حديث : ١٦٦٣

(٣) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب البیوع، وأما حدیث معمر بن راشد - حدیث : ٢٢٨٦

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٣٣ .

المبحث الثاني تأخير عقوبة الحامل

قد تقع المرأة الحامل في معصية تستوجب حداً، أو قصاصاً، كأن تقتل إنساناً أو تشجه، أو تجرحه، أو تزني، أو تشرب خمرًا، أو تقذف مسلماً بلا بينة، ... وحينئذ تستحق العقوبة المناسبة، وتبدو رحمة الله تعالى بالجنين، وعنايته به بالمحافظة على حياة الأم للمحافظة على حياة الجنين في بطنها أياً كان نوع العقوبة التي تستحقها، ... فإن قتلت وهي حامل فلا يقتص منها إلا بعد أن تضع حملها، وتنتهي من إرضاعه، يقول النبي ﷺ: (المرأة إذا قتلت عمداً لا تقتل حتى تضع ما في بطنها إن كانت حاملاً، وحتى تكفل ولدها، وإن زنت لم ترجم حتى تضع ما في بطنها، وحتى تكفل ولدها) (١)، أي إن المرأة إن قتلت إنساناً عمداً، أو زنت وهي محصنة فإن القصاص أو الحد لا يقام عليها إلا بعد أن تضع وليدها، وترضعه، وتقطمه، صيانة للولد، وحفظاً له من الهلاك (فقد جاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردها . فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لم تردني؟ لعك أن تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى . قال ﷺ: " إما لا فأذهبي حتى تلدي " . فلما ولدت أخته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته . قال ﷺ: " أذهبي فأرضعيه حتى تطفميه " . فلما طفمته أخته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد

(١) المعجم الكبير للطبراني - باب الشين، حديث: ٦٩٧٣

فطمته ، وقد أكل الطعام .
فدفع ﷺ الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى
صدرها ، وأمر الناس فرجموها .
فيقبل خالد بن الوليد بحجر ، فرمى رأسها فتضح الدم على وجه خالد
فسبها ، فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها .
فقال ﷺ : " مهلا يا خالد ، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها
صاحب مكس لغفر له " ، ثم أمر بها فصلى عليها ، ودفنت (١) .
وإن كانت غير محصنة فإنها لا تجلد حتى تضع ما في بطنها ، وتقطمه،
وتبرأ من النفاس حتى لا تهلك بسبب تعدد آلامها في وقت واحد، وهي ألم
النفاس، وألم الولادة ، وألم الجلد .
والأصل في ذلك ما رواه أبو عبد الرحمن عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه
قال : (خطب علي، فقال : يا أيها الناس، أقيموا على أركانكم الحد ، من
أحصن منهم ، ومن لم يحصن ، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت ، فأمرني أن
أجلدها ، فإذا هي حديث عهد بنفاس، فخشيت إن أنا جلدها أن أقتلها ،
فذكرت ذلك للنبي ﷺ ، فقال : " أحسنت " (٢) .

(١) صحيح مسلم - كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى - حديث : ٣٢٩٤

(٢) صحيح مسلم - كتاب الحدود، باب تأخير الحد عن النفاء - حديث : ٣٣٠٣

المبحث الثالث

الحفاظة على هدوء الحامل

يتأثر الجنين بحالة أمه النفسية، والعاطفية، ... فهو يأخذ من شكلها جانباً، ويأخذ من ذكائها، ونفسها جوانب أخرى ، ولذلك أوصى العلماء والمربون الآباء بحسن معاملة الزوجة، وبخاصة وهي حامل .

" وتحتاج الحامل إلى عناية شديدة من المحيطين بها في هذه الفترة بالذات لأنها تكون أكثر حساسية من أي فترة مضت، وسريعة التأثر والانفعال، والميل إلى الهموم والأحزان لأتفه الأسباب، وذلك بسبب التغير الطبيعي في كل أجزاء الجسم ، لذا يجب أن تحاط بجو من الحنان، والبعد عن الأسباب التي تؤدي إلى تأثرها وانفعالها، وخاصة من الذين يعيشون معها كالزوج، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَتْأَ عَلَيَّ وَهْنًا ﴾ (١)، ويقول ﷺ: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ (٢) ، فهي في وهن من أول الحمل إلى آخره (٣) .

"من هنا ندرك المغزى والارتباط الفطري بين حالة الأم النفسية والصحية وحالة جنينها عندما يغدو طفلاً، فشاباً ، وأثر ذلك على نفسيته وانفعالاته ، وعواطفه سلبياً، أو إيجاباً في مستقبل حياته، لأن حالة الأم النفسية والعصبية تنطبع على نفسية وعصبية الجنين كما هي ، ... وتظهر آثارها مستقبلاً .
والتربية الربانية تسعى لتهيئة المحضن الصالح للجنين مع العناية بجميع

(١) سورة لقمان الآية : ١٤ .

(٢) سورة الأحقاف الآية : ١٥ .

(٣) رعاية الطفولة في الشريعة الإسلامية ص ٧٧ .

نواحيه الغذائية، والانفعالية، والنفسية لكي تساعد على نموه الطبيعي، ... ثم بعد خروجه إلى الدنيا ، فيقبل آداب وتعاليم السماء باتزان وفاعلية ، ومرونة تتواءم مع انسجامه المتكامل في قراره المكين (١)

وتحتاج الأم إلى عناية شديدة في فترة الحمل من المحيطين بها، يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢)، ومعنى المعروف أن يقوم الزوج وهو أقرب المحيطين بالزوجة بتحقيق حاجاتها المادية والمعنوية في سماحة، وهدوء، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلْنَ فَلْيَفْؤُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (٣) ، وبذلك تتحدد مسؤولية الزوج في تحقيق حياة هادئة مع زوجته خلال فترة الحمل للمحافظة على الجنين وهو في بطنها.

ولقد أثبتت الدراسات النفسية والطبية الحديثة أن كثيرا من الاضطرابات النفسية، والعاهات التي تصيب الولد ترجع إلى الحالة النفسية التي تعيشها الأم في فترة الحمل ، أو ترجع إلى ضعفها ، أو قلقها، أو فقد عناصر غذائها ، أو مرض يلحق بها .

إن الإسلام لا يكتفي بتأخير العقوبة عن الحامل فقط، وإنما يوصي بضرورة الإحسان إليها وتكريمها، وتجنب ما يؤذيها حتى لا ينعكس تبرمها وغضبها على جنينها .

إن الإسلام يحافظ على الجنين في بطن أمه بالمحافظة على أمه ، ورفع قدرها، ومعاملتها معاملة حسنة .

(١) الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية : د . ليل العطار ص ١١٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٣٣ .

(٣) سورة الطلاق الآية : ٦ .

المبحث الرابع تحريم العدوان على الجنين

حرم الإسلام العدوان على الجنين، فأوجب الغرة على من اعتدي عليه وهو في بطن أمه، وأسقطه من مكمنه الأمين، وأخرجه ميتا .
والغرة (بضم الغين بعد أل القمرية وفتح الراء المشددة بعدها تاء مربوطة) هي العقوبة المقدرة على جناية إخراج الجنين من بطن أمه ميتا ، ... سواء كان الجاني أمه أو أباه، أو غيرهما ، ويستوي في العقوبة وقوع الجناية بالفعل، أو بالقول، أو بالترك، والإهمال ، ومقدارها نصف عشر الدية .

وقد اجمع الفقهاء على وجوب الغرة إذا حدث السقط والأم حية مستدلين على إجماعهم بما يلي :-

١- روى أبو هريرة رضي الله عنه (أن امرأتين من هذيل، رمت إحداهما الأخرى

فطرحت جنينها ، ففضى رسول الله ﷺ فيها بغرة عبد أو أمة) (١)

٢- وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : (سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عن إملاص المرأة ، وهي التي يضرب بطنها فتلقي جنينا .

فقال : أياكم سمع من النبي ﷺ فيه شيئا ؟

فقلت : أنا .

فقال : ما هو ؟

قلت : سمعت النبي ﷺ يقول : " فيه غرة ، عبد أو أمة " .

فقال : لا تبرح حتى تجيئي بالمخرج فيما قلت .

(١) صحيح البخاري - كتاب الديات، باب جنين المرأة - حديث : ٦٥٢٣

فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة فجئت به ، فشهد معي : أنه
سمع النبي ﷺ يقول : " فيه غرة ، عبد أو أمة) (١) .

كما أجمعوا على أن الجنين إن خرج من بطن أمه حيا ، ثم مات بعد
ذلك ففيه دية كاملة ، لأنه قتل إنسان حي ، كما اتفقوا على تعدد الغرة بتعدد
الأجنة التي تسقط .

إلا أنهم اختلفوا في أمرين بعد ذلك : -

الأمر الأول : حكم خروج الجنين ميتا من بطن أمه الميتة :

ذهب الأحناف، والمالكية إلى اشتراط حياة الأم عند سقوط الجنين، فإن
ماتت قبل خروجه فلا دية ولا غرة فيه، لأنهم يعدون موت الأم سببا لموت
الجنين، ولذلك فلا غرة لهذا الجنين الميت، لأن موته كان بسبب أمه، فلا
جناية عليه (٢) .

أما الشافعية، والحنابلة فإنهم لا يشترطون حياة الأم، ويوجبون الغرة
على الجنين إن خرج ميتا سواء كانت أمه حية أو ميتة (٣)، لأنهم يرون أن
الجناية على الأم هي سبب موت الأم وموت الجنين، وعلى الجاني غرة ودية
وأما الظاهرية فقد ذهبوا إلى أن الحامل إذا قتلت وحملها ظاهر ففي
قتل الجنين الغرة (٤) .

(١) صحيح البخاري - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب لا يتكلف من قبله - حديث : ٦٩٠٧

(٢) حاشية ابن عابدين ج ٥ ص ٣٧٨، مواهب الجليل ج ٦ ص ٢٥٧

(٣) أسنى المطالب ج ٤ ص ٨٩، والمغني ج ٧ ص ٨٠١ .

(٤) المحلى لابن حزم ج ١١ ص ٢٨ .

الأمر الثاني : وجوب الكفارة :

الكفارة هي عقوبة مقررة مع الدية، وهي عتق رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين .

وقد اختلف الفقهاء في وجوب الكفارة مع الغرة :

فذهب الأحناف والمالكية إلى أن الكفارة ليست واجبة ، وهي مندوبة لأن النبي ﷺ لم يقض بالكفارة مع الغرة ، كما أن الكفارة فيها معنى العقوبة وقد شرعت زجرا ، وفيها معنى العبادة، لأنها تتأدى بالصوم لمن لم يقدر على عتق الرقبة، فمراعاة معنى العبادة فيها أخرجها من دائرة الوجوب إلى دائرة الندب، لتكون عقوبة زاجرة (١) .

ويذهب الشافعية والحنابلة إلى وجوب الكفارة مع الغرة ، لأنها تجب حقا لله تعالى، ولأن الجنين نفس مضمونة بالدية (٢) .

وكما حرم الله تعالى العدوان على الجنين، وأوجب العقوبة على من أسقطه حرم الإجهاض الذي يتم برضا الزوجين ما لم تلجئهم ضرورة إليه، ويقوم بتقدير هذه الضرورة المبيحة للإجهاض طبيب مسلم أمين. والإجهاض خروج الجنين من بطن أمه بفعل من أمه أو من غيرها ، وهو نوعان : -

أحدهما : إجهاض تلقائي، وفيه يسقط الجنين دون تدخل من أحد بإرادة الله ﷻ له ، يقول ﷺ: ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٣)

(١) حاشية ابن عابدين ج ٥ ص ٣٧٩، مواهب الجليل ج ٦ ص ٢٥٨ .

(٢) أسنى المطالب ج ٤ ص ٩٠، والمغني ج ٧ ص ٨٠٢ ..

(٣) سورة الحج الآية : ٥ .

ثانيهما: إجهاض غير تلقائي، وهو الذي يقع للجنين بسبب خارجي عن الجنين نفسه، ويتم بفعل فاعل .

ويجوز الإجهاض لعذر ضروري، مشروع مثل :

- إذا كان الحمل يمثل خطرا على حياة الأم .
- إذا تعسر الوضع عند الولادة، وصار قتل الجنين محققا لنجاة الأم من الموت .

ففي هذه الحالات يجوز الإجهاض تضحية بالفرع لإبقاء الأصل.

وقد أجمع الفقهاء على أن تعمد الإجهاض بلا عذر قهري جريمة نكراء يعاقب عليها الجاني إن تم بعد تمام الخلقة، ونفخ الروح، وتمام أربعة أشهر .
أما الإجهاض قبل أربعة أشهر فقد ذهب الجمهور إلى تقرير العقوبة كمن تمت خلقتة، ولم يخالف في هذا إلا بعض فقهاء الأحناف ، وبعض الشافعية (١) فقد أجازوا الإجهاض قبل مائة وعشرين يوما .

وهكذا يحافظ الإسلام على الجنين في بطن أمه ، ويحث على إخراجه للوجود سالما بدنيا، ونفسيا، وعقليا .

(١) الهداية ج ٢ ص ٤٩٥ ، ونهاية المحتاج ج ٨ ص ٤١٦ .

الباب الثالث

استقبال الولد

استقبال الولد

يأمل الزوجان في الولد بعد الزواج، ويدعون الله تعالى أن يهبهما أولادا صالحين، يملأون البيت ضجيجا، وصخبا، ويملأون القلوب سرورا وفرحا، ويساهمون في نشر الإسلام، وقوة المسلمين، وإقامة العدل، والمساهمة في نهضة الأمة.

وقد دلت وقائع التاريخ، وركائز الفطرة على رغبة الزوجات والأزواج في الولد لتستمر الذرية، ويكثر الأهل والأقارب، ومن دعاء زكريا عليه السلام لربه حينما رأى الخيرات تترى على مريم عليها السلام ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُنْشِرُكَ بِحَيِّ مَصَدَّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ (١)

ومن شدة الرغبة في الولد نرى عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن رزقي الله تعالى عشرا من الولد لأذبحن أحدهم " فرزقه الله تعالى عشرا، وأقرع عليهم لذبح من تقع عليه القرعة، فوقعت القرعة على عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم ، ففداه بمائة من الإبل، وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم : (أنا ابن الذبيحين) (٢) ، وهما أبوه عبد الله، وأبو العرب إسماعيل عليه السلام .

ومجيء الولد يمتن روابط الأسرة، ويوحد أهداف الأبوين، ويدفعهما إلى السعي والعمل، وينشر في الأسرة الطمأنينة ، والهدوء، والرضى.

(١) سورة آل عمران الآيتين : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب تواریخ المتقدمین من الأنبياء والمرسلین، ذکر من قال إن

الذبيح إسحاق بن إبراهيم عليها السلام - حديث : ٣٩٨٤ .

ومن **حكمة الله تعالى** ورحمته تشريع الميراث، ففيه توزع التركة على الأبناء غالباً، لأن ذلك يطمئن الآباء على أموالهم لأنها تنتقل إلى أولادهم وذرياتهم، ويشعرون بذلك أن أموالهم معهم، ولن يأخذها غريب عنهم.

وقد حاولت بعض النظم الأرضية جعل المال شائعاً بين الناس ففشلت فشلاً ذريعاً، وقل الإنتاج، وضعف العمل، لأن الإنسان لا يحب العمل لغيره، فعدلت عن قرارها .

وقد أحاط الإسلام ولادة الولد بالبهجة، والاستقبال الحسن، وشرع له أساسيات التربية الطيبة في نفسه، وفي الجو المحيط به وهذا ما سأتناوله في **الفصول التالية** - إن شاء الله تعالى .

الفصل الأول

الأعمال الشرعية

لاستقبال الوليد

الأعمال الشرعية لاستقبال الوليد بعد تمام الحمل

يستمر الجنين في بطن أمه تسعة أشهر، وقد يقل أو يزيد عن ذلك، وقد سبق بيان ضرورة العناية به وهو في بطن أمه، لارتباطه بها في غذائه، وعواطفه، ومكوناته الشخصية، فهو يتغذى مما تأكل، ويشاركها في مشاعرها، ويتأثر بأحاسيسها النفسية، وتقلباتها الإدراكية، ويشاركها فيما تشعر به .

وبعد تمام تكونه في بطن أمه يخرج بتقدير الله تعالى، ليبدأ عمره في الحياة الدنيا، وهنا يأمر الله تعالى والديه، أو من يقوم مقامهما بأعمال شرعها لهم، يقومان بها مع المولود مباشرة، أو مع المحيط الذي سيعيش فيه شكراً لله تعالى على الهبة الغالية التي وهبها لهما، وكلفهما بتربيته على الصلاح والتقوى، والبدء بأعمال رمزية تشير إلى المنهج الواجب إتباعه في التنشئة والتكوين .

إن اهتمام الإسلام بتشريع أمور عقب الولادة مباشرة تعني رسم الإطار الكلي الذي سيرى عليه الولد، والإشارة إلى القصد المؤكد لطاعة الله تعالى، وتطبيق تعاليمه بعد ولادة الولد، وإعلان أملهما في تربية ولد صالح، يعينهما على طاعة الله تعالى، ويدعو لهما بعد موتهما، ويستقيم على دين الله تعالى... وسأتناول ما يتصل بهذا الموضوع - بإذن الله تعالى - في المباحث التالية : -

المبحث الأول البشر والسرور بمجيء الولد

جرت سنة الله تعالى في الناس أن يتكاثروا ، ويعمرّوا الأرض، ويكُونوا
الأسر، والقبائل، والشعوب .

وقدر الله تعالى استمرار التناسل لتحقيق مراده في الدنيا، وحتى تقوم
الساعة، وتنتهي هذه الحياة .

وليس للإنسان أثر في إيجاد الولد مع قدرة الله تعالى ، فالله تعالى هو
الخالق، وهو المعطي ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ
﴿١٥﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ (١) .

والإنسان بصورة عامة يتمنى الولد، ويطلبه، ويرجوه لأهله، وقبيلته،
وكان العرب قبل الإسلام يدعون لمن يتزوج منهم بـ " الرفاء والبنين " ، أي
بزواج موفق فيه الالتحام والاتفاق ، وهو الرفاء بين الزوجين، كما يدعون
لهما بالبنين لتدوم عشرتهما طيبة، ويستمر ذكرهما من بعدهما .

وكان مجيء الأولاد على مدار التاريخ بشري للآباء والأمهات :
يقول الله تعالى :

- ﴿ فَادَّعَى الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا
بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢)
- ﴿ وَقَدْ جَاءَتْ رُسُلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىَ قَالُوا سَلِمًا قَالَ سَلَّمَ ﴿٣﴾ ﴾ (٣)

(١) سورة الشورى الآيتين : ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٣٩ .

(٣) سورة هود الآية : ٦٩ .

- وَأَمْرًا مَرَّ قَائِمَةً فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴿ (١) .

وقد ثبت أن النبي ﷺ لما ولدته أمه ذهبت ثويبه إلى عمه أبي لهب وبشرته بميلاده، فأعتقها سرورا بولادة ابن أخيه، ولم يضيع الله تعالى ذلك له، فسقاه بعد موته من النقرة التي في أصل إبهامه ، ففي حديث عبد الرزاق عن معمر ، قال عروة : (وكانت ثويبة مولاة لأبي لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ ، فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله في النوم ، فسأله ما وجدت ؟

فقال : ما وجدت بعدكم راحة غير أنني سقيت في هذه مني في النقرة التي بين الإبهام ، والتي تليها بعثقي ثويبة) (٢) .

واستمر الناس على مدار التاريخ يفرحون بالذرية، ويسعدون بمجيء الولد فهو ساعدهم في النزال، وقوتهم في العمل، وسبب لبقائهم واستمرار سيرتهم . ولهذا ينبغي السرور بمقدم الولد، واستقبال هبة الله بالحمد والشكر، والعناية والاهتمام، لأن حياة الولد امتداد لوالده، ولذلك طلب زكريا ﷺ الولد وقال : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ (٣)، فاستجاب الله تعالى له ، وقال ﷻ : ﴿ يَنْزَكِرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ (٤) .

ويستحب للمسلمين مشاركة الزوجين سرورهما بالولد، وتهنئتهما به ،

(١) سورة هود الآية : ٧١ .

(٢) مستخرج أبي عوانة - مبتدأ كتاب النكاح ، باب تحريم الجمع بين الأختين - حديث : ٣٥٦٤

(٣) سورة مريم الآيتين : ٥ ، ٦ .

(٤) سورة مريم الآية : ٧ .

وتقديم الهدايا المناسبة لهما، ... وفي ذلك تقوية للأواصر الإنسانية، وتنمية للروابط الاجتماعية، ونشر للحب والمودة بين أفراد المجتمع الواحد .

ويستحب الدعاء عند التهئة للولد ولأبوية، ولسائر الناس، فلقد روى عن الحسن البصري رحمته الله أن رجلا جاء إليه وعنده رجل قد ولد له غلام، (فقال : يهنك الفارس . أي أهنك بالولد الفارس .

فقال الحسن: وما يهنك الفارس ؟ لعله أن يكون بقارا أو حمارا. ولكن قل : " شكرت الواهب ، وبورك لك في الموهوب ، وبلغ أشده ، ورزقت بره) (١)

وهكذا

يجب استقبال هبة الله بالفرح، والشكر والتهاني أيا كان نوع الولد، ويكفي أنه هبة الله تعالى،

وبعض الناس يلعب الشيطان بعقولهم ، فيسرون للذكر، ويقابلون البنت بالغضب والضجر، وهو لا يدري أنه بذلك يعاند القدر، ... وقد تكون الأنثى أكرم لوالديها، وأبر من الذكر، وفي قوله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴾ (٢) بيان لقيمة الولد فهو هبة الله تعالى ، وإشارة إلى قيمة الأنثى بتقديم ذكرها في الآية على ذكر الولد .

يقول ابن قيم الجوزية : قدمت الآية ذكر الإناث على الذكور لأسباب

عدة : -

١- إثبات أنه سبحانه فاعل لما يشاء لا كما يشاء الأبوان .

(١) مسند ابن الجعد - حديث الهيثم بن جمار، حديث : ٢٨٦٧

(٢) سورة الشورى الآية: ٤٩ .

- ٢- جبر البنات وتعويضهن عن سوء استقبال الأبوين لهما .
- ٣- تقديم ما كانت تؤخره العرب في الجاهلية ، ولسان الحال يقول لهم : هذا النوع المؤخر الحقير عندكم مقدم عندي في الذكر .
- ٤- بيان أن الولد - ذكرا أو أنثى - مكرم عند الله تعالى ، وقد قدمت الآية الأنثى ، وعرفت الذكر بـ " ال " فجبر نقص الأنوثة بالتقديم ، وجبر نقص التأخير بالتعويض ، ثم لما ذكرت الآية الصنفين معا قدمت الذكور ولم تعرف الإناث ، وأعطت كلا الجنسين حقه في التقديم والتأخير (١) .

والمهم

بيان مساواة الإسلام بين الذكور والإناث، وإبطال العادة الجاهلية في كراهية البنات ، وتفضيل الذكور عليهن .

ومسئولية الدعاة تعريف الناس حكم الإسلام عند الولادة، وتذكيرهم بأن الرجال أبناء أمهاتهم، ولولا النساء ما وجد الرجال، وطعام الولد من طعام أمه، ولا يصح لمسلم أن يفرق بين هبة الله فيأخذ بعضها، ويرد بعضها، فإن كل ما يأتي به الله خير، وعطاؤه موزون بحكمه ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩ ﴾ (٢)

ولأن الإسلام دين واقعي نجده يصور الواقع البشري على ما هو عليه، ويبين ما كان عليه أغلب العرب، يقول الله تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ غَلَبٍ ۗ كَبِيرٍ ۝١٩ ﴾

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص ١٨، ١٩ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٩ .

هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ (١)، والآية تدل على سوء استقبال العرب للبنات، فيسود وجه من يبشر بها، ويتألم من مجيئها، ويدفنها في التراب وهي حية، فاستحقوا اللعنة لهذا.

ولم يكن العرب جميعا على هذا النحو من النظر للبنات ، فلقد كان بعضهم ينتسب لأمه كعمر بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم ، ومنهم من كان ينادي المرأة بربة البيت، وكان النبي ﷺ يقول : (أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في هذه البطحاء) (٢) ، ويقول ﷺ : (أنا ابن العواتك) (٣) .

وجاء الإسلام فأعلى شأن البنات، ورفع مقام المرأة في كتابه الكريم من خلال قصة أم موسى، وأم عيسى، وغيرهن من النساء .

ويحجب الإسلام الوالدين في إنجاب البنات، ويضرب الله تعالى مثلا للمؤمنين بالنساء، فيقول تعالى : ﴿ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنِيَّهٍ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٤) .

ويبين الإسلام أن رعاية البنات طريق للجنة، فيقول ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : (من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو " وضم أصابعه) (٥) .

(١) سورة النحل الآيتين : ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب التفسیر، تفسیر سورة ق - حدیث : ٣٦٦٨

(٣) المعجم الكبير للطبراني - من اسمه سيابة، سيابة بن عاصم السلمي - حدیث : ٦٥٦٨

(٤) سورة التحريم الآيتين : ١١ ، ١٢ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات - حدیث : ٤٨٧١

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من بلي من هذه البنات شيئا، فأحسن إليهن، كن له سترا من النار) (١) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يكون لأحد ثلاث بنات ، أو ثلاث أخوات ، أو ابنتان ، أو أختان ، فيتقي الله فيهن ويحسن إليهن إلا دخل الجنة) (٢) .

ويبين الله تعالى ما في المرأة من خير، فيقول عنهن ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٥ ﴾ (٣) .

إن المجتمع لا يوجد إلا برجاله ونسائه معا، ولا يستقيم الحال إلا باستقامتهما معا، ولذلك بشر الله تعالى بالذكر والأنثى على حد سواء ، ودعا إلى الفرح بميلاد كل منهما أملا في نهضة الأمة بعقول وسواعد الرجال، وعواطف وحنان النساء، وهما يتمسكان بشرع الله تعالى .
وقد بنى الإسلام الأمة على حب الذكور والإناث، واعتنى بكل منهما، وشرع لهما ما يصلحهما، ويتفق مع طبيعتهما،

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته - حديث : ٥٦٥٥

(٢) مسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم، مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - حديث : ١١١٤٩

(٣) سورة النساء الآية : ١٩ .

المبحث الثاني **التصرفات الشرعية مع الولد**

يُشرع الإسلام عند ولادة الولد أموراً شرعية يقوم بها الوالد ، أو من يقوم مقامه، وهي تتنوع إلى نوعين :
نوع يتصل بالمولود مباشرة ، ونوع يتصل به وبمن حوله من الأهل والأقارب والجيران
وسوف أتناول في هذا المبحث التصرفات المتصلة مباشرة بالولد، وذلك في المطالب التالية : -

المطلب الأول **الأذان والإقامة في أذني المولود**

يعيش الولد في مستقره الأيمن في رحم أمه مدة الحمل، وأقلها عند الفقهاء ستة أشهر، وأكثرها تسعة أشهر على الأغلب، وقد قال بعض الفقهاء أنها تزيد عن تسعة أشهر، وأوصلها بعضهم إلى سنوات عدة ...
يخرج الولد من بطن أمه إلى ضيق الدنيا، ولأوائها، ويعيش فيها بين محبيه وأعدائه، حيث يحضر الشيطان مولده ليأخذه إليه عند خروجه، متحفزاً للسبق إليه منذ لحظة وجوده الأولى .
ولذلك حث الإسلام الأبوين على تحصين المولود بذكر الله تعالى، وتلقينه شهادة التوحيد، وذكر الله تعالى في أذنيه بعد مولده قبل أن يلجها الشيطان الرجيم .

والأمل أن يكون أول ما يسمعه الولد في الدنيا شهادة التوحيد.

فعن عبيد الله بن أبي رافع ، عن أبيه رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله ﷺ

" أذن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة بالصلاة) (١) .

كما هو الأمل في أن تكون هي آخر ما يقوله في الدنيا .

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان آخر

كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة) (٢) .

إن الولد هبة إلهية ، وعطاء رباني، ومن حق الواهب أن يذكر ويشكر، وأحسن الشكر ما لازم الهبة، وظهر مع حدوثها، والواهب هو الله ، والواجب ذكره وشكره على هبته وعطائه، وذلك يكون بالشهادة والأذان في أذن المولود اليمنى، والإقامة في أذنه اليسرى، ليتحد الوالد والولد في الإقرار بالعبودية لله رب العالمين،

وأيضاً فإن الشياطين تسبح في الأرض لتعثر على فريسة جديدة تسيطر عليها، وتجعلها من أنصارها، وتضمها إلى وسوستها، ويشتد أملها في المولود الجديد ، وذلك بالسيطرة على قلبه وروحه ، ولذا شرع الإسلام الأذان في الأذن اليمنى، والإقامة في الأذن اليسرى لصد الشياطين عن الولوج إلى القلب والضمير، وإغلاق الطريق أمامهم، وإبعادهم عن مخالطة الروح والعواطف .

ومن فوائد التأذين والإقامة في أذن المولود أن يكون أول ما يسمع كلمات تدعوه إلى الله تعالى كما هي فطرته الموجودة مسبقاً قبل أن يصل إليها الشيطان، ويؤثر فيها (٣) .

(١) سنن أبي داود - كتاب الأدب، أبواب النوم - باب في الصبي يولد فيؤذن في أذنه، حديث : ٤٤٦٢

(٢) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب الجنائز، حديث : ١٢٣٣

(٣) تحفة المودود في أحكام المولود ص ١٦ بتصرف .

وآثر الشرع النطق بالآذان، والإقامة في أذني المولود ليعلم حين يدرك أن الصلاة عماد الدين، فيحافظ عليها، ويقيمها كاملة تامة عند إدراكه وتعقله وقد دلت الأحاديث النبوية على هذه السنة الحسنة :

- فعن الحسن بن علي رضي الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ولد له ولد فأذن في أذنه اليمنى ، وأقام في أذنه اليسرى ، لم تضره أم الصبيان*) (١) .

- وعن أبي رافع رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة رضي الله عنها) (٢) .

وليس بمستنكر وصول آثار الأعمال والأقوال الصالحة إلى القلوب النقية، واستقرارها فيها، وتقوية الفطرة، وإن لم يظهر هذا الأثر في الإنسان إلا بعد إدراكه وتعقله .

وقد ثبت أن الشيطان ينفر من المكان الذي يذكر الله فيه.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم، ولا عشاء .

وإذا دخل ، فلم يذكر الله عند دخوله ، قال الشيطان : أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر الله عند طعامه ، قال : أدركتم المبيت والعشاء) (٣) .

(١) المطالب العالية للحافظ ابن حجر، كتاب الأضحية، باب العقيقة وما يصنع بالمولود حديث : ٢٣٥٩

* وأم الصبيان هي الريح التي تعرض للولد عند مولده، وقيل التابعة من الجن، المسماة بالقرينة .

(٢) المستدرک على الصحيحين للحاكم - كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، حديث : ٤٧٧٩

(٣) صحيح مسلم - كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما - حديث : ٣٨٥٥

وكلمات الآذان والإقامة معبرة عن الإسلام كله ، فهي مثبتة لكبرياء المالك لكل موجود، وشاهدة على التوحيد، وصدق رسول الله ﷺ ، وداعية إلى العبادة والطاعة، والاستقامة، وبهذه الكلمات يسمع الولد في أول ظهوره العقيدة، والشريعة، والخلق .

وفي هذا التأذين والإقامة في أذني الوليد إغاضة للشيطان، وطرد له عن المكان، وتحصين للولد من عدوه الأثيم .
ويستحب إلقاء الآذان والإقامة في أذن المولود عقب ولادته مباشرة ، حتى لا يجد الشيطان أمامه وقتا يخنس فيه، ...

وليس بمستبعد خوف الشيطان من الاقتراب من الأذنين بعد التأذين في اليمنى، والإقامة في اليسرى لما لهما من آثار مادية ومعنوية على الشيطان وذريته، فقد ثبت أن الشيطان إذا جاء بيت مسلم وفيه أصحابه يذكرون الله تعالى ، ويسمونه عند الطعام والشراب فإنه ينفر من هذا البيت، ويتحسر.

كما يصاب الشيطان بالهوان يوم عرفة لكثرة الذكر، والدعاء، والتكبير والتلبية .

وعلى الدعاة :

أن يتعلموا من هذا التشريع المبادرة إلى الخير، والإسراع في الدعوة إلى الله تعالى، وملازمة الطاعة، والتعوذ الدائم من الشيطان الرجيم، واللجوء إلى الله تعالى بشكره عند الخير، والاستعاذة به من شرور الشياطين .
وان يجتهدوا في تعريف المدعويين بهذه السنة الحسنة مع أطفالهم، ليقوموا بها، ويدركوا ما فيها من فائدة لهم .

إن المحافظة على هذه السنة تفيد الولد بالحفظ والتحسين، وتفيد الوالدين بالرجوع إلى الله تعالى، وطلب عونه في كل أمر ، وتفيد الجماعة المؤمنة بتمسكها بمنهج الله القويم .

المطلب الثاني تحنيك المولود

يستحب تحنيك الولد عقب الولادة، وذلك بمضغ تمره ، وتليينها بريق القائم بالتحنيك، وأخذ جزء منها على الأصبع، وإدخال الإصبع في فم المولود، وتحريكه يمينا وشمالا، وأعلى وأسفل بحركة لطيفة ، حتى يتبلغ الفم كله بالتمر الممضوغة.

وفائدة التحنيك تقوية عضلات الفم، وتعويد اللسان على مص اللبن الذي سيرضعه لمغايرته غذاءه في البطن، وبذلك يتهيأ المولود للقم الثدي ، ومص اللبن، والتكيف مع البيئة الجديدة .

ويفضل أن يباشر التحنيك إنسان معروف بالصلاح والتقوى، لينتفع المولود ببركته، وأملا في صلاح المولود ، وتقواه ،، وكان الصحابة رضي الله عنهم يأتون بأولادهم عقب ولادتهم ليحنكهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويدعو لهم بالبركة .

إن المولود مخلوق حساس قابل للنقش والتشكيل بعد مولده، ولذلك كانت سنة حسنة في شرع الله عز وجل إحاطته بأمر مادية ترمز لحياته ومستقبله والتحنيك سنة حسنة لما يلي : -

- عن أبي موسى رضي الله عنه قال : (ولد لي غلام فأتيته به النبي صلى الله عليه وسلم فسماه إبراهيم، وحنكه بتمره) (١) .

(١) صحيح مسلم - كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته - حديث : ٤٠٩١ .

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (كان ابن لأبي طلحة يشتكي ، فخرج أبو طلحة ، فقبض الصبي . فلما رجع أبو طلحة ، قال : ما فعل ابني ؟ قالت أم سليم : هو أسكن ما كان ، ففرت إليه العشاء فتعشى ، ثم أصاب منها ، فلما فرغ قالت : واروا الصبي . فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فأخبره . فقال ﷺ : " أعرستم الليلة ؟ " قال : نعم . قال ﷺ : " اللهم بارك لهما " فولدت غلاما . قال لي أبو طلحة : احفظه حتى تأتي به النبي ﷺ ، فأتى به النبي ﷺ وأرسلت معه بتمرات ، فأخذه النبي ﷺ فقال : " أمعه شيء ؟ " قالوا : نعم ، تمرات . فأخذها النبي ﷺ فمضغها ، ثم أخذ من فيه ، فجعلها في في الصبي وحنكه به ، وسماه عبد الله (١) .
- وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها (أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة ، قالت : فخرجت وأنا متم ، فأتيت المدينة فنزلت قباء ، فولدت بقباء ، ثم " أتيت به رسول الله ﷺ فوضعت في حجره ، ثم دعا بتمر فمضغها ، ثم تفل في فيه ، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ، ثم حنكه بالتمر ، ثم دعا له فبرك عليه " وكان أول مولود ولد في الإسلام ، ففرحوا به فرحا شديدا ، لأنهم

(١) صحيح البخاري - كتاب العقيدة، باب تسمية المولود غداة يولد - حديث : ٥١٥٧ .

قيل لهم : إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم (١)

إن تحنيك المولود بعد ولادته بواسطة رجل صالح يؤدي إلى إبعاد الشيطان عن قلب الولد، وسد طريقه إلى البطن والمعدة والأمعاء، وبهذا يتم غلق الفم والأنف في وجهه، كما سدت الأذن بالأذان والإقامة، ويكبر الولد صالحاً لنشأته بين أبوين صالحين، طردا عنه إبليس، وسدا في وجهه كافة الطرق .

إن الفم مجمع اللثة، والأسنان، واللسان، وفي ثنايا هذه العناصر تتكون الجراثيم والميكروبات، وتخرج الغيبة والنميمة، ويظهر الذكر والدعاء .

وتحنيك الفم بالتمر بواسطة أصبع رجل صالح يشير إلى ضرورة تطهير الفم، ونظافة ما يخرج منه من أقوال، والإشارة إلى حاجة الفم إلى التطهر الدائم .

إن تحنيك الفم من الأعمال الرمزية التي ترجى أثارها في الوليد بعد إدراكه وشبابه .

المطلب الثالث

حلق رأس المولود

من الأحكام التي شرعها الإسلام استحباب حلق شعر رأس المولود في اليوم السابع من مولده، والتصدق بوزن شعر رأسه فضة على الفقراء والمستحقين والضعفاء .

يدل على ذلك ما يلي : -

- عن جعفر بن محمد، عن أبيه أنه قال: (وزنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ شعر حسن وحسين، وزينب وأم كلثوم، فتصدقت بزينة ذلك فضة) (٢)

(١) صحيح البخاري - كتاب العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد - حديث : ٥١٥٦

(٢) موطأ مالك - كتاب العقيقة، باب ما جاء في العقيقة - حديث : ١٠٦٧

- وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : (علق رسول الله صلى الله عليه وآله عن الحسين بشاة وقال : " يا فاطمة احلقي رأسه، وتصدقي بزنة شعره" فوزناه فكان وزنه درهما) (١) .

- وعن أنس رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر برأس الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهما يوم سابعهما فحلقا ثم تصدق بوزنه فضة) (٢) **والحكمة في ذلك إزالة شعر المولود الذي كان به في البطن تقوية له، وفتحاً لمسام الرأس، وتنشيطاً للإدراك والفهم، وتقوية لحواس السمع، والبصر، والشم ويفيد حلق الرأس في نظافة جلد الرأس مما علق به في الرحم، لقوله صلى الله عليه وآله : (وأميطوا عنه الأذى) (٣) كما أن التصدق بوزن الشعر فضة تعريف للناس بمجيبئ الولد، وتوسعة عليهم بسبب هذا الولد فيدعون له.**

ويستحب حلق شعر الرأس كله ، لأن حلق بعضه وترك بعضه منهي عنه، لأنه يغير الخلق، ويصرف النظر إلى الرأس ويبعده عن الوجه ، ... كما إنه يشير من طرف خفي إلى عدم المساواة بين شعر الرأس بحلق بعضه وترك بعضه ، وهو المسمى بـ " القزع " ، وقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما (أن رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن القزع) (٤) (٥) ، وذلك ليحقق الإنسان العدل

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب الذبائح، حدیث : ٧٦٥٦

(٢) السنن الكبرى للبيهقي - كتاب الضحايا، باب العقيقة سنة، حدیث : ١٧٩١٩

(٣) صحيح البخاري - كتاب العقيقة، باب إمطة الأذى عن الصبي في العقيقة - حدیث : ٥١٥٨

(٤) صحيح البخاري - كتاب اللباس، باب القزع - حدیث : ٥٥٨٤ .

(٥) تحفة المودود بأحكام المولود ص ٨٠، وصور القزع تكون بحلق أجزاء من شعر الرأس من هنا ومن هنا بلا ترتيب معين، أو حلق أعلى الرأس وترك الجوانب، أو العكس، أو حلق =

بين أعضاء بدنه قبل أن يحققه مع الناس، وهذا شأن الإسلام مع الإنسان في أمور عدة ، منها النهي عن أن يجلس الإنسان ونصفه في الظل، والنصف الآخر في الشمس، ... ومنها أن ينتعل الإنسان في نعل واحد ، فإما أن يخلعهما، أو ينتعلهما معا .

إن طاعة الله تعالى فيما شرع أمر واجب الاتباع ، وإن لم تظهر حكمته ، وليس من الضروري أن يعلم المكلف حكمة كل أمر مشروع، وعليه طاعة الله في كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ ، وجاء الوحي به .

إن الأفعال التي شرعها الله تعالى ليقوم بها الوالد ، أو من يقوم مقامه مع الولد، فوق أنها واضحة الدلالة على فوائدها فهي تحمل الرمزية لأمر أخرى، فهي تحافظ على أمور لا بد منها، وترمز إلى أن طريق طرد الشيطان، وجلب رحمة الله تعالى يكون بتطهير الحواس، وصيانتها بذكر الله تعالى ، وطاعته، والتوجه الدائم إليه.

فحماية الأذن تكون بالأذان والإقامة.

وحماية الرأس تكون بالحلق.

وحماية الفم والأنف واللسان يكون بالتحنيك، ... وبهذا يشب الطفل ومعه صورة حياته الأولى، وكلما شب عاد بعقله وقلبه إلى ضرورة حماية سمعه، ولسانه، وإدراكه من أي سوء .

المطلب الرابع ختان الولد

الختان في اللغة قطع القلفة، ويسمى بالعدّار، وهو في الاصطلاح الشرعي قطع الجلد التي تعلو أسفل الخشفة، وهي الجلد الساترة لمقدم الذكر (١) .

والقلفة (بضم القاف بعد ال القمرية وسكون اللام وفتح الفاء) هي الجلد التي تكون أعلى رأس الذكر، وهي التي تقطع في الختان، وتحدد الحشفة بعد قطعها، فإذا غابت الحشفة في الفرج حاذى ختانه ختانها .

وختان الأنثى يعرف بالخفاض (بكسر الخاء بعد أل القمرية، بعدها فاء ممدودة) ومعناه قطع ما على فرج الأنثى من قطعة الجلد التي تشبهه عرف ديك صغير (٢) .

والختان من خصال الفطرة التي شرعها الله تعالى لعباده لتحقيق الطهارة، وتحسين الخلقة، والتمتع بما أنعم الله عليهم من مزايا بدنية وعقلية .

فقد أجمع الفقهاء على مشروعية الختان لقوله ﷺ : (**الفطرة خمس** : الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الأباط) (٣)، ولقوله ﷺ : (**من الفطرة**، المضمضة ، والاستنشاق، والسواك ، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، والاستحداد، وغسل البراجم، والانتضاح، والاختتان) (٤) .

(١) نهاية المحتاج ج ٨ ص ٣٣ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ، باب خصال الفطرة ج ٣ ص ١٤٦ .

(٣) صحيح البخاري - كتاب اللباس، باب تقليم الأظفار - حديث : ٥٥٥٩ .

(٤) سنن ابن ماجه - كتاب الطهارة وسننها، باب الفطرة - حديث : ٢٩٢ .

يقول ابن القيم : الفطرة فطرتان، فطرة تتعلق بالقلب، وهي معرفة الله ومحبته، وإيثاره على ما سواه، والثانية فطرة عملية، وهي الخصال المذكورة في الحديث ، وهي تطهر البدن، وكل فطرة منهما تمد الأخرى (١) .

إلا أنهم اختلفوا في حكم الختان للذكر والأنثى:

فذهب ربيعة، والأوزاعي، ومالك، والشافعي، وأحمد إلى أن ختان الذكر واجب، وتشدد الإمام مالك في هذا الوجوب فقال: من لا يختتن لا تجوز إمامته، ولا تقبل شهادته، واستدل هؤلاء الفقهاء على مذهبهم بقوله ﷺ: (أربع من سنن المرسلين، الختان، والسواك، والتعطر، والنكاح) (٢) ، ورأوا أن القلفة وهي الجلدة التي تكون في أعلى رأس الذكر، يصيبها البول، ولا يمكن استجمارها، وتطهيرها ، ولا تصح الطهارة مع وجودها ، ولذلك يجب قطعها بالختان لتصح الطهارة، وتصح الصلاة، لأن ما لا يتم الوجوب إلا به فهو واجب، وهذا التعليل هو الذي أدى بالإمام مالك إلى التشدد .
وذهب أبو حنيفة، والحسن البصري، وبعض المالكية، وبعض الحنابلة (٣) إلى سنية ختان الذكر لقوله ﷺ: (الختان سنة للرجال مكرمة للنساء) (٤)، ولأن النبي ﷺ جعل الختان قرينا لأمر مسنون في أحاديث المشروعية المذكورة، وهذا يدل على أن حكم الختان له حكم قرئانه في الحديث .

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص ١٢٦ .

(٢) أمالي المحاملي - مجلس يوم الأحد لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين، حديث : ٤٣١

(٣) الفواكه للدواني ج ٢ ص ٤٠١ ، نهاية المحتاج ج ٨ ص ٣٢ ، مواهب الجليل ج ٣ ص ٢٥٨ .

(٤) مصنف ابن أبي شيبة - كتاب الأدب، في الختانة من فعلها - حديث : ٢٥٩٢٧

وقد رد القائلون بالوجوب بضعف الحديث الذي استشهد به القائلون بالسنية، وهو قوله ﷺ : (الختان سنة للرجال) ، وعلى فرض صحته فإن المراد بالسنة فيه المعنى اللغوي، ويكون معنى الحديث الختان طريقة مشروعة .

وأما أخذهم السنية من اقتران الختان في الحديث بمسنونات أخرى كتقليم الأظافر فهو قياس غير صحيح، لأن الخصال المذكورة في الحديث ليس لها حكم شرعي واحد، فمنها ما هو واجب كالمضمضة، والاستنشاق في الاغتسال، ومنها ما هو مستحب كالسواك، ومنها ما يكون مستحباً في حال، واجبا في حال آخر كتقليم الأظافر، فإنه يكون واجبا لصحة الطهارة عندما تكون الأظافر طويلة، والأوساخ متراكمة تحتها، ويكون مستحباً في غير ذلك وبذلك يترجح رأي القائلين بوجوب ختان الذكر، بالأدلة التي ذكرها القائلون بالوجوب، ولما للختان من فوائد عديدة .

ومن أهم هذه الفوائد أنه تطبيق لشريعة الإسلام، وأداء للطهارة الواجبة، وإظهار للحنيفية السمحة، وتمييز للمسلم عن غيره .
كما أنه يجلب النظافة والجمال، والحسن، ويقي الإنسان من أمراض عديدة، مثل السيلان، والسرطان، وسلس البول ، ويسمح للحشفة بالتمدد ، ولا يحبسها بالقلفة (١) .

ومن فوائده كذلك إزالة التراكبات الدهنية التي يفرزها العرق بين الحشفة، والقلفة، ويزيل أثر البول من الحشفة حتى لا تصاب بالالتهاب الجلدي، ...

(١) حياتنا الجنسية للدكتور / صبري القباني نقلا عن تربية الولد ج ١ ص ١٠٩ .

كما أن المتزوجين يدركون فوائد الختان لأنه يزيد الإحساس بالحشفة أثناء الجماع للرجل والمرأة معا (١) .

هذا بالنسبة لختان الذكر .

أما ختام الأنثى فقد اجمع الفقهاء على أنه مستحب للأنثى لقوله ﷺ :
(الختان سنة للرجال مكرمة للنساء) (٢) ، ولما ثبت (أن رسول الله ﷺ أمر خاتنة تختن فقال : " إذا خنتت فلا تنهكي ، فإن ذلك أحظى للمرأة ، وأحب إلى البعل) (٣) .

وفي هذه الأحاديث دلالة على أن ختان الأنثى مستحب وليس واجبا ، وسبب اختلاف ختان الذكر عن ختان الأنثى أن الأنثى تحتاج إلى الجلدة الموجودة فوق الفرج للإحساس بالجماع مع زوجها ، ولا يصح قطع هذه الجلدة كلها ، ولذلك أمر النبي ﷺ الخاتنة وقال لها : (لا تنهكي) .

يقول ابن القيم : إن الحافضة التي تختن الأنثى إن استأصلت جلدة الختان كلها ضعفت شهوة المرأة ، وهذا يقلل حظوظها مع زوجها ، وإذا تركت الجلدة كما هي ولم تأخذ منها شيئا ازدادت غلمتها ، وإذا أخذت شيئا وأبقت شيئا كان ذلك تعديلا للخلق والشهوة (٤) .

ويحسن أن تعرف الخاتنة ذلك عن الأنثى ، وتتصرف بحذر إن احتاجت البنت للختان .

(١) رعاية الطفولة في الشريعة الإسلامية ص ٢١٨ ، ٢١٩ بتصرف .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة - كتاب الأدب ، في الختانة من فعلها - حديث : ٢٥٩٢٧ .

(٣) السنن الكبرى للبيهقي - كتاب السرقة ، باب السلطان يكره على الاختتان ، حديث : ١٦٣١٨ .

(٤) تحفة المودود بأحكام المولود ص ١١٣ .

ومن محاسن شريعة الإسلام إيجاب ختان الذكر لما في ختانه من فائدة له ولزوجته، ... وقد سبق بيان ذكر فوائد ختان الرجل لنفسه، وأما فائدة ختانه لزوجته فهو حمايتها من سرطان عنق الرحم، فقد أثبت الطب الحديث أن سرطان عنق الرحم يقل بين النساء اللاتي ختن أزواجهن، ... ويخلصهن من الالتهابات المهبلية بسبب التخلص من الثنايا الجلدية الموجودة في القلفة الموجودة أعلى الذكر، لأن هذه الثنايا إذا لم تقطع فإنها تتسبب في إدخال جراثيم ضارة إلى مدخل المهبل أثناء الجماع .

وأیضا فإن ختان الذكر يؤدي إلى زيادة الإحساس الجنسي عند المرأة المتزوجة وقد أثبت العلماء أن لذة الجماع عند المعاشرة الزوجية بين الزوجين يؤثر في تكوين الجنين جسديا، ونفسيا، وعقليا .

أما ختان الأنثى فلا ضرر له على الزوج، ولا تحتاج الأنثى إلى الختان إلا في حالات خاصة مع زوجها، ولذلك شرع الله تعالى ختانها استحبابا ومكرمة، وعلى من يقوم بالختان أن يكون عارفا بمهنته حتى لا يضر من يخته ذكرا كان أو أنثى .

ووقت الختان الواجب يكون عند مشاركة الولد سن البلوغ ، باعتبار أنه سيصبح مكلفا بالعبادة ، ويجب أن يتطهر لها التطهر الواجب، لأن التطهر شرط لصحة الصلاة التي هي عماد الدين، وأساس العبادات .

والأفضل أن يتم الختان في الأيام الأولى لولادة الذكر، حتى إذا بلغ وصار مكلفا لا يتحمل هما وضررا بالختان .

والأفضل في ختان الأنثى أن يكون بعد تمام خلقتها لتتمكن الخاتنة من معرفة القدر الذي يحتاج للقطع ، والجزء الذي لا يصح قطعه .

ويسقط وجوب ختان الولد إذا ولد بلا قلفة، أو كان ضعيفا لا يتحمل الختان، أو مات قبل ختانه .

فإن قيل : يحشر الناس غرلا يوم القيامة ، ويدخلون الجنة كذلك ، فلم لا يختنون ؟ ...

أقول : إن الختان شرع في الدنيا، لتكميل الطهارة ، والتتزه من البول، وأهل الجنة لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا تصيبهم نجاسة يحتاجون لإزالتها ، والقلفة لا تمنع الجماع ، ولا تضيع لذته،

ومن الممكن أن حالتهم تتغير بعد دخول الجنة، ويختنون ، فهم يبعثون حفاة عراة كما ولدتهم أمهاتهم ، ولكنهم في الجنة يكسون بثياب من حرير ، والأمر لله يفعل بهم ما يشاء (١) .

المطلب الخامس

ثقب أذن البنت

يستحب ثقب أذن البنت في أسفل قطعة اللحم الموجودة أسفل الأذن لوضع قرط لها فيه، وذلك لأن البنت محتاجة للحلية التي تنشأ فيها، والحلية تحتاج إلى وجود ثقب في الأذن، ولذلك كان ثقب الأذن مستحبا، والدليل على ذلك : -

- ما جاء في حديث أم زرع (أناس من حلي أذني) (٢) ، أي ملأ أذني بالحلى التي أخذت تتحرك ، وتتنوس ، فقال النبي ﷺ لعائشة **كنت لك كأبي زرع لأم زرع** (٣) .

(١) أنظر تحفة المودود بأحكام المولود ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل - حديث : ٤٨٩٥

(٣) صحيح البخاري - كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل - حديث : ٤٨٩٥

- وعن ابن عباس رضي الله عنهما (أن النبي صلى الله عليه وسلم " صلى يوم العيد ركعتين ، لم يصل قبلها ولا بعدها ، ثم أتى النساء ومعه بلال ، فأمرهن بالصدقة ، فجعلت المرأة تلقي قرطها) (١) .
- شيوع ثقب الأذن في بنات المسلمين من غير نكير ، مما يدل على مشروعيته واستحبابه .
- والولد لا يحتاج إلى ثقب أذنه ، ولذلك فهو مكروه له .

(١) صحيح البخاري - كتاب اللباس، باب القرط للنساء - حديث : ٥٥٥١ .

المبحث الثالث التصرفات الشرعية في مجتمع المولود

يشرع الإسلام أموراً يقوم بها الوالد، أو من يقوم مكانه بها، وهي أمور تتصل بالمولود وبمن يكون حوله من أهله، وأقاربه، كتسميته ليعرف بينهم، وإقامة العقيدة بينهم ليدعوا له ، ... وسأورد ذلك في المطالب التالية : -

المطلب الأول تسمية المولود

يعرف الولد باسمه، وينادى به في الدنيا، وفي الآخرة، ولذلك شرع الإسلام تسمية المولود ليميز عن غيره من إخوته ومن سائر الناس . ويجوز للتسمية أن تكون قبل الولادة، أو بعدها، ... في اليوم الأول، أو السابع، أو بعد ذلك، لما روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : (قال رسول الله ﷺ: " ولد لي الليلة غلام ، فسميته باسم أبي إبراهيم) (١) .

وذهب المالكية، والشافعية، والحنابلة إلى استحباب تسمية المولود في اليوم السابع بعد ذبح العقيدة إن كان الولد ممن يعق عنه ، فإن كان لا يعق عنه لفقر أبيه فليسمه متى شاء (٢) ، والأولى تسميته في اليوم السابع (٣) فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه (أن النبي ﷺ قال: الغلام رهن بعقيقته، يعق عنه يوم سابعه، ويحلق رأسه، ويسمى) (٤) .

(١) صحيح مسلم - كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه - حديث : ٤٣٧٩

(٢) رعاية الطفولة في الشريعة الإسلامية ص ١٩٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٧ .

(٤) المعجم الكبير للطبراني - من اسمه سمرة، ما أسند سمرة بن جندب ، حديث : ٦٦٧٢ .

وهذه الأحاديث تدل على سعة وقت التسمية، فتجوز في اليوم الأول، أو في اليوم السابع ، أو قبل ذلك أو بعده، ... وتدل كذلك على أن العقيدة لا تسقط أبدا فصاحبها مرتهن بها .

ويستحب انتقاء اسم جميل للولد، لأنه ينادى به في الدنيا وفي الآخرة، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فحسنوا أسماءكم) (١)

وأحب الأسماء عند الله تعالى عبد الله، وعبد الرحمن، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله ، وعبد الرحمن) (٢) .

والأسماء الحسنة تضي معناها على أصحابها، وتحقق لصاحبها وصفا طيبا عند ذكره، أو ذكر أمر يتعلق به، وكلما ناداه مناد هتف باسم جميل ، وذكره بما في هذا الاسم من دلالات ، ولذلك لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه جده عبد المطلب محمدا، فقد ورد في خبر ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم (... فلما كان اليوم السابع ذبح عنه ، ودعا له قريشا ، فلما أكلوا قالوا : يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ، ما سميته ؟ قال : سميته محمدا .

قالوا : فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟

(١) صحيح ابن حبان - كتاب الحظر والإباحة ، فصل ذكر الأمر للمرء أن يحسن أسامي أولاده لنداء

الملائكة في القيامة، حديث : ٥٨٩٩

(٢) صحيح مسلم - كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء -

حديث : ٤٠٦٨

قال : أردت أن يحمده الله تعالى في السماء ، وخلقه في الأرض (١).
وعلى الوالدين أن يتفقا على تسمية ولدهما، فإن اختلفا فالتسمية من
حق الوالد ...

وعلى الوالد تجنب الاسم القبيح، لأنه يمس الكرامة، ويؤدي إلى الاستهزاء
والسخرية، ويؤدي مسامع صاحبه، والذين معه، فمن يسمي ولده العاصي
مثلا فإنه وغيره ينادونه يا عاصي، ويصفونه بصفة لا يصح أن يكون عليها
ويستحب تغيير الاسم القبيح إلى اسم حسن، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها
(أن النبي ﷺ كان يغير الاسم القبيح) (٢) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : (أن ابنة لعمر كانت يقال لها عاصية، فسماها
رسول الله ﷺ جميلة) (٣) .

وغير رسول الله ﷺ اسم العاص، وعزير، وعتلة، وشيطان، والحكم،
وغراب، وشهاب، وحباب(٤)، وسمى حربا سلما، وسمى المضطجع المنبعث
ويكره اختيار أسماء تشتق منها كلمات التشاؤم .

ويحرم التسمية بأسماء الله ﷻ تنزيها لمقامه تعالى، وفي الحديث الذي
رواه أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أغبط رجل على الله يوم القيامة،
وأخبثه، وأغبطه عليه، رجل كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله) (٥) .

(١) دلائل النبوة للبيهقي - باب تزوج عبد الله بن عبد المطلب أبي النبي صلى الله، حديث : ٣٠ .

(٢) سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، باب ما جاء في تغيير الأسماء، حديث : ٢٨٣٩ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن - حديث : ٤٠٨٢ .

(٤) تحفة المودود بأحكام المولد ص ١٠٢، ١٠٣ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك - حديث : ٤٠٨٨ .

ويقيسون على هذا التحريم التسمية بقاضي القضاة، وحاكم الحكام،
وسيد الناس، وسيد الكل، وسيد ولد آدم، ... لما في هذه التسمية من معان
لا يتصف بها أحد بعد رسول الله ﷺ .

ويكره التسمية ببسار، ورياح، ونافاع، والأفلاج ، فإنك تسأل عن الشخص
وتقول : أيسار موجود؟ ، فيقال لك ليس موجودا عند غياب الشخص، فيقع
النهي على الحال لا على المسمى، فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: (نهانا
رسول الله ﷺ أن نسمي رقيقنا بأربعة أسماء: أفج، ورياح، ويسار، ونافع) (١)
ويحرم التسمية بالأسماء المعبدة لغير الله تعالى، مثل عبد المطلب،
وعبد الكعبة، وعبد النبي،

وأما قول النبي ﷺ : " أنا ابن عبد المطلب " (٢) فهو خبر عن الواقع
في مقام يستدعيه، وليس إنشاء للتسمية.

ويكره اختيار أسماء التخنيث والغرام ، مثل هيام، وأحلام، وسوسن،
حتى تتميز الأمة الإسلامية بشخصيتها الجادة في أفرادها ومجموعها .
ويكره التسمية بأسماء الشياطين ، مثل " ولهان " فهو شيطان الوضوء،
فعن أبي بن كعب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : (إن للوضوء شيطاناً يقال
له ولهان فاحذروه ، واتقوا وسواس الماء) (٣) ، ... ومثل " خنزب "
شيطان الصلاة ، ومن أسماء الشياطين " حباب " فلا تصح التسمية به .
كما يكره التسمية بأسماء الفراعنة الجبابرة مثل فرعون، وهامان، والوليد،

(١) صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، حديث: ٤٠٧٦

(٢) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب - حديث: ٢٧٣٠

(٣) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب الطهارة، وأما حديث عائشة - حديث: ٥٢٨

والأعور، والأجدع .

ويكره التسمية بأسماء الملائكة مثل جبريل، وميكائيل، وإسرافيل عند الجمهور ، وأجازه بعضهم (١) .

فإن قيل : كيف يكون للاسم أثر في صاحبه ؟ ...

أقول : إن الله تعالى هو مسبب الأسباب ، يلهم الآباء الأسماء لأبنائهم لتناسب حكمة الله في ربط الأسماء بالمسميات، ومن أقواله ﷺ (غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله ، وعصية عصت الله ورسوله) (٢) وهو المقدر للأثر المرتبط بالاسم ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : البلاء موكل بالقول) (٣) ، وعن ابن أبي حبيب رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ أتى بسلام ، فقال : " ما سميت هذا ؟ "

قالوا : السائب .

فقال رسول الله ﷺ : " لا تسموه السائب ، ولكن عبد الله " .

فغلبوا على اسمه السائب ، فلم يمت حتى ذهب عقله) (٤)

ومما يروى في تأثير الأسماء ما روي عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال : (لما أحيط بالحسين بن علي، قال : ما اسم هذه الأرض ؟ قيل : كربلاء .

فقال : صدق النبي ﷺ : " إنها أرض كرب وبلاء) (٥) .

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص ٩٤ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع، حديث : ٣٣٤٢ .

(٣) شعب الإيمان للبيهقي - فصل في فضل السكوت عن كل ما لا يعنيه ، حديث : ٤٧٢٥

(٤) الجامع في الحديث لابن وهب - باب النسب، حديث : ٤٦

(٥) المعجم الكبير للطبراني - باب الحاء ، حديث : ٢٧٤٤

ومن تأمل السنة والواقع يجد معان في الأسماء مرتبطة بها، حتى كأن معانيها مأخوذة منها، وتأمل قوله ﷺ لما جاء سهيل بن عمرو يوم الحديبية ، قال ﷺ : سهل الله أمركم، ... وما سمي رسول الله ﷺ محمداً، وأحمداً إلا لكثرة خصال الحمد فيه، فلواء الحمد بيده، وهو أعظم الخلق حمداً لربه ، وأمتة هم الحمادون .

ومما يذكر في هذا المقام أن حليمة السعدية لما جاءت لعبد المطلب جد النبي ﷺ تسأله رضاع محمد ﷺ .
قال لها : من أنت ؟ ...
قالت : امرأة من بني سعد .
قال لها : ما اسمك ؟ ...
قالت : حليمة .

فقال : بخ بخ ، سعد وحلم ، هاتان خلتان فيهما غناء الدهر (١) .

ولا مانع من التسمية بأسماء الأنبياء، فعن أبي وهب الجشمي رحمته الله قال: قال رسول الله ﷺ: (تسموا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله، وعبد الرحمن، وأصدقها حارث، وهمام، وأقبحها حرب، ومرة) (٢)
وعن جابر بن عبد الله رحمته الله قال : (ولد لرجل منا غلام فسماه محمداً . فقال له قومه : لا ندعك تسمي باسم رسول الله ﷺ . فانطلق بابنه حامله على ظهره فأتى به النبي ﷺ . فقال : يا رسول الله، ولد لي غلام فسميته محمداً فقال لي قومي: لا ندعك

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص ٩٧ .

(٢) سنن أبي داود - كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء - حديث : ٤٣٢٠

تسمي باسم رسول الله ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ : تسموا باسمي ، ولا تكتنوا بكنتي ، فإنما أنا قاسم أقسم بينكم) (١) .

ويرى البعض جواز التكنية بكنية رسول الله ﷺ ، لأن المنع كان خاصا بحياته ﷺ ، خشية الالتباس حين ندائه والرسول ﷺ حي، أما بعد وفاته ﷺ فقد زال الالتباس .

ويستحب تكنية الوالدين بأبي فلان، وأم فلان وإن لم يولد لهما، لما في هذا من التكريم، والارتباط بالناس، وإدخال الوالد في عالم الكبار، وكان ﷺ يكني الأطفال، ويناديهم بها، فعن أنس رضي الله عنه قال : (كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقا ، وكان لي أخ يقال له أبو عمير - قال : أحسبه - فطيما ، وكان إذا جاء ﷺ قال: يا أبا عمير، ما فعل النغير، نغر كان يلعب به) (٢) وغالب التكنية أن تكون باسم أكبر الأبناء أو البنات سنا، أو أعظمهم قدرا، أو أظهرهم علما وعملا .

ويجوز تكنية من لا ولد له، وبغير الأبناء، وقد أذن النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها أن تكنى بـ" أم عبد الله " وهو ابن الزبير بن العوام ابن أختها أسماء رضي الله عنها. وكان أنس رضي الله عنه يكنى قبل أن يولد له بأبي حمزة، وهذا أبو بكر رضي الله عنه كني بأبي بكر ولم يكن له ولد بهذا الاسم ، وكذلك أبو ذر، وليس من ولده ذر، ومثله خالد بن الوليد كان يكنى بأبي سليمان ولم يكن له ولد بهذا الاسم

(١) صحيح مسلم - كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم - حديث : ٤٠٦٩ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الآداب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل - حديث : ٥٨٥٧ .

المطلب الثاني عقبة المولود

شرع الإسلام لكل مولود عقبة ومعناها ذبح الشياه عند المولود في اليوم السابع من ولادته، أو بعد ذلك، فعن سلمان بن عامر الضبي رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: مع الغلام عقبة، فأهريقوا عنه دما، وأميطوا عنه الأذى) (١) .

وهي للذكر شاتان، وللبنات شاة واحدة، لقوله ﷺ: (عن الغلام شاتان مكافئتان، وعن الجارية شاة) (٢)، ولقول عائشة رضي الله عنها (أمرنا رسول الله ﷺ أن نعق عن الغلام شاتين، وعن الجارية شاة) (٣)، ذكرنا كانت الشياه أو إناثا، فعن أم كرز رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ في العقبة قال: (عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة، لا يضركم ذكرانا كن أو إناثا) (٤) ويجوز أن يستبدل البقر والإبل بالغنم، بشرط عدم اشتراك عدد من العقائق في دابة واحدة .

ويجوز للفقير أن يعق عن ولده بدم أقل من الشاة، فقد روى الإمام مالك عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أنه قال سمعت أبي يقول: (تستحب العقبة ولو بعصفور) (٥) .

(١) صحيح البخاري - كتاب العقبة، باب إمطة الأذى عن الصبي في العقبة - حديث: ٥١٥٨

(٢) صحيح ابن حبان - كتاب الأطعمة، باب العقبة، حديث: ٥٣٨٩

(٣) سنن ابن ماجه - كتاب الذبائح، باب العقبة - حديث: ٣١٦٠

(٤) صحيح ابن حبان - كتاب الأطعمة، باب العقبة، حديث: ٥٣٨٨

(٥) موطأ مالك - كتاب العقبة باب العمل في العقبة - حديث: ١٠٧٠

وقد اختلف الفقهاء في حكم العقيقة :

فذهب الإمام مالك وأصحابه، وأهل المدينة، والشافعي، والإمام أحمد، وأبو ثور وغيرهم إلى أن العقيقة سنة مستحبة، لأنها لو كانت واجبة لعرفها الجميع، وسار بها الركبان، واشتهرت، لأنها لو كانت واجبة لصارت من الأعمال التكليفية التي يعيشها كل مسلم، ويؤديها لمن يولد له .

وقد علق النبي ﷺ القيام بالعقيقة بحب فاعلها، مما يدل على أن العقيقة سنة مستحبة، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، رضي الله عنه قال : (سئل رسول الله ﷺ عن العقيقة فقال : لا أحب العقوق، من ولد له منكم مولود فأحب أن ينسك عنه فليفعل، عن الغلام شاتان، وعن الجارية شاة) (١) .

وذهب الحسن البصري، والليث بن سعد إلى أن العقيقة واجبة لقوله ﷺ : (إن الناس يعرضون على العقيقة كما يعرضون على الصلوات الخمس) (٢) ، ولقوله ﷺ : (كل غلام مرتين بعقيقته ، تذبج عنه يوم السابع ، ويحلق رأسه ، ويسمى) (٣) .

وأنكر الأحناف مشروعية العقيقة أصلا لما روي (أن رسول الله ﷺ سئل عن العقيقة فقال : " لا أحب العقوق) (٤).

والأرجح هو الرأي الأول للأحاديث المثبتة للمشروعية، فهي أحاديث صحيحة ثابتة ، وعدم انتشار خبر العقيقة بين المسلمين يدل على عدم

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب الذبائح، حدیث : ٧٦٦٠

(٢) مسند الروياني - ابن بريدة عن بريدة، حدیث : ٤٦ .

(٣) سنن ابن ماجه - کتاب الذبائح، باب العقيقة - حدیث : ٣١٦٢

(٤) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب الذبائح، حدیث : ٧٦٦٠

وجوبها، لأنها لو كانت واجبة لأداها جميع الصحابة والتابعين، ولشاع خبرها، فدل عدم انتشار خبرها على ضعف رأي القائلين بالوجوب .
وأما قوله ﷺ : " لا أحب العقوق " أي لا أحب أن تسمى العقيقة عقوقا، لأن العقوق يعني إهمال حق من له حق، ومعصية الله تعالى .
ويستحب في العقيقة أن تكون في اليوم السابع مع جوازها في الأوقات الأخرى .

ورأي الجمهور أن عقيقة الذكر شاتان، والأنثى شاة واحدة، مستدلين بما روي عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ﷺ ، (أن النبي ﷺ عق عن الحسن والحسين عن كل واحد منهما كبشين اثنين مثلين متكافئين) (١)

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما ، (أن رسول الله ﷺ عق عن الحسن ، والحسين كبشا كبشا) (٢) أي إنه ﷺ كان يذبح عن كل منهما كبشين، ويفرق بين الكبش الأول والثاني، ولهذا الحديث يرى الإمام مالك أن الذكر والأنثى في العقيقة متساويان مستدلا بهذا الحديث، وبما جاء عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده ﷺ (أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ذبحت عن حسن وحسين حين ولدتهما شاة) (٣) ، إلا أن رأي الإمام مالك مردود بالشاة التي قال بها هي الشاة الأولى أما الشاة الثانية فلم يلتفت إليها رضي الله عنه .

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب الذبائح، حدیث : ٧٦٥٧

(٢) سنن أبي داود - کتاب الضحایا، باب فی العقیقة - حدیث : ٢٤٧٣

(٣) السنن الكبرى للبيهقي، کتاب الضحایا، باب ما جاء فی التصدق بزنة شعره فضة، حدیث :

ويكره كسر عظم العقيقة، وإنما يقطع اللحم من المفاصل ليشبع الفقير بتقديم عضو كامل له، ويستحب تجهيز اللحم، وطبخه، وإطعام الفقراء منه بنية زيادة شكر الله تعالى، وإطعام الطعام .

وتشريع العقيقة من التشريعات المفيدة للمجتمع ، لأنها تحقق الأخوة، والتعاون، وتنتشر العدالة الاجتماعية، وتوضح أن العطاء من الله تعالى، والشكر له وحده .

والشريعة الإسلامية تبيح كل أمر يشيع السرور والابتهاج بقدم المولود، وتعد العقيقة عاملاً مهماً في تحقيق هذه الغاية.

فدفع المال ، وذبح الشاة، وتوزيعها للناس إعلان واضح عن السرور والفرح، وتعبير رمزي عن شكر الله تعالى .

وذكر الله ﷻ، والذبح تركية للفطرة، وفداء للمولود، وحرز من الضرر المادي والمعنوي.

وفي العقيقة حماية الطفل من العقوق لله تعالى، ولرسوله ﷺ، ولوالديه، وإغاظة لإبليس وذريته .

وهي لوالديه أمل في أن يصرف الله تعالى عن الولد سوء، ويقدر له ما قدره لإسماعيل عليه السلام من بر بأبيه، وطاعة لله تعالى، فلقد قال له أبوه إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَبْنِيْٓ اِيَّيَّ اَرَى فِي الْمَنَامِ اَنْيَّ اَذْبَحُكَ ﴾ (١) ، فأطاعه ، واستجاب لما رأى، و﴿ قَالَ يَتَّابِتْ اَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيْ اِنْ سَاَءَ اَللّٰهُ مِنَ الصّٰبِرِيْنَ ﴾ (٢) وعسى أن تكون العقيقة لنفي الحسد والكراهية، وإشعاراً بما يحقّقه الولد

(١) سورة الصافات الآية : ١٠٢ .

(٢) سورة الصافات الآية : ١٠٢ .

في نفسه وحياته مع الناس من عون ومساعدة، وبذل ، وعطاء،
إن الإسلام دين واقعي يوجه إلى الترابط الإنساني، ويوحد الجماعة في إطار شرع الله تعالى، ولذلك يشرع في كل مناسبة ما يجمع الناس حول المناسبات الجميلة، فإذا ما رزق مسلم بولد يكلف بدعوة الناس، ويذبح لهم، ويكرم غنيهم ، ويطعم فقيرهم ، وبهذا يكثر الخير ، وينتشر الود ، ويفرح المسلم بهبة الله تعالى لأخيه، ويدعو له .

وقد صار هذا الذبح عند الولادة سنة في دين الإسلام، وعند المسلمين أجمعين .

ويستحب للعقيقة أن تكون في اليوم السابع ، أو مضاعفاته إذ لم تتيسر في اليوم السابع، وحكمة ذلك- والله أعلم - أن الطفل حين يولد يكون أمره مترددا بين السلامة والعطب، ولا يدري أهو من أهل الحياة أم لا ؟ ...، إلى أن تأتي عليه مدة يستدل فيها بما يشاهد من أحواله على سلامة بنيته، وصحة خلقته، وجعل مقدار تلك المدة أيام الأسبوع المكون من سبعة أيام تدور إلى أولها بعد انتهائها (١) .

لقد خلق الله تعالى الكون في ستة أيام ، وجعل يوم إكمال الخلق وهو يوم الجمعة عيداً يجتمع فيه المؤمنون للعبادة، والثناء، والشكر، وتذكر ما كان في هذا اليوم من مقادير الله تعالى ، فقد خلق الله فيه آدم عليه السلام ، وفيه اسكنه الجنة، وفيه أخرجه منها ، وفيه تقوم الساعة .

والحكمة في استحباب العقيقة في اليوم السابع بيان أن الطفل انتقل من مرتبة إلى مرتبة ، فقد أجرى الله تعالى حكمته بتغيير حال الإنسان في كل

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص ٧٥ .

سبعة أيام ، حيث ينتقل من طور إلى طور جديد، ولذلك جعل الله تعالى للناس كل سبعة أيام عيداً هو يوم الجمعة، يرغبون فيه إليه، ويذكرونه ويجددون العهد معه والرجوع إليه (١) .

وقد أجمع الفقهاء على استحباب حلق الرأس، وإقامة العقيقة في اليوم السابع ، مع جوازها في غير هذا اليوم .

......***

وهكذا يهتم الإسلام بالولد، فيؤسس له قبل وجوده موطن الحب والحنان، ويصونه بالرعاية والتغذية وهو في بطن أمه، ويمكنه من الإقامة الهادئة خلال معاملة الأم بالمعروف، وتجنب إيذائها، وإغضابها، ومعاملتها بالحسنى ، والإكثار من ذكر الله تعالى ، والتوجه إليه بالدعاء، والطلب، وتلقيين الولد شعائر الإسلام من لحظة وجوده في الدنيا بعد مولده، وذلك بالآذان والإقامة في أذنيه، وتحنيكه، وتنظيفه بحلق رأسه ، والتصدق بثمن شعر رأسه فضة، وتسميته، وختانه، وإقامة عقيقته، وثقب أذن البنت .

إن تشريع هذه الأعمال في الإسلام يؤكد حسن الاهتمام باستقبال المولود، وإحاطته بجو إسلامي خالص، يؤثر في سمعه، وفمه، وأنفه، ورأسه، وجسده ، ولهذه الأعمال أثرها المباشر الآني في الوالدين والولد، ولها أثرها الآجل في الولد ومن حوله من الناس .

ولا يقف الاهتمام عند الوليد وحده ، وإنما يمتد الاهتمام بالبيئة المادية التي تحيط بالوليد، فأبواه وأهله يتفاعلون معه، وهم يذكرون الله تعالى،

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص ٧٦ ، ٧٧ .

ويتقبلون التهاني، ويطعمون الطعام، وينشرون الحب، والتعاون، والحسن، والجمال حين تجمعهم حول الوليد، وانطلاقاً إلى أفراد المجتمع من حوله .
وأحكام استقبال المولود لها أهميتها للطفل، فهي تكسب المولود الصحة، والطهارة ، والقوة حتى إذا فتح عينيه ونظر لمن حوله، وأخذ يدرك الحقائق وجد نفسه مع أبوين مسلمين أحسنا استقباله، وقدماه للمجتمع إنساناً مسلماً من اللحظة الأولى لحياته، وقد حافظا له على الفطرة، وأخذاه إلى الصراط المستقيم، ووضعاه في المنهج السليم الذي يريده الله تعالى، يقول النبي ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء) (١) .

ويستمر الإسلام في صناعة الولد في كافة مراحل عمره التي تبدأ بعد هذا الاستقبال الحسن، وفيها يتضاعف الجهد، وتتعدد أوجه التكوين، لتشمل الجسد، والعقل، والروح .

إن الأعمال المشروعة في استقبال المولود تشكل مهرجاناً إسلامياً في استقبال الوليد، فالآذان والإقامة في أذنيه عقب ولادته، وحمله إلى رجل صالح ليحنكه بتمرات لينة، وإظهار اسمه للناس، وإقامة العقيدة له، وحلق شعر رأسه، وثقب أذن البنت

، كل هذه الأعمال ترجو بعدها للوليد خيراً، وتأمل فيمن حولها من الحاضرين خيراً، لأنها تأخذهم إلى الله تعالى ، وتذكرهم بفضله، وتوضح المنهج الحق، وهو أن يعيشوا لله تعالى ، ويعملوا له ، ويرجوا النعيم الدائم في الدنيا وفي الآخرة .

(١) صحيح البخاري - كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين - حديث : ١٣٣٠ .

الباب الرابع

صناعة الطفولة

في الإسلام

صناعة الطفولة في الإسلام

بعد تمام استقبال الولد، وقيام الوالدين والأولياء بحسن استقباله ، وتحديد هويته الدينية، والنفسية، والحياتية، والأسرية ، يبدأ التطبيق العملي في صناعة طفولة مستقرة تؤدي إلى تخريج أناس صالحين.

إن الطفولة مرحلة عمرية تبدأ بعد الولادة مباشرة ، وتستمر حتى مرحلة الرشد والرجولة.

ومرحلة الطفولة هي مرحلة التنشئة والتكوين، وفيها يأخذ الولد معارفه ، وسلوكه من المحيطين به، فيعيش مع أبويه في مراحل الطفولة المبكرة، يمدانه بالغذاء الجيد، والرعاية الحسنة، والعادات الطيبة، وتبدأ مرحلة الطفولة بفترات عدم الوعي أثناء الرضاعة والحضانة، **ثم ينتقل الطفل إلى مرحلة** الطفل الواعي، ويختلط بأقرانه في الملعب، والمسجد، والمدرسة، ومنهم ومن والديه يأخذ الخلق والسلوك، وتتضح أمامه العادات والتقاليد إلى أن تنتهي مرحلة الطفولة جميعها، وينتقل بعدها إلى مرحلة النضج والشباب،

وتعود أهمية مرحلة الطفولة إلى أنها تمد الطفل بأساسيات شخصيته بصورة تلقائية، وتأخذه إلى المنهج المقصود من هذه الأساسيات، إلى أن ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة الشباب، والمراهقة بخصائصها، وصفاتها .

إن الطفل بعد ولادته لا يعلم شيئاً، ولا يطلب أمراً، ويلهمه الله الإحساس بالجوع، ويسعى بفمه للبحث عن الشبع ، ويتعلم مص ثدي أمه ليشرب اللبن الذي يتحفز للخروج، وتبدأ مرحلة الرضاعة إلى نهايتها، لتبدأ مرحلة الحضانة التي تتميز بسعة إدراك الطفل، وحاجته إلى الرعاية العقلية والنفسية، والخلقية، ولذلك شرع الله تعالى الولاية على الطفل في حياته بعد

مولده إلى أن يصير مكلفا راشدا، وبهذا تتكامل شخصيته، ويصير رجلا مسئولا عن نفسه .

وفي هذا الباب سوف نوضح منهج الإسلام في صناعة الولد، ورعاية طفولته، وتوجيهه لمستقبله، وسأتناول كافة مراحل الطفولة مرحلة، مرحلة، بدءا من الرضاعة، وسيرا مع الحضانه، وتوضيحا لأهمية الولاية حتى تبدأ مرحلة الشباب والمراهقة، وفيها يصير شابا فتيا ، مكلفا، راشدا.

وتظهر خلال هذه المعايشة نظام الإسلام في صناعة الطفولة، وذلك

في الفصول التالية :-

الفصل الأول

رضاعة الطفل

رضاعة الطفل

يخرج الطفل من بطن أمه بعد تمام حملها، ليبدأ عمره بمرحلة الرضاعة التي يكون غذاؤه فيها باللبن الذي يتناوله من أمه، أو بلبن من يقوم مقامها إن تعذر على أمه القيام به، أو بأي وسيلة أخرى .

ومرحلة الرضاعة مرحلة أساسية، لأن الطفل في حاجة ماسة إليها، فهي الطريق الذي قدره الله تعالى له للحصول على طعامه .

ومن رحمة الله تعالى بالولد تهيئة غذائه باللبن ، فلقد كان في بطن أمه يتغذى عن طريق الحبل السري الذي يأتيه بالغذاء من جسد أمه ، ...

وبعد الميلاد يلهم الله تعالى الوليد أن يحرك فمه لإلتقام ثدي الأم ، ومص اللبن منه، وفي نفس الوقت تشعر الأم بحنين ثديها لإخراج اللبن الذي تجمع في ثديها طوال فترة الحمل، وتشعر بالألم من بقاء اللبن مخزوناً فيه، وبذلك تتلاقى حاجة الوليد مع حاجة الثدي لتتم الرضاعة بصورة طبيعية، تهيأ لها الوليد، وتهيأت لها الأم من غير بذل جهد منهما .

ويستمر الوليد مدة الإرضاع في رعاية أحكام شريعة الله تعالى التي حددت له ضرورة الإرضاع، والعناية، والرعاية على الوجه المناسب لينمو جسده، وتتضح مدارك عقله، وتتحرك مشاعره للجمال والحنان .

وفي هذا الفصل سأتناول ما يتصل بمرحلة الإرضاع في شرع الله تعالى من أحكام، وذلك في المباحث التالية : -

المبحث الأول مفهوم الطفولة ومراحلها

تختلف الأمم والشعوب في تحديد عمر الطفولة، وتتعد الاختلافات بين علماء النفس والقانون وبخاصة بعد ظهور نظريات التطور، والارتقاء، والتربية، إلا أنهم مجمعون على أن الطفولة تبدأ من الميلاد، ويختلفون في نهايتها، فبعضهم يربط نهاية الطفولة بالبلوغ، وبعضهم يربطه بالعمر، وبعضهم يربطه بالرشد والإدراك .

وعلماء الإسلام أقل اختلافاً من غيرهم ، وأدق منهم في تقسيم مراحل الطفولة، فهم يرون أن الطفل يبدأ بعد مولده مباشرة مرحلة الرضاعة التي تمتد من لحظة مولده إلى أن يبلغ سن عامين لمن أراد أن يتم الرضاعة .

ثم تليها مرحلة الحضانة ، ويسمونها مرحلة الصبي غير المميز، وتمتد إلى أن يبلغ الطفل أربع سنوات أو سبع سنوات، وبعدها تكون مرحلة الصبي المميز ، وهي التي تمتد إلى مرحلة البلوغ وتختلف من طفل إلى طفل آخر، وتختلف فيه البنات عن الولد ، وفي نهايتها تبدأ مرحلة الشباب والمراهقة التي تمتد إلى مرحلة الرجولة، والرشد، وتتداخل معها .

وتعد سن الخامسة عشرة بداية البلوغ عند جمهور العلماء والفقهاء لحديث ابن عمر رضي الله عنهما فقد عرض على النبي صلى الله عليه وسلم في الرابعة عشرة من عمره للجهاد فلم يقبله صلى الله عليه وسلم، ثم عرض عليه في سن الخامسة عشرة فقبله صلى الله عليه وسلم. وعند سن الخامسة عشرة تظهر علامات البلوغ عند الولد ، والبنات ، وبذلك تنتهي مرحلة الطفولة لتبدأ مرحلة الشباب والمراهقة .

إن الشريعة الإسلامية تراعي مصلحة الصغير من كافة نواحيها، وتعمل على صيانتها، والمحافظة على جميع حقوقه ، ولذلك فهي تقرر له ولياً منذ

ولادته، يشرف إشرافا عاما على مسار مصالح الطفل أثناء إرضاعه، وحضانته، ويحافظ على ماله إن كان له مال، وينفق عليه منه، ويخرج زكاته، وينميّه، وتستمر الولاية إلى أن يبلغ الطفل مرحلة الرشد، وبصير قادرا على إدارة شئون نفسه .

وهنا ملاحظة لا بد من ذكرها، وهي اختلاف العلماء والمربين اختلافا كبيرا في تحديد مراحل الطفولة ، لوجود فروق فردية بين الأفراد بسبب اختلاف الأجناس، والبيئات، والثقافات، والتوارث، وفوق كل هذا إرادة الله وقدرته .

ومن مشاهدة الواقع نرى اختلاف معدل النمو الجسدي، والإدراكي، والعقلي من طفل لآخر، وعلى المربين اكتشاف هذه الفروق، والتعامل معها بما يناسبها، فقد يلاحظ الآباء والمربون أن الطفل في سن معينة قد تجاوز مرحلته، وحينئذ تكون معاملته وفق نضجه الذي وصل إليه، وقد يلاحظون قصور الطفل عن إدراك المرحلة العمرية التي بلغها ، وعليهم التعامل معه بما يناسب إدراكاته العقلية ، ونموه الجسدي .

والطفل في كافة مراحل قبل البلوغ يتأثر بكل عناصر البيئة من حوله ، فيتحرك مثل حركتهم، ويتعود تقاليدهم وعاداتهم، وينقل المحسوسات كما يراها، ويأخذ المفاهيم، والاعتقاد، والخلق، والسلوك بقدر ما يدرك منها، وبقدر ما يناسبه في الأقوال والأعمال، ويتطور في تلقيه مع تطور بدنه، وعواطفه، وحاجاته في البيئة التي يكون فيها.

وتحتوي الطفولة عددا من المراحل، وسأبحث بإذن الله تعالى أهم هذه المراحل ، مع تحديد دور الآباء والمربين في كل مرحلة، حتى يخرج الولد من طفولته شابا فتيا ، صالحا ، ينفع نفسه ، وأمتة .

المبحث الثاني إرضاع الطفل

يخرج الطفل من بطن أمه لا يعرف شيئاً ، ولا يدرك أمراً ، ويحتاج إلى غذاء يشبعه ، ورعاية تحفظه ، وحنان يأويه ، ومحضن ينميه ويصونه بعد مولده مباشرة حيث تبدأ مرحلة الرضاعة .

ومن المهم مراعاة الأبوين له في هذه السن المبكرة التي قد تمتد لعامين بعد مولده .

وقد شرع الإسلام حقوق الطفل بعد مولده، في إطار تحديد مسئوليات الأب والأم مع الوليد بدقة ووضوح .

ولابد من العناية بالطفل في هذه المرحلة ، ومتابعة نموه خلالها، فهو في الأسابيع الأولى من عمره لا يدرك شيئاً، ولا يفرق بين النور والظلام.

ويبدأ في التفريق بين النور والظلام في منتصف الشهر الأول .

ويفرق بين الألوان في الشهر الثاني .

وبعد الشهر الثالث يبدأ في تمييز الأصوات والأشخاص، ويضبط حركته في نومه .

وأخيراً يتمكن من مسك الأشياء بأصابعه في الشهر الرابع .

ومن الواجب إمداد الطفل في مرحلة الرضاعة بغذاء متوازن ، وإحاطته بجو هادئ ، وحنان شامل ، وخلق سوي، لأنه يأخذ مع الرضاعة الدين، والخلق، والسلوك .

إن مرحلة الرضاعة لا تقف على الرضاعة فقط، فهي تشمل تربية الوليد على العادات الحسنة ، والكلمات الطيبة، والخلق السوي بما يناسب إدراكه، ونموه .

وسميت المرحلة بمرحلة الرضاعة لأن الرضاعة هي العمل الرئيسي لهذه المرحلة .

إن الوليد في مرحلة الرضاعة يدرك ما يدور حوله، ويتعلم النطق، ويستجيب للنداء، ويفرح بما يسره، ويبكي إذا أصابه مكروه، ومن المهم الاستفادة بمدركات الوليد في تربيته، وتعليمه بمنهج يناسبه .

إن الولد في هذه المرحلة يقلد أبويه، ويحاول أن يعمل كما يعملون ، ولهذا حسن أن يراهما مثنى وفرادى في صلاة، وقراءة للقرآن الكريم ، وحسن أن يبدأ في تعليمه بعض الحركات الهادفة مثل السجود، ورفع اليد نحو السماء بالدعاء، ونطق كلمات حسنة مثل الله، ومحمد، والرسول، والإسلام .

والرضاعة هي الدعامة الرئيسية لحياة الطفل، وأساس نموه، وتطوره في حياته، فمن شب على شيء شاب عليه، ومن يتعود أمرا في صغره يعيش عليه في شبابه وشيخوخته .

وقد اهتم الإسلام بهذه الدعامة اهتماما كبيرا لما لها من أثر في حياة الأطفال ... وسوف أتناول مرحلة رضاعة الطفل في المطالب التالية : -

المطلب الأول مفهوم الرضاعة

الرضاعة بفتح الراء وكسرهما اسم لشرب الطفل اللبن ، ومصه من ثدي أمه، وهو مشتق من الفعل فَعَلَ (بكسر العين) في الماضي، وفتحها في المضارع من باب (عَلم يَعْلَم) ومن العرب من يفتح عين الماضي ، وكسرهما في المضارع من باب (ضرب يضرب) ويقال : امرأة مرضع إذا اتخذت ولدا ترضعه سواء كان الولد ابنها أو غريبا عنها ، وتسمى مرضعة، وإذا كان الولد الذي ترضعه غريبا عنها، تسمى " ظئرا " .

ويعرف بعض الفقهاء الرضاعة بأنها وصول لبن امرأة إلى جوف طفل في وقت معين، وبكميات محددة (١) .

كما يعرفها آخرون بأنها مص الرضيع اللبن من ثدي امرأة آدمية في مدة معينة هي مدة الرضاع (٢) .

والتعريف الأول يركز على وصول لبن المرأة سواء كانت أما، أو غير أم إلى جوف الطفل في مدة الرضاعة، بأي طريقة ممكنة، عن طريق مص الثدي بالفم، أو بالشرب من إناء ، أو بصب اللبن في الأنف، أو بغير ذلك. والتعريف الثاني يوضح أن مص الوليد اللبن يتم بفمه من ثدي المرأة، ويجعل ذلك شرطا في مفهوم الرضاعة ...

والتعريفان يوضحان أن الرضاعة تكون في المدة المشروعة المقدره بعامين بعد الولادة، ... وليس منها رضاعة الرجل الكبير لأنه لم يعد طفلا

(١) رعاية الطفولة في الشريعة الإسلامية ص ٢٢٤ .

(٢) المرجع السابق .

رضيعا، وليس منها أيضا شرب لبن البهيمة لأنها ليست امرأة، فلو اجتمع طفلان على شرب لبن بهيمة واحدة فلا يعدان أخوين في الرضاعة .

والمراد بالمص وصول اللبن إلى الجوف عن طريق الفم الذي يأخذه من الثدي مباشرة، وليس منه إيصال اللبن للجوف بواسطة الحقن مثلا، والمص مجاز لتسميته المسبب باسم السبب .

والحكم الشرعي يقيد وصول لبن المرأة المرضع إلى جوف الولد في مدة الرضاعة بأي وسيلة ممكنة، بمقدار معين .

ويجمع الفقهاء على وجوب أن ترضع الأم ولدها ديانة إن كانت في عصمة أب المولود لقوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْتَزِعَ الرِّضَاعَةَ ﴾ (١)، بحيث إذا امتنعت الأم عن إرضاع ولدها بلا عذر فهي آثمة، ومسئولة أمام الله تعالى، وإن كان لها عذر فلا إثم عليها لقوله تعالى: ﴿ لَا نُضَآءَ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ (٢)، وعموم قوله ﷺ: (لا ضرر ولا ضرار) (٣)

أما في حالة انفصال الأم عن والد الطفل فإن الإرضاع لا يكون واجبا عليها إلا في حالة الضرورة ، كأن يمتنع الطفل عن التقام أي ثدي غير ثديها، ولا يشرب لبنا غير لبنها، أو كان الأب فقيرا لا يستطيع القيام بنفقات إرضاع الطفل .

ومدة الرضاعة حولان كاملان لمن أراد أن يتمها، ويجوز قصر مدة الرضاعة إذا استغنى الوليد عنها .

(١) سورة البقرة الآية : ٢٣٣ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٣٣ .

(٣) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب البیوع، وأما حدیث معمر بن راشد - حدیث : ٢٢٨٦

المطلب الثاني إرضاع الأم الولد

تحمل الأم ولدها في بطنها، وتتحمل المشاق والتعب في حمله وعند ولادته، يقول الله تعالى: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ (١)، ومع تطور الحمل يسوق الله تعالى لبنا في ثديها، تحن لإخراجه بعد الولادة مباشرة حتى لا تضار بإبقائه في صدرها .

ويكون اللبن في الأيام الثلاثة الأولى بعد الولادة سائلا أصفر ، يعرف بـ " اللبا" (بلا همزة، وبكسر اللام المشددة بعد ال الشمسية ومد الباء بالألف)، ويسميه الأطباء " الكولوسترم" لأنه أول ما ينزل من لبن الأم بعد الولادة، وهو الغذاء الوحيد المفيد للطفل، وقد قدر الله تعالى فيه أن يكون مانعا صحيا يحمي الوليد من الجراثيم والطفيليات ، وعدد من الأمراض مثل الحصبة ، والسعال الديكي، والإسهال، والتيفود، وغيرها .

ويستمر اللبا في ثدي الأم ثلاثة أيام ، وبعدها يبدأ إدرار اللبن العادي في الثدي .

وقد أودع الله تعالى في لبن الأم بصفة عامة كافة المكونات الصالحة للطفل، ففيه من الدهون، والسكريات، والفيتامينات ، وغير ذلك مما يناسب الوليد، ويستحب مسارعة الأم في إرضاع المولود، والإكثار منه قدرا وزمنا، لأنه كلما كثر الإرضاع كثر اللبن، وزاد إفرازه في الثدي .

ومما أثبتته الطب الحديث أن لبن الأم غذاء طبيعي ملائم للطفل ، يجمع كل العناصر الغذائية التي يحتاج إليها الطفل من غير أن تمسه يد ، فقد

(١) سورة الأحقاف الآية : ١٥ .

تكفل المولى العظيم سبحانه وتعالى فأُنبت في صدر الأم عرقين رقيقين يفرزان لبنا خالصا من بين فرث ودم ، على درجة حرارة مناسبة للطفل صيفا وشتاء، وملائما لتطور الطفل خلال نموه في مرحلة الرضاعة، وبروز عضلاته، وظهور حواسه، وإدراكات عقله، وميول عواطفه، وتوجهاته النفسية.

ومن عجب رحمة الله تعالى أن لبن الأم يكثر عقب الولادة مباشرة ، وتحن الأم لإخراجه، وتضار به إذا لم تخرجه، كما أن عناصر اللبن تتغير بين الفينة والفينة، ليتناسب مع تطور الطفل في مدة الرضاعة، حيث يحتاج الطفل إلى عناصر جديدة في الغذاء كلما تقدم به السن ، وكلما تطور جسده، ونمت عضلاته .

إن حاجة الوليد تبدأ بالغذاء، حيث يلهمه الله تعالى التقام الثدي، ومص اللبن، ومع نمو مداركه يبدأ في اكتساب المعارف البسيطة، ويدرك ما ينفعه، وما يضره ، ومن يحمله ، ومن يلاعبه، ويبدأ في التقليد والمحاكاة، واكتساب الملامح الأولى لشخصيته .

إن الأم ترضع ولدها اللبن وهي تضمه إلى صدرها، وتضيف إلى اللبن الحب والحنان، والشفقة، وتضمه إلى صدرها فتثير فيه إحساس التوحد، والإخلاص فينشأ مطيعا لأمه، مرتبطا بها، لا يرغب في الابتعاد عنها، ولا يتم فطامه إلا وهو كاره لبعده عن مسكنه الذي تعلق به ، وصار الأمل الذي يعيش فيه .

وقد أوصى الفقهاء والأطباء الأمهات بالحرص على إرضاع أولادهن ، فقد حباها الله بالولد ، وأودع في صدرها غذاءه، وأراحها من البحث عن لبن صناعي لعبت به الأيادي، وقد يكون ملوثا،

ويجب على الأم أن تشكر الله تعالى على نعمه وفضله ، كما يجب عليها أن لا تحرم طفلها من الخير الذي ساقه الله إليه، وترضع ولدها رضاعة طبيعية لما في لبنها من فائدة لولدها ، فهو أحسن غذاء لنمو الطفل، وبخاصة في الشهور الأولى ، وهو معقم بعيد عن التلوث ، يصل من حلمة ثدي الأم إلى فم الطفل مباشرة ، كما أن للرضاعة الطبيعية تأثيرا نفسيا عند الطفل ، وعند أمه لأن الالتصاق بالصدر يبعث الحنان من صدر المرأة حين تدر اللبن ويصل للطفل وهو يمص الثدي.

إن الله سبحانه وتعالى فطر الأمهات على حب الولد ، والتلذذ بسعادته، وراحته ، والفرح بصحته ونموه ، وأيسر السبل لتحقيق ذلك هو الرضاعة الطبيعية .

وقد أوصى الأطباء الأمهات بضم الأطفال إلى صدورهن حين الإرضاع ، ليأخذ الأطفال من أمهاتهم جرعة اللبن، ودفء الصدر، وحرارة الحب والعاطفة .

يقول الأستاذ/ سليمان بن ناصر الشهري: أكد أولا على أهمية الرضاعة الطبيعية خلال الشهور الستة الأولى من عمر الطفل، وأوجه نداء للمرأة بأن عليها أن تحضر نفسها وهي حامل لهذه المهمة المقبلة، وتهتم بصحتها وتغذيتها خلال فترة الحمل، وبعد الولادة ، وتتبع برنامجا غذائيا يفي بمتطلباتها، واحتياجاتها وطفلها، وعلى المرأة ألا تتبع الآراء والنظريات التي تبعتها أو تمنعها عن إرضاع طفلها طبيعيا، فالرضاعة الطبيعية خير لها ولوليدها ، وفيها فوائد جمة، ...

نذكر منها أن الرضاعة الطبيعية تزيد اتصال الطفل بأمه، وبالتالي تشعر الأم أكثر بالأمومة، والحنان، والراحة النفسية .

كما أن الطفل الذي يرضع من أمه يكون مطمئناً، ومنتزناً عاطفياً، لشعوره بحنان أمه ، وبالأمان، والدفء الروحي .

بالإضافة إلى أن عملية مص الثدي تساعد خلال الأسابيع الأولى من الولادة على عودة الرحم إلى وضعه الطبيعي، وضموره بسرعة نتيجة فقد السوائل والسعرات الحرارية عن طريق الرضاعة، ويعودة جسم المرأة إلى رشاقته قبل الحمل.

وقد ثبت أن الأمهات المرضعات أقل إصابة بسرطان الثدي، كما أن أجسامهن تعود بسرعة إلى حالتها الأولى قبل الحمل والولادة .

ثم أن الاعتماد على الحليب الطبيعي أكثر راحة للأنثى، وأقوى أماناً للطفل، فهو معقم جاهز، ولا داعي للتعيب بمراحل تحضير الحليب، وغليه، وتعقيمه، ولا داعي لغسيل الزجاجات وتعقيمها .

وهو اقتصادي لأنه يعتبر عديم التكلفة، وأوفر على الأسرة .

وهو أسهل هضماً للطفل ، وأكثر توافقاً مع جهازه الهضمي.

وهو معقم وخال من الجراثيم ، وأكثر أماناً ، واحتواءً على عناصر مناعية خاصة تقي الطفل من الإصابة بالأمراض المعدية خلال الأشهر الستة الأولى من عمره بإذن الله تعالى .

كما أنه يجنب الطفل من الإصابة بحالات الحساسية المختلفة التي

تسببها أنواع الحليب الصناعي في بعض الأحيان .

إن حرارة حليب الأم معتدلة تلائم أعضاء الطفل، وتتناسب مع كل عضو في جسده، ولا حاجة لتسخينه، أو تبريده كما هو الحال مع الحليب الصناعي(١)

(١) وكالة رويتر للأخبار ٩ / ٢ / ٢٠٠١ م، نقلاً من موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام للأستاذ الدكتور عدنان الوزان ج ٥

وقد أثبت الواقع أن الولد الذي ترضعه أمه من ثديها يكون أكثر رقة،
وهدوءاً من الولد الذي يرضع رضاعة صناعية .

وهذا أمر بدهي، لأن مصدر اللبن الصناعي غير معلوم ، وهو على
الجملة لبن حيوان - غالباً لا نعرف ماهيته- تمت صناعته على نحو
خاص، ولا يصح أبداً مساواته بلبن أم تكوّن مع تكوّن الجنين في بطن
أمه ، وتم تكونه عند الولادة بأمر صانع عليم حكيم ليخرج من الثدي عند
الولادة ليلتقي بمن صنع له ، وقد تلد الأم عدداً من التوائم ، ومعهم
يكثر اللبن في الثدي ليكفيهم مهما كان عددهم ﴿ صُغَّ اللَّهُ الَّذِي آتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ
إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وبهذا ندرك أن الوليد في فترة الرضاعة ينمو بدنياً، وحركياً، وذهنياً، وتبدأ
ملامحه الرئيسية في الظهور .

فهو ببذنه يحبو ويمشي .

وبعقله يختار لعبه ، ويقبل على من يداعبه، ويخاف ممن يصرخ في

وجهه .

وبروحه يحب ويكره، ويشعر بالجوع، ويسعد بلقاء الأطفال، ويحب

الخروج من البيت .

ولهذا ننادي الآباء برعاية الولد في فترة الرضاعة، ومساعدته في نمو

مداركه، وإمداده بالخلق الطيب، والسلوك الحسن من خلال ألعابه، وكلماته،

ومداركه .

(١) سورة النمل الآية : ٨٨ .

المطلب الثالث حكم إرضاع الولد

أمرت الشريعة الإسلامية الأم بإرضاع ولدها لما في لبن الأم من فائدة للأم، وللولد، لأن الله سبحانه وتعالى بحكمته ورحمته يهب الأم الولد، ويضع غذاءه في صدرها، ويضع حبه في قلبها، ويوجه حنانها ورقتها إليه عاطفياً ووجدانياً.

وأمر الله ﷻ برعاية الولد بعد مولده، فقال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْعَمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْمَلُوا أَنْ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴿١﴾

وقال ﷻ: ﴿أَسْكُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكُنْتُمْ مِنْ وُجُوهِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَعْفِهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلْنَ فَلَا تُضَارُّوهُنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتَضِعْنَ لِهِنَّ وَأْتِمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ فَتَسْتَرْضِعُوا لَهُنَّ فَسْتَرْضِعُوا لَهُنَّ أُخْرَى ﴿٦﴾ ﴿٢﴾، ويتأمل الآيتين نجد أن الله ﷻ أمر الوالدات بإرضاع أولادهن، على أن ينفق الأب على ابنه وزوجته بما يليق بهما، ويعاملهما بالخلق السوي، وبالمعروف الشرعي الخالي من الضرر والأذى، وعلى الوالدين أن يتشاورا في حياة الولد إن حدث شقاق بينهما، ومن حق الأم أن تأخذ أجره الرضاعة من الأب إن حدث بينهما فراق وفصال .

(١) سورة البقرة الآية : ٢٣٣ .

(٢) سورة الطلاق الآية : ٦ .

وقد تناول الفقهاء حكم إرضاع الأم ولدها، واختلفت آراؤهم :

فذهب جمهور الأحناف، والشافعية، والحنابلة، والثوري (١) إلى أن

الأم لا تجبر على إرضاع ولدها إلا إذا تعينت، كأن يأبى الولد التقام ثدي امرأة أخرى غيرها ، أو لا يملك الأب أجر مرضعة أخرى، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَاَسَرْتَ مِنْهُنَّ فَاسْتَرْضِعْ لَهُنَّ أُخْرَى ۗ ﴾ ، ودلالة الآية أن الزوجين إن اختلفا فليس للأب أن يجبر الأم على إرضاع ولدها ، لأن امتناع الأم عن إرضاع ولدها دليل على وجود مانع لديها عن إرضاعه .

فإن تعينت الأم لإرضاع ولدها تجبر على إرضاعه حفاظا على حياة

الولد، وصيانة لحقه في الحياة .

ويذهب ابن حزم، وأبو ثور، وابن أبي ليلى إلى إيجاب الأم على

إرضاع ولدها ما دامت خالية من الأعدار لقوله تعالى : ﴿ وَأُولَادَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْعَمَ الرِّضَاعَةَ ۗ ﴾ ، لأن الآية وإن كان ظاهرها الخبر فإنها تقيد الأمر ، والمعنى ارضعوا أولادكم والأمر يفيد الوجوب .

رد الجمهور على ابن حزم ومن معه بأن الآية وإن كان ظاهرها

الوجوب، إلا أن هذا الوجوب مصروف بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَاَسَرْتَ مِنْهُنَّ فَاسْتَرْضِعْ لَهُنَّ أُخْرَى ۗ ﴾ ، فقد أباحت الآية إرضاع امرأة أخرى للولد عند حدوث شقاق بين الزوجين، ورفض الأم أن ترضع ولدها.

والقول بأن هذه الآية خاصة بالمطلقة طلاقا بانئا غير صحيح أيضا،

لعدم وجود مخصص لها، وهذا يثبت بقاء الآية على عمومها .

(١) فتح القدير ج ٤ ص ٤١٢ ، ونهاية المحتاج ج ٧ ص ٢١١ ، والمغني ج ٩ ص ٣١٢ ، المحلي ج ١٠

ويذهب الإمام مالك في رواية عنه إلى أن المرأة إذا كانت من عادة مثلها أن لا ترضع الولد لا تجبر، وإن كان من عادة مثلها أن ترضع الولد فإنها تجبر على إرضاعه.

والرأي الراجح هو رأي جمهور الفقهاء، وهو عدم إجبار الأم على إرضاع الولد إلا إذا تعينت، وأن النفقة واجبة على الأب، فإن أرضعت الأم فيها ونعمت، وإن أبت فعلى الأب أن ترضع له امرأة أخرى بأجر يتحملة .
وليس للأم أن تأخذ أجره على إرضاعها ولدها من زوجها وهي في عصمته، أو في عدة طلاقها منه سواء كان الطلاق رجعياً أو بائناً، لأن إرضاعها لطفلها في هذه الحالات واجب شرعي، والأب يعيلها، وينفق عليها وهي زوجته أو في العدة ، ولا يصح أن يكلف الأب بنفقتين في وقت واحد، ولها أن تأخذ زيادة في النفقة إن احتاجت لهذه الزيادة لحاجة الولد ، أو لغلاء تكاليف الحياة .

يقول ابن عابدين : إن فعل الإرضاع واجب على الأم ، ومؤنة هذا الإرضاع واجب على الأب بلا خلاف، وهو قائم بهذا الواجب حال الزوجية، وأثناء العدة، فلا يلتزم بأجرة الرضاعة للأم حتى لا تجتمع عليه في وقت واحد نفقتان (١) .

وإن طلبت الأم زيادة النفقة حال الإرضاع لحاجتها لهذه الزيادة فلها ذلك لتحقيق رضاعة كاملة للولد ولم يعارض في هذه الزيادة إلا بعض الشافعية .
فإذا انتهت عدة المطلقة وانتهت نفقتها على الزوج فلها أن تأخذ أجره الإرضاع عن المدة الباقية ، لأنها صارت أجنبية بالنسبة للوالد ، ولم تعد لها

(١) حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ٦١٩ .

نفقة عليه

وإن طلقت وهي حامل فإن عدتها تنتهي بوضع حملها ، ولها أن تأخذ
أجرة على الإرضاع بعد الوضع لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلْنَ فَلْيَفْقُوا عَلَيْهِنَّ
حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ (١).

وقد أجمع الفقهاء على هذا ما عدا المطلقة طلاقاً بائناً ، فقد ذهب
المالكية والحنابلة إلى استحقاقها أجرة الإرضاع مع النفقة لأنهم يرون أن
المرأة بالطلاق البائن تصير أجنبية عن الرجل، وتصير كمن انتهت عدتها ،
فتأخذ حكمها (٢) ، وما تأخذه من نفقة فهو عوض عن بينونتها.

فإن قيل : كيف تأخذ الأم أجرة على الإرضاع وهو واجب عليها لقوله
تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ (٣) (٤) ؟ ...

أقول : إن هذا الواجب مقيد بإيجاب رزق الأم على والد الطفل، لقوله
تعالى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٥) ، فإذا قام الوالد بالإنفاق
على زوجته في أثناء الزوجية، أو في العدة فليس لها نفقة أخرى سواها .
وإذا رغب الأب في استئجار مرضعة للولد غير أمه بعد انقضاء عدتها
فأمه أولى بالإرضاع والأجرة لحنانها، وشفقتها إذا لم تتزوج، أو تزوجت
ورضي زوجها.

(١) سورة الطلاق الآية : ٦ .

(٢) المدونة الكبرى ج ٣ ص ٤١٧ ، المغني ج ٩ ص ٣١٣ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٣٣ .

(٤) الشرح الصغير ج ٢ ص ٧٥٤ ، المغني ج ٩ ص ٣١٣ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٣٣ .

وأجرة الإرضاع واجبة على الأب، يدفعها حالا أو مالا ، ولا تسقط بالتقادم
ومدة الإرضاع حولان كاملان، ولا أجرة لمرضع فوق هذه المدة، ويجوز
أن تقل المدة عن العامين إذا كان في الإقلال مصلحة للصغير .
وإن كان للمولود مال من إرث، أو هبة، أو وقف فإن أجرة إرضاعه
والنفقة عليه تكون من ماله ، وإن لم يكن له فمن مال أبيه وعصبتة .

المبحث الثالث طرق رعاية الطفل في مرحلة الرضاعة

رعاية الطفل بعد مولده لا تقف عند حد الإرضاع ، وإنما تتخطاه إلى جوانب عديدة، وعلى المرضعة أن تحرص على غذاء الطفل باللبن، وتهتم بالمحافظة على صحته ، وتتعدهه بالتهذيب والتلقين، وتزكّيته بالخلق الكريم ، والعادات الحسنة ، ومعالم الإسلام الحنيف .

إن الرعاية مفهوم شامل يعم كافة الجوانب المتصلة بين الراعي وبين من يرعاه، وتدور مع الإنسان في كل عمره وعمله، ومع نفسه وغيره ، وهي مع الأطفال والصغار أكثر وأهم .

إن الطفل يخرج من بطن أمه وفي تكوينه بعض الموروثات من والديه ، التي تظهر في شكله، وصورته ، وتختفي في باطنه .

وعندما يتم الطفل شهره الرابع بعد مولده تبدأ حواسه في الارتباط بالمحيطين به ، فيسمع أصواتهم، وتتحرك جوارحه إليهم ، ويحاول محاكاتهم في النطق، والحركة، والسلوك .

وقد أثبت العلماء أن الولد يختزن كثيرا مما يسمع، ويرى، ويتأثر بالواقع الذي ينشأ فيه، فضمة الأم إلى صدرها تشعره بالحنان، والاهتمام أكثر من مص اللبن، وبميل إلى ذلك بلا إرضاع ، ويتأثر الطفل بالصوت العالي، وينزعج من الضجيج ، وينفعل بانفعالات أمه وأبيه ، ويتعود الصياح والبكاء بصوت مرتفع إذا رأى الضجيج في أمه أو أبيه .

إن الولد في فترة الإرضاع يحاول الحركة، والعبث بمحتويات البيت ظنا منه أنه يحاكي أبويه، ويتصور بعض الأصوات منهما، وتتحرك شفاته

لينطق مثلهما، ويرفع يده عندما يحاول الكلام تشبهاً بوالديه ، ويحاول النطق بأصوات مشابهة لهما، وتميل البنت إلى العبث بأدوات الزينة التي تستعملها أمها، ويميل الولد إلى شرب الشاي مثل والده .

إن الولد يحس بوالديه، وبمن حوله، ويبدأ في التكوين التلقائي من فترة مبكرة ، ومن المهم رعايته في هذه المرحلة المبكرة .

ومن أجل تمام المحافظة على الولد بعد خروجه من بطن أمه أن كلف الإسلام الوالد ، أو من يقوم مقامه بالولاية على نفس الصغير، وماله، ورعاية كافة شئونه الخاصة والعامة، وتكليف أمه بإرضاعه .

ومن رعاية الطفل خلال هذه الفترة تهيئة الجو الجميل الذي ينشأ فيه ، وقد سبق العرب قبل الإسلام إلى ذلك ، فكانوا يرسلون الولد إلى الفيافي الواسعة، والخضرة اليانعة، لينشأ وسط الهواء المعتدل، وبين الخضرة الزاهية، والبيوادي الواسعة ، ولا بد للولد أن ينشأ بين الهدوء والإشباع ، ولذلك شرع الله تعالى للأم ما يكفيها وولدها من غذاء، وكسوة، ومسكن ، وألزم الأب بذلك، وأمره أن يقوم به في هدوء ومودة، والبعد عن أي ضرر يلحق بالأم أو بالولد ، يقول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدَيْهِ ﴾ (١) ، حيث نعرف من هذه الآية الحدود الأخلاقية الواجبة في رعاية الآباء والأمهات أطفالهم في فترة الرضاعة ، حيث يوجب الإسلام على الأب أن ينفق على زوجته وولده ، ويحقق لهما حاجاتهما المادية من مأكلاً ، ومشرباً، ومسكناً، وملبساً، ... وغير ذلك مما يحتاج الإنسان إليه في جو من الخلق والأدب الذي أمر به

(١) سورة البقرة الآية : ٢٣٣ .

الإسلام ، وصار معروفا للمؤمنين الصالحين بلا مغالاة في الإنفاق ، أو تقصير فيه ، حيث قدر الله تعالى النفقة وربطها بالطاقة والوسع، وخلصها من أي ضرر يلحق بالأم أو بالأب حتى لا ينعكس الضرر على الولد .
في هذا الجو ينشأ الولد في محضن حسن أمر الله تعالى به قبل مجيء الولد ، وعند مجيئه ، وبعدما يشب ويكبر .

إن من حق الولد على أبيه أن يختار أمه على الدين، لتساهم في تربيته تربية إسلامية حسنة، ومن حق الولد أن يلقنه أبوه الإسلام عند مولده، فيؤذن ويقيم في أذنيه، ويحنك فمه ، ويزيل أوساخ رأسه، ويتصدق بزنة شعره فضة، ويدعو الله له ويتابع توجيهه كلما زاد إدراكه، ويرفق بأمه أملا في أن ترفق بالولد، وينفق عليها وعليه بقدر وسعه، يقول الله تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (١)

إن الولد في مرحلة الرضاعة يرى أباه وأمه، ويستفيد من حديثهما وعملهما، ويحاول محاكتهما في الحركة والنطق، ولذا حسن منهما أن يحدثاه كالكبير العاقل، ليتعلم منهما المحادثة، ويشاركاه اللعب والحركة، وليعرف منهما المودة والتعاون، والمشاركة ، ويذكران الله تعالى أمامه بصوت مسموع ليرى أهمية الذكر، ويتخذان من البيت مكانا للصلاة، ليتعود الركوع والسجود **ومن حق الولد أن ينزل الوالدين إلى مستواه في اللعب، والكلام ،** فيلاعباه بالكرة، والعربة، ويملآن سمعه بكلمات قصيرة مثل الله، الرسول، الإسلام، ولا مانع من اصطحابه ليلعب مع أطفال آخرين في مثل سنه،

(١) سورة الطلاق الآية : ٧ .

وأخذه إلى المسجد ليرى المصلين.

ويستفيد الرضيع بالمكان الواسع ، والجمال الطبيعي، والحدائق المليئة بالزرع ، والثمر، واللعب مع زملائه وأقرانه، ويمكن للأبوين اصطحابه في الأماكن الخلوية، واللعب معه على شاطئ البحر، وإمداده بمفاهيم دينية بمستوى إدراكه .

والاهتمام برعاية الطفل الرضيع مسألة هامة لا يصح إغفالها ، ولا يجوز أن يترك فيها الولد للخدم .

إن الولد مع أبويه في هذه المرحلة يرى فيهما كل شيء، فليس له صلة بغيرهما من الناس، وعلى الأبوين أن يدركا هذا الأمر، ويقدموا من أنفسهما مثلا صالحا له، ويرياه من أنفسهما ما تقر به أعينهما منه بعد ذلك .

إن الملاحظة العادية للطفل وهو يتصرف مع والديه في مرحلة الرضاعة تؤكد أنه يعقل ، ويدرك، ويقرر، ويختار ببساطة تناسب عمره .

فهو يقدم على أبيه وأمه فرحا برؤيتهما، ويضحك بضحكهما، ويشعر بما يلمس فيهما من حنان عليه، واهتمام به، ويستجيب لأمرهما ونهيهما له .
ويدرك موقف من يتعامل معه من غير والديه، ويبتسم حين الرضى، ويبكي حين الألم .

ويختار بين أبويه حين الإقبال عليه تبعا لحاجته، فإن كان جائعا أقبل على أمه، وإن كان شبعانا أقبل على من يلاعبه .

إن الطفل الرضيع إذا وضع في حجرة اللعب وفيها الكرات ، والعربات ، والعرائس ينشط إن شاركه غيره، ويتركها إن كان وحده، ويبكي إذا أصابه ألم، أو ابتلت ثيابه، أو شعر بالجوع .

ولا ينبغي على الأبوين أن يشق عليهما بكاء الطفل وصراخه، ولاسيما إذا كان سبب بكائه الجوع، لأن البكاء ينفع الصغير، فهو يروض أعضائه، ويوسع أمعائه، ويفسح صدره، ويسخن دماغه، ويحمي مزاجه .

وينبغي حماية الطفل الرضيع من أي صوت يزعجه، أو منظر يخوفه لأن عقله لا يتحمل المفاجأة، وإذا وقع شيء من ذلك فالواجب تلافيه بضده، كملاعبته، أو إلقامه الثدي، ويحسن تحريكه بخفة إلى أن ينام وهو هادئ .

ويحسن تدريبه على الفهم من خلال اللعب وبخاصة الألعاب التي تقوم على الفك والتركيب، ورسم صور بسيطة، وجمع الأجزاء المتشابهة في الشكل، أو اللون، أو الحجم .

ولابد من تكرار الشيء الواحد معه، والتدرج معه في الشيء الواحد لبطء إدراكه، وقسوة انقطاع ما يتعود عليه .

إن الرضيع يحتاج إلى بذل مجهود كبير من أمه وأبيه ليصير رجلاً سوياً (١) ومما يجب الحذر منه حمل الطفل على المشي قبل وقته حتى لا يتسبب المشي في اعوجاج ساقيه .

ومن الضروري تقبل ما يرغبه الطفل، والاستجابة لما يحدث له مثل النوم، أو العطاس، أو البول، لأن هذا يتم بلا تعمد منه، والأفضل عدم منعه وصدّه عنه بقسوة وغلظة .

إن الرعاية تشمل الإرضاع والمؤانسة، والنفقة على الطفل، والمحافظة على صحته، وتهيئة المكان المناسب، والملبس الحسن، وكل ما يحتاجه في هذا السن المبكر .

(١) انظر تحفة المودود بأحكام المولود ص ١٨٢، ١٨٣ .

الفصل الثاني

حضانة الطفل ورعايته

حضانة الطفل ورعايته

تنتهي مرحلة الرضاعة عند استغناء الطفل عن المرضعة، وتتم الرضاعة حولين كاملين، ويجوز الفطام قبل عامين تبعا لنموه وحاجته، واستغناؤه عن الرضاعة، حيث تبدأ مرحلة الحضانة، وفيها يحتاج الوليد إلى رعاية أوسع، وعناية أكبر، وتوجيهه إلى قيم الإسلام، وحسن العمل والسلوك بما يناسب قواه، ومداركه .

والحضانة ضم شيء إلى الحزن، والمراد بالحزن الصدر أو الجنب، أو ما بين العضدين، يقال حزن الطائر أفرأخه واحتضنها أي ضمها إلى جناحه، وحضنت الأم طفلها إذا ضمته إلى صدرها، أو جنبها (١) .

والحضانة تعني الرأفة، والشفقة، والعناية، والتربية، وهي بهذا المفهوم تبدأ مع الطفل بعد مولده، لأن أمه تحضنه، وترضعه، وتتكفل به، إلا أن الفقهاء جعلوا الحضانة مرحلة من مراحل الطفولة تبدأ بعد مرحلة الرضاعة أي بعد عامين من الولادة على الأكثر، وتستمر إلى مرحلة الرشد والتكليف، وهذا تقسيم منهجي لبيان الأحكام الشرعية لكل مرحلة على حدة، والواقع يدل على أن الطفل في مرحلة الرضاعة يحتاج إلى الحضانة بمفهومها اللغوي، لما تشمله من شفقة، ورأفة، وعطف، وتحمل المشاق، ...

والأم وهي ترضع ولدها يزداد حبها له، وترتبط به عاطفيا، ولذلك فهي أحق بحضانتها من غيرها .

وسأتناول أهم المسائل المتصلة بالحضانة في المباحث التالية : -

(١) المعجم الوسيط ج ١ ص ١٨٢ .

المبحث الأول مفهوم الحضانة

تعددت مفاهيم الفقهاء للحضانة، فيرى الأحناف أن الحضانة تعني قيام من له حق في حضانة الطفل بضم الطفل إليه، والقيام بحفظه ، والعناية به، وغسل ثيابه، والقيام بكافة أموره المادية والمعنوية في فترة معينة (١) .

ويرى المالكية أن الحضانة حفظ الولد في بيته، والقيام بمؤنته، وطعامه، ولباسه، ومضجعه، وتنظيف جسمه (٢) .

ويرى الشافعية أن الحضانة هي حفظ من لا يستقل بأموره بما يصلحه، ويقيه مما يضره ولو كان سنه كبيرا ، وتعهد به غسل جسده، وثيابه، وكحله ، وربط الصغير إلى المهد، وتحريكه لينام (٣) .

ويرى الحنابلة أن الحضانة تعني حفظ الصغير ونحوه عما يضره، وتربيته برعاية مصالحة (٤) .

وكل هذه التعاريف تبين أن الحضانة تشمل حفظ الصغير في كافة شئونه المادية، والمعنوية، الشاملة لبدنه، وعقله، وروحه، وتهيئة الحياة التي تناسبه، وتعمل لنموه وتطوره، وتحرص على كافة مصالحه ...

ويرى الفقهاء أنه لا بد لمن يقوم بالحضانة أن تكون له طاقة تمكنه من القيام برعاية المحضون، وتكون معه سلطة تمكنه من القيام بما يكلف به ،

(١) حاشية ابن عابدين ج٢ ص ٥٥٥ .

(٢) الشرح الصغير ج٢ ص ٧٥٥ .

(٣) نهاية المحتاج ج٧ ص ٢٨٤ .

(٤) الروض المربع ج٢ ص ٣٦٠ .

ولابد للحاضن أن يكون متصفا بصفات معينة تؤهله للحضانة، كالعقل، والبلوغ، والشفقة، والاستعداد لرعاية الصغير، والمحافظة عليه .
ويجوز أن يكون الحاضن رجلا إذا تعين، والمرأة أولى بالحضانة في الجملة.

ويمكن أن تتسع دائرة الحضانة لتشمل الكبير إن كان مريضا، أو سفيها، أو مجنونا، خلافا للأحناف الذين يرون أن الحضانة اسم خاص برعاية الصغير كما هو واضح في تعريفهم .

والتعريف في جملتها تحدد مسؤولية القائم بالحضانة فيما يلي : -

١- القيام بالجوانب الضرورية واللازمة لحياة الطفل من مأكلا، ومشرب، وملبس، وتنظيف، وتجميل، ... وغير ذلك .

٢- حفظ الطفل مما يؤذيه من برد قارص، أو حرارة شديدة، أو حيوان ضار، أو حشرات مؤذية، وهذا بطبيعته يشمل رعاية الطفل في حركته، وأثناء لعبه، وهو في البيت، أو خارجه .

٣- رعاية الطفل رعاية نفسية، واجتماعية، ودينية، فيلاعبه الحاضن، ويلطفه، ويشاركه في الكلام، ويحاوره، ويلقنه بعض الأمور الدينية، ويريه بعض العادات، ويعلمه إياها، ويقوم بتحفيظه بعض آيات القرآن الكريم، ويعوده الصلاة، ويلحقه بدار تعليم تناسبه .

٤- إبعاد المحضون عن نظائره الذين يجنحون إلى العدوان، والعنف، وسوء السلوك .

٥- معايشة الطفل في جوانب حياته كلها، وعدم تركه وحده حتى لا يضر نفسه، أو يضر غيره .

المبحث الثاني الأحكام الشرعية للحضانة

أجمع الفقهاء على أن الحضانة واجبة للمحافظة على الصغير، ورعايته، وتقديم كل ما يحتاج إليه في صغره، كما اتفقوا على تعيين هذا الواجب على حاضن لا يصلح غيره للحضانة، فإن وجد غيره صار الواجب كفائياً .

واتفقوا كذلك على أن المرأة أولى بالحضانة من الرجل، لأن المرأة تكون مع الطفل أرحم، وأشفق، وأجدر من الرجل .

وفي الظروف العادية التي تكون فيها الأم في كفالة زوجها والد الطفل فحقها في الحضانة ثابت لها، لا ينازعها فيه أحد ما دامت أهلاً للحضانة، على أن يشاركها زوجها والد الطفل في الإشراف على الصغير، والإنفاق عليه مع أمه، ورعاية كافة شئون الأسرة .

أما إذا كانت الأم مطلقة فهي أحق بالحضانة من الأب ما لم تتزوج، فقد ثبت بما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه (أن امرأة قالت : يا رسول الله ، ابني هذا كان بطني له وعاء ، وثديي له سقاء ، وحجري له حواء ، وإن أباه طلقني ، وأراد أن ينزعه عني .

قال لها رسول الله ﷺ : " أنت أحق به ما لم تنكحي) (١) .

وفي الأثر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد طلق امرأته الأنصارية، أم ولده عاصم بعد أن أعقب منها ولده عاصماً، فلما رآه معها في الطريق أخذه منها، فذهبت جدته (أم أمه) وراءه حتى وصلا إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتنازعا بين يدي أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فأعطاهما أبو بكر رضي الله عنه

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب الطلاق، حدیث : ٢٧٦١

إياه، وقال لعمر رضي الله عنه : (ريحها، ومسها، ومسحها، وريقها خير له من الشهد عندك) (١) .

ومن المعلوم أن الأم أكثر شفقة من الوالد على الولد ، والولد أكثر تعلقا بها منذ أن كان رضيعا، والوالد لا يقدر على نظافة الولد ، وحمله، ورعايته أكثر من الأم ، ولذا كانت المصلحة في ثبوت حق الأم في حضانة ولدها، وإن كانت مطلقة مالم تتزوج .

وهذا الحق الواجب للأم لا تجبر عليه إلا إذا تعينت له، فإذا لم تتعين للحضانة ووجد غيرها جاز لها أن تتنازل عن حقها لمن هو أهل له ... وهذا ما جعل الأحناف يرون أن الحضانة حق للطفل وحده (٢) .

ولولا أن الحضانة تحتاج إلى حاضن ومحضون لقلنا برأي الأحناف ، إلا أن اشتراط وجود الطرفين بالضرورة يرجح أن الحضانة حق للأم، وحق للطفل معا، مع ضمان حق الأم في الحضانة، ولذلك كان من الضروري التنازل عن حقها لغيرها إذا كانت مطلقة ضمانا لحريتها وكرامتها.

والفرق بين حق الأم وحق الطفل في الحضانة أن حق الطفل لا يسقط بحال أبدا لحاجته الضرورية إليه، وحفظا لحياته ، حيث لا بقاء له إلا به ، أما حق الأم فإنه يمكن تنازلها عنه لغيرها مالم تتعين ، فإن تعينت بأن لم يوجد غيرها، أو وجد ولم يقبله الصغير لزمها.

ولا يصح من الأم أن تتنازل عن حقها بشرط باطل ، كأن تخلع زوجها في مقابل ترك الحضانة له ، أو تصالحه على ذلك ، فإن فعلت ذلك يصح

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ج٤ ص ١٢٣ .

(٢) حاشية ابن عابدين ج٣ ص ٥٦٠ ، ٥٦١ .

الخلع، ويتم الصلح، ويسقط الشرط لأنها لا تملكه وحدها، وإنما يملكه الصغير معها، وليس للأم أن تفعل ذلك، لأن الحقوق لا يتم التنازل عنها إلا بإجماع كل الأطراف على هذا التنازل، ولو صالحته على ترك أجره الحضانة فلها ذلك ، لأن الأجرة حقها وحدها .

إن الحضانة حق للطفل وحق للأم، لا يجوز للأب أو الولي أن ينزع الولد منها إلا بمسوغ شرعي .

وإذا كانت المرضعة غير الأم وجب على المرضعة أن ترضع الولد تحت رعاية أمه الحاضنة.

إن الحضانة حق للطفل وللأم ، ولا يصح إسقاط الحق من طرف واحد، لعدم استقلال أحدهما به منفردا، وضابط إسقاط الحق أن يكون ممن يملكه ولو تعدد .

ولثبوت هذا الحق، وعدم استقلال طرف واحد في إسقاطه يرى بعض العلماء أن الحضانة من الحقوق المشتركة بين الأم والولد، مثل الحدود لاتصالها بالمصالح العامة ، وكذلك الحضانة فهي حق مشترك بين أكثر من طرف، ولكل طرف مصلحة ومنفعة تتجلى في تنشئة الأفراد تنشئة صالحة، وتكوين مجتمع مستقيم .

إن شريعة الإسلام في جملتها تدعو للمصلحة، وتحقق الخير للبلاد والعباد .

المبحث الثالث كفاءة القائم بالحضانة

الحضانة مسئولية ضخمة، ورسالة كبيرة ، لأنها تعني رعاية الصغير ليكون رجلا صالحا، وصناعة الإنسان أصعب من صناعة أضخم المصانع، لأنها تعني بناء الجسد بالغذاء، وبناء العقل بالتأمل ، والانتباه والتفكير، وبناء الروح بالحب والمودة، وبناء الوجدان بإرضاء العواطف، وإثبات الحنان، ولا يستطيع ذلك إلا إنسان يملك السلطة، والحرص، والشفقة، والحرز، وتقدير الموقف ، ولذلك اشترط الشرع كفاءة من يتولى الحضانة .
والمرأة بصفة عامة أولى بالحضانة من الرجل لما تتصف به - غالبا - من شفقة، وحنو، وصبر، وتحمل لمتاعب الصغير وهي تنظفه، وتطعمه، وتزيينه وفي إطار استقرار الأسرة ، ووجود الأم في كنف زوجها تقوم الأم بالحضانة، ويساعدها الأب بالنفقة، والمعاونة، ويشتركان معا في رعايته وتربيته ، والمحافظة عليه .

أما إذا انفصلت الأم عن زوجها، فإنها أولى بحضانة ولدها بشرط تمتعها بالكفاءة التي تمكنها من القيام بالحضانة على الوجه الأفضل .
وإن تولت الحضانة غير الأم فلا بد أن تكون الحاضنة كفؤا للحضانة، والكفاءة تقوم على الشروط التالية : -

- ١- البلوغ، لأن غير البالغة تحتاج لمن يحضنها، وفاقده الشيء لا يعطيه
- ٢- العقل، الذي يمكن الحاضنة من القيام بالحضانة ، لان المجنون لا يفهم ، والمعته لا يقدر المسئولية .
- ٣- القرابة من الطفل، بأن تكون الحاضنة ذات رحم محرم من الطفل .
- ٤- القدرة الصحية على الحضانة، وذلك بخلو الحاضنة من الأمراض

المقعدة أو المعدية، أو الجهل بشئون الصغير .

٥- أن تكون أمينة على الولد، فتحافظ عليه ولا تضره، وتراقب الله فيه.

٦- أن لا تكون متزوجة من أجنبي عن الطفل، حتى لا تتعارض حقوق

الزوج مع حقوق الطفل .

وقد اختلف الفقهاء في اختلاف دين الحاضنة عن دين الطفل :

فذهب الأحناف والمالكية إلى جواز الحضانة مع هذه المخالفة ، لأن
أساس الحضانة الشفقة والحنو، وهو متوفر في الحاضنة ، فإن خيف
على دين الطفل منها فإنه يؤخذ منها، ويسلم لمن تستحقه من دينه وقرابته(١)
وذهب الشافعية، والحنابلة إلى ضرورة اتحاد دين الحاضنة ودين الطفل
المسلم، حتى لا تؤثر الحاضنة على دين الصغير ، كما أن الحضانة ولاية،
ولا يصح ولاية كافر على مسلم (٢) .

ورأي الشافعية، والحنابلة أولى بالإتباع، لأن الخوف على دين الصغير
شديد، وبخاصة في العصر الحديث لكثرة ما فيه من تعصب وطائفية .
ونوجه النظر إلى مسئولية ولي الصغير مع من تقوم بالحضانة ، فهو
ينفق عليها، وعلى الصغير، ويشترك معها في تعليم الصغير ، وإرشاده إلى
العادات المقبولة، وحب الخير، والاستقامة الدينية، وتعيده على الاختلاط
بأقرانه، والتعود بعباداتهم، وكيفية التعامل معهم، وتحبيبه في تعاليم الإسلام
والفضائل، وتبغيضه في الكفر والرذائل ، وبهذا التكليف تتم رعاية الطفل
داخليا وخارجيا ، ليعيش تحت الرعاية الكاملة، ويخرج للناس متعاوناً معهم
على البر والتقوى .

(١) حاشية ابن عابدين ج ٣ ص ٥٥٦، الشرح الصغير ج ٢ ص ٧٥٨ .

(٢) مغنى المحتاج ج ٣ ص ٤٥٥، المهذب ج ٢ ص ٢١٦ .

المبحث الرابع مدة الحضانة

الحضانة في مفهومها العام تعني الضم والرعاية، وصيانة المصلحة، وتحقيق الحاجات التي يعيش الإنسان بها ، ... والطفل يحتاج إلى الحضانة من مولده، إذ يحتاج إلى الغذاء ، والكساء، والمأوى ، وهي حضانة من نوع خاص عرفت بـ " الرضاعة " تقوم خلالها امرأة بإرضاعه، والإشراف على كل شئونه، وقد سبق الحديث عنها في المبحث الثاني، وتأخذ الحضانة بعد انتهاء الرضاعة منحي آخر، وأعمالاً أخرى .

وقد اتفق الفقهاء على أن الحضانة للذكر والأنثى تبدأ بعد انتهاء الرضاعة، سواء كانت تامة أو ناقصة ، إلا أنهم اختلفوا في وقت انتهاء الحضانة للذكور والإناث .

فبانسبة للذكور :

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن حضانة الذكر تمتد إلى أن يصل الصغير إلى حد الاستغناء بذاته عن النساء ، بحيث يمكنه أن يأكل، ويشرب، ويتطهر بلا حاجة للمعاونة .

وحدد الشافعية، والحنابلة، وبعض فقهاء الأحناف سن استغناء الذكر عن المرأة بسبع سنوات (١) ، وهي سن التمييز، حيث تبدأ أهلية الأداء ، مستدلين بقوله ﷺ : (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين) (٢) ، لأن الصلاة تحتاج إلى الطهارة، ولا يؤمر الإنسان إلا بما يستطيعه، فعلم من

(١) تبين الحقائق ج ٣ ص ٤٨، ونهاية المحتاج ج ٧ ص ٢١٤ ، الروض الفائق ج ٢ ص ٣٦٢ .

(٢) سنن أبي داود - كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة - حديث : ٤٢٣

ذلك أن الولد يستطيع التطهر وحده عند تمام السابعة .
وذهب بعض الفقهاء إلى أن الطفل يستغني عن المرأة في سن
الخامسة، وهذا رأي ضعيف ، حيث لا دليل عليه ، والواقع لا يؤيده .
ومثله في الضعف من حدد المدة بتسع سنوات، لأن الولد عندها يكون
اقتراب من الشباب، واستغنى عن المرأة من وقت مبكر قبل ذلك .
وتحديد انتهاء مدة الحضانة للذكر بالسابعة هو الأولى بالإتباع لقوة
دليله، ولأن الولد عندها يستغني عن المرأة ، ويبدأ في الحاجة إلى مصاحبة
الرجال، ليتعلم منهم الشجاعة، وتحمل المسؤولية، وطرق التعامل مع
الآخرين، ووسيلة التكيف مع المجتمع الذي يعيش فيه .

ومن هنا

يظهر ضعف من يرى امتداد الحضانة إلى البلوغ ، وهم بعض
المالكية (١) ، ومن يرى عدم وجوب الحضانة أصلاً، وهم بعض الشيعة (٢)
الذين أوجبوا على الأب رعاية ولده بعد فطامه ما دام حياً ، فإن مات تقوم
بشأنه أمه، فإن لم تتمكن يقوم برعايته بعض عصبته،
وسبب ضعف هذه الآراء عدم ثبوت أدلتها، ولأنها تؤدي إلى ضياع
مصالح الولد، وإهمال شئونه، لأن الوالد يكون مشغولاً في العادة باكتساب
المعاش الذي يمكنه من النفقة على نفسه، وزوجته، وأولاده، وقد لا يهتم
بالولد أقرباؤه .

(١) فتح الجليل ج ٢ ص ٤٥٢ .

(٢) التاج المذهب ج ٣ ص ٢٦٧ .

ولذلك كان الأخذ برأي جمهور الفقهاء أولى، حتى ينتقل الولد بعد استغنائه عن مساعدة النساء إلى ولي من الرجال، يرباه في نفسه وماله، ويصاحبه في مجتمع الكبار، ويعلمه مبادئ الدين، ويلحقه بمدرسة تعلمه، ويأخذه إلى المسجد للصلاة والموعظة، ويدفعه إلى أقرانه الأسوياء ليتعامل معهم تحت رقابته، ويدربه على العمل في المال، واتخاذ قرارات يحتاج إليها، ويصحح له الصحيح، ويذم له السوء، ويكون معه في شؤونه كلها .

وبالنسبة للبنات :

فقد ذهب الشافعية إلى أن حضانتها تنتهي عند السابعة مثل الولد .

ويرى الحنابلة أن حضانة البنت تنتهي بعد التاسعة .

ويرى أصحاب أبي حنيفة أن حضانة البنت تنتهي عند وصولها إلى حد الاشتهاء، سواء كانت عند الأم أو الجدة، أو عند غيرهما .
وذهب غير الأصحاب من الأحناف إلى أن البنت إذا كانت عند الأم ، أو الجدة فإنها تبقى إلى أن تبلغ، ... وعند غيرهما فلا تتجاوز حد الاشتهاء بوقت ما (١) .

إن الهدف من الحضانة صيانة الصغير، والمحافظة على حاجاته، ورعايته رعاية كاملة في وقت ضعفه ، وأثناء حاجته إلى الرعاية ، والتوجيه.

واختلاف الفقهاء يدور حول تحقيق هذا الهدف .

وقد فصل الفقهاء في مكان الحضانة، وأجرتها للأم إن كانت مطلقة ، وللظئر إن كانت مستأجرة ، وعلى من يريد الوقوف على هذه الأحكام فليرجع إلى كتب الفقهاء .

(١) نهاية المحتاج ج٧ ص ٢١٩، والمغني ج٩ ص ٣٠٣، بدائع الصنائع ج٥ ص ٢٥٧ .

البحث الخامس رعاية الصغير في مرحلة الحضانة

مرحلة الحضانة هي مرحلة الإدراك عند الصغير، وفيها يتمرد على البقاء في البيت، ويحب مصاحبة والده حين خروجه من البيت ، ويبدأ في تأمل الأحداث من حوله، والاشترك فيها بالقول والعمل، والقبول والرفض، ويبدأ الصغير في تشكيل شخصيته ، وإظهار ملامحه الرئيسية ، وهذا يساعد الحاضن في القيام بما يجب عليه .

فهو مع الطفل الصامت الانطوائي يحركه، ويناقشه، ويدفعه إلى مشاركة غيره ، ومع الطفل الثرثار، والنشط يعامله بما يناسبه .

إن الطفل في مرحلة الحضانة مولع باللعب، محب للتنزه، ميال لرؤية المناظر الحسنة، فتراه كثير الحركة ، يتسلق الأماكن المرتفعة، ويجري وراء الكرة ، ويمارس أنشطة متعددة، وهذا يلزم الحاضن باستغلال نشاط المحضون، وملء فراغه بما يفيد صحيا، وعقليا، وروحيا ، ومن المستحسن تيسير أدوات اللعب له، واستصحابه إلى المسجد، والنادي، والأماكن العامة. ومن أعظم ما يؤثر في الصغير في هذه المرحلة معاملة أبيه وأمه أمامه، فهما قدوته ، وعالمه، ومن المهم تعويده على الصلاة مع بيان ما فيها من رياضة بدنية، وعملية، وعقلية ، ونشاط شامل للجسم . ويمكن إحاطة الصغير بما في الصلاة من تربية إيمانية، واجتماعية، وأخلاقية .

ويحسن تعليمه فنون الرياضة، وإشغال فراغه في القراءة، والتعليم الحر، والتنزه البرئ .

وعلى الحاضن أن يختار للمحزون الرفقة الصالحة، والجليس الصالح .
وعلى المربين عدم ترك الأولاد في هذا السن لمشاهدة الأفلام الخليعة،
أو قراءة القصص الماجنة، لأنها ترببهم على سوء الخلق ، وتضعهم في
فساد عاطفي ونفسي، وتبعدهم عن مكارم الأخلاق .

وعلى الآباء والمربين أن يهتموا بالأولاد في هذا السن، ويرشدوهم إلى
آيات الله في أنفسهم، وفي الكون عن طريق التأمل، والتفكير في خلق
السموات والأرض، وذلك في سن الإدراك والتمييز، ويحسن أن يتدرجوا معهم
من المحسوس إلى المعقول، ومن الجزئي إلى الكلي، ومن البسيط إلى
المركب ، حتى يصلوا معهم في نهاية الشوط إلى قضية الإيمان عن
اقتناع وحجة وبرهان، وحين يأخذ الولد منذ الصغر القضايا الإيمانية
الثابتة، ... وتتضح في ذهنه وفكره الأدلة التوحيدية الراسخة ، فلا تستطيع
معاول الهدم أن تتال من قلبه العامر، ولا يمكن لدعاة السوء أن يؤثروا على
عقله الناضج، ولا يقدر إنسان أن يززع نفسيته المؤمنة ، ... لما وصل إليه
من إيمان ثابت، ويقين راسخ ، وقناعة كاملة .

وهذه الطريقة في التدرج من الأدنى إلى الأعلى، ومن المحسوس إلى
المعقول في الوصول إلى الحقيقة هي طريقة القرآن الكريم في الدعوة
والتوجيه .

وحينما ينهج المربون في تربية الأولاد هذا النهج، وحينما يسير الآباء
والأمهات في تأديب الأبناء على هاتيك القواعد يستطيعون في فترة يسيرة من
الزمن أن يكونوا جيلا مسلما، مؤمنا بالله تعالى ، معتزا بدينه، مفتخرا بتاريخه
وأمجاده، ويستطيعون كذلك أن يكونوا مجتمعا نظيفا من الإلحاد ، نظيفا من
الميوعة ، نظيفا من الحقد ، نظيفا من الجريمة ، ...

وإرشادات السنة عديدة في تربية الولد ، ومنها ...

- عن عمرو بن سعيد بن العاص، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن) (١).
- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم) (٢) .
- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (... ومن حق الولد على والده أن يحسن أدبه، وأن لا يجحد نسبه) (٣) .

فيؤخذ من هذه الأحاديث التربوية أن على المربين ولاسيما الآباء والأمهات مسئولية كبرى في تأديب الأولاد على الخير، وتخليقهم على مبادئ الأخلاق .

إن مسئولية الحاضن مسئولية شاملة ...

فهو مسئول عن صحة الصغير، وسلامة جسده وبدنه .

وهو مسئول عن عقله، وعليه أن يعلمه، ويوجهه نحو الفضائل والمعارف النافعة .

وهو مسئول عن أخلاقه وسلوكه ، وعليه أن يباعد المحضون عن رفقاء السوء .

وهو مسئول عن تدينه ، وتعويده العبادة، وتعريفه أساسيات الإيمان .

وهو مسئول عن مشاركته الاجتماعية ليكون عضوا نافعا في المجتمع.

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب الأدب، حدیث : ٧٧٤٩

(٢) سنن ابن ماجه - کتاب الأدب، باب بر الوالد - حدیث : ٣٦٦٨

(٣) تاریخ المدينة لابن شبة - الوفود، حدیث : ٨٥٦

الفصل الرابع

الولاية على الصغير

الولاية على الصغير

يخرج الولد من بطن أمه وهو لا يعلم شيئاً، ولا يدرك أمراً، ثم يأخذ في الإدراك شيئاً فشيئاً، ويستمر ضعيفاً محتاجاً لغيره إلى أن يشب فتى عاقلاً ، راشداً ، يعتمد على نفسه، ويقضي حوائجه دون اعتماد على غيره .

وبعد مرحلة الرضاعة كان تشريع الحضانة وهي المرحلة التي تلي الرضاعة وتستمر إلى أن يتميز الطفل، ويستغني عن النساء ليتولى شئونه الولي .

والرضاعة والحضانة تعتمدان على سلطة امرأة في الغالب، تقوم على شئون الولد منذ نزوله من بطن أمه ، فتغذيه باللبن ، وتحيطه بالحنان ، والعطف، وتزرع فيه حب الخير ، وتعوده على العادات الحسنة .

ولا بد للصغير من ولي ينفق عليه، ويحافظ على أمواله، وينميها، ويعمل على تربيته، ويعلمه شيئاً من القرآن الكريم، ومكارم الأخلاق، ويربيه على الرجولة وحب العمل، ونصرة الدين، ...

وصلة الولاية بالرضاعة والحضانة وثيقة ، فالولي ينفق على المرضع والحاضنة، ويشرف على إيفاء الصغير حاجته كلها ، ويقوم بتعيين المرضعة والحاضنة إن ألم بمن تقوم بهما أو بأحدهما مكروه يمنعها من استمرار ما تقوم به كمرض، أو عجز، أو وفاة .

والولاية أثناء الرضاعة والحضانة تعمل على رعاية شئون الصغير التي لا تقوم بها المرضعة أو من يقوم بالحضانة، فإن كان له مال تحافظ عليه، وترعاه، وتتفق منه عليه، وعلى من يرضعه، ويحضنه، كما تتولى رعاية نفسه، وتحميه من العدوان، وتقوم بتربيته ، وتعليمه ، وإرشاده لكل ما يصلح حاله لينشأ شاباً صالحاً ، يعيش مع الآخرين مؤدياً لكل واجب مشروع .

وفي هذا الفصل سنتحدث عن "الولاية على الصغير" في المباحث التالية:-

المبحث الأول الولاية على النفس

الولاية (بفتح الواو أو بكسرها) اسم مشتق من الفعل ولي (بفتح الواو ، وكسر اللام) من باب حَسِبَ ، والمصدر يكون بفتح الواو ، والاسم بكسرها ، وهو يعني تدبير أمر يتولاه مكلف لغيره .

والولاية عند الفقهاء سلطة شرعية لشخص تنفذ أقواله ، وأفعاله بلا توقف على إجازة غيره ، فالإنسان البالغ العاقل الراشد ولي نفسه ، والصغير ، والمجنون ، والمعتوه يلي أمره غيره محافظة عليه .

وولي الصغير له سلطة على نفس الصغير وذاته من حيث الإشراف العام الشامل للإنفاق ، والرعاية ، والتنشئة ، والتقويم ، والتعليم ، والعلاج ، وإمداده بالقيم الاجتماعية ، والدينية ، والأخلاقية .

فسلطة الولي على الصغير أعم وأشمل من الحضانة ، فهو في فترة حضانة الطفل ينفق على الحاضنة لتقوم بما يصلح كافة شؤون الطفل ، ... فإذا ما انتهت فترة الحضانة يصير الولي مسئولاً مسئولية كاملة عن الصغير ، وعليه أن يقوم بتربيته وتنقيفه ، وتأديبه ، وتوجيهه ، وتنميته عقلياً ، وخلقياً ، ودينياً ، واجتماعياً ، وله أن يتشدد في الإطار المشروع لتحقيق كافة ما يصلح الولد .

ومنشأ ولاية الوالد على الصغير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (١) .

وقوله ﷺ : (وإن لولدك عليك حقا) (٢) ، وقوله ﷺ : (كلكم راع ومسئول

(١) سورة التحريم الآية : ٦ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب النهي عن الصوم الدهر لمن تضرر به - حديث : ٢٠٣٧ .

عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيته، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته " ، ... ، فلكم راع ولكم مسئول عن رعيته (١) .

يقول الإمام النووي : إن على الأب تأديب ولده، وتعليمه ما يحتاج إليه من وظائف الدين ، وهذا التعليم واجب على الأب، وسائر الأولياء قبل بلوغ الصبي أو الصبية (٢) .

ويقول الإمام الغزالي : الطفل أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل نقش وصورة ، وقابل لكل ما يقال له، فإن عود الخير ونشأ عليه سعد في الدنيا وفي الآخرة ويشاركة في ثوابه أبواه ، وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه، والولي له (٣) .

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : (ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن) (٤)، لأن الأدب خلق واسع يعني الاستقامة الذاتية، وحسن التعامل، والتألف مع الآخرين مما يبسر له كافة جوانب الحياة .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : (أدب ابنك ، فإنك مسئول عن ولدك .

(١) صحيح البخاري - كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب : العبد راع في مال

سيده - حديث : ٢٣٠٠

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ج٨ ص ٤٤ .

(٣) إحياء علوم الدين ج٣ ص ٦٢ .

(٤) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب الأدب، حديث : ٧٧٤٩

ماذا أدبته ؟

وماذا علمته ؟

وأنه مسئول عن برك، وطواعيته لك (١) .

وذكر بعض العلماء أن الله تعالى يسأل الوالد يوم القيامة عن ولده قبل أن يسأل الولد عن والده (٢) .

إن سلطة الوالد على ولده واسعة، وضرورية للولد، لأن الأب يحرص على مصلحة ولده ، ويوجهه نحو غد أطيب، ومستقبل كريم .
وعلماء التربية يرون أن ضياع الولد، وانهيائه بدنيا، وعقليا، ونفسيا يرجع إلى إهمال والده له، وانصراف أمه عنه، وإقامة الأسرة على صراع، وخلاف ، وإهمال .

وبعض الآباء يعطي حرية واسعة لأولاده بدون مراقبتهم ، ويمكنهم من النفقة ببذخ، وهؤلاء يساهمون في ضياع أولادهم أكثر من رعايتهم وإصلاحهم
وهنا أَدْعُو الآباء للاهتمام بأبنائهم، ورعاية كافة شئونهم، والقيام بمسئوليات الولاية على أبنائهم لقوله ﷺ : (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع) (٣) ، والاستدلال بالحديث واضح، لأنه يأمر الآباء بتعليم الأولاد، والبنات الصلاة، يأمرونهم بها، ويضربونهم على تركها إن أبوا الالتزام بها بعد تعليمهم أحكامها وأعمالها .

(١) السنن الكبرى للبيهقي - كتاب الصلاة، باب ما على الآباء والأمهات من تعليم الصبيان ، حديث : ٤٧٣٧

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود ص ١٣٩ .

(٣) سنن أبي داود - كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة - حديث : ٤٢٣

والفقهاء يقيسون على الصلاة سائر القيم الدينية، ويرون أن للولي أن يأمر الصغير بالطاعات، وينهاه عن المحظورات، ويحببه في دين الله تعالى وقد فصل ابن قيم الجوزية في كتابه تحفة المودود واجبات الولي تجاه الصغير فيقول :

يحتاج الطفل غاية الاعتناء بأمر الخلق الكريم في صغره مثل الصدق، والأمانة، والعفو، والتسامح، لأن الطفل ينشأ على ما عوده المربي في صغره ويجب على الولي إبعاد الصغير عن مجالس اللهو، وسماع الفحش، ومنطق السوء حتى لا يعلق سمعه بأمر يعسر عليه تركه ، ... وينبغي للولي أن يبعد الصغير عن مد يده لغيره ، حتى لا يصير التسول له طبيعة وعادة.

وينبغي له إبعاده عن الكذب ، والخيانة، والكسل، والدعة ، والراحة، والسكون لينشأ فتى قويا ، ويصير رجلا فتيا ، ... وعليه أن يعوده التعلم والقراءة ، والإقدام ، والجرأة ، والاهتمام بالمعرفة، والبحث، والإبداع، والتقدم، والتفوق .

ويجب على الأولياء إبعاد الصغير عن كل حرام في شريعة الله تعالى ، ومنعه من مخالطة الأشرار ، ولبس الحرير، ورؤية مناظر الفجور . وأحسن ما يفعله الأولياء مع الصغار اكتشاف مواهبهم، وقدراتهم الذهنية والعقلية ، وتتميتها ، وتوجيههم إلى السبق في حياتهم العملية والمستقبلية (١) وعلى الآباء أن يختاروا لأبنائهم أصحابا في سنهم يتميزون بالخلق الحسن، وحب الدين، وملازمة القيم الفاضلة .

(١) انظر تحفة المودود بأحكام المولود ص ١٨٧ : ١٩٠ بتصرف .

وتأديب الصغير يبدأ بالقول اللين، والمكافأة المادية، وإبداء السرور على وجه يليق بفهم الصغير، ويناسب عقله .

ومن الواجب تعليم الصغير صورة موجزة من سيرة النبي ﷺ ، وشيء من حياة الصحابة والتابعين، مع التركيز على مناط التأثير المقصودة .
وذهب جمهور الفقهاء إلى ثبوت ولاية الأب ، والأم، والجد، والوصي على تأديب الصغير، وذلك بأمره بفعل الطاعات ، ونهيه عن اقتراف المحظورات سواء كانت لحق الله تعالى أو لحق العباد، وتأديبه إن أخل بها ، تعويدا له على الخير والبر ، وزجرا عن سيء الأخلاق ، وقبيح العادات .
ونص الفقهاء على وجوب قيام الوالي بمداواة الصغير، ورعايته صحيا، ونظمه في سلك تعليم يدرس فيه ما هو مستعد له من العلوم والمعارف ، أو الحرف أو الصنائع ، ولو بأجرة، لأن في ذلك مصلحته كالأكل والشرب والتعليم (١) .

وتنتهي ولاية النفس عن الذكر إذا بلغ راشد عاقلا وتولى أمر نفسه .
وتستمر ولاية الأب مع البنت بعد بلوغها إلى أن تتزوج عند جمهور الفقهاء، خلافا للأحناف الذين يرون أن البالغة العاقلة تستقل بتزويج نفسها(٢)
ويشترط في الولي أن يكون كامل الأهلية بأن يكون حرا، بالغا، عاقلا ، لأن فاقد الأهلية يحتاج لغيره ، ولا يمكنه القيام بأمر غيره .
كما يشترط فيه أن يكون أمينا، يترك الحرام ، ولا يقع فيه ، لأن الأمانة تجعله يقوم برعاية المولي عليه على الوجه الأكمل ، ويبذل جهده في تحقيق

(١) رعاية الطفولة في الشريعة الإسلامية ص ٣٠٤ .

(٢) انظر ص ١٩٣ .

هذا الهدف ، ويبعده عما حرم الله تعالى ، لأنه لو لم يكن أميناً فإنه يضر الطفل، ويوقعه في الحرام، لأن الصغير يتأثر به ، ويقلده في قوله، وعمله. **كما يشترط في الولي أن يكون مسلماً ، لأنه لو لم يكن مسلماً لأفسد دين الصغير الذي ولي أمره ، وهذا لا يجوز (١) .**

ويذهب بعض الفقهاء إلى جواز ولاية غير المسلم على المسلم ، وجواز ولاية الخائن الفاسق، لجواز أن لا يمتد الضرر إلى المولى عليه، وهذا أمر مستبعد ، ولذلك يرجح رأي الجمهور محافظة على خلق الصغير ودينه . **كما يشترط في الولي أن لا يكون مهملاً في نفسه لا يؤدي ما عليه ، مخافة أن يمتد إهماله إلى الصغير فيضيعه، ويضره (٢) .**

وهكذا

تستمر عناية الإسلام بالصغير منذ خروجه إلى الدنيا، فقد شرع الله تعالى له ما يكافئ حاجته من رضاعة ، وحضانة ، وولاية شاملة لكل حاجات الطفل حتى يصل إلى البلوغ راشداً عاقلاً يلي أمر نفسه ، ويستمر في البناء والأفعال الحسنة كما يأمره الله تعالى .

(١) فتح القدير ج ٢ ص ٤١٢، والمغني ج ٧ ص ٣٥٥، حاشية الباجوري ج ٢ ص ١٠٦ .

(٢) الولاية على النفس للدكتور حسن الشاذلي ص ١٣٥ .

المبحث الثاني الولاية على المال

الولاية على المال تعني الإشراف على مال الصغير من ناحية المحافظة عليه، وتنميته، والإنفاق منه عليه، والقيام بكافة التصرفات الشرعية التي تقتضيها مصلحة صاحب المال في ماله، سواء كان صغيراً، أو مجنوناً أو سفياً، أو معتوهاً - خلافاً للأحناف الذين قصرُوا ولاية المال على الصغير فقط (١) .

وقد فصل الفقهاء مراحل رعاية الصغير منذ مولده إلى أن يصير مكلفاً بالغاً راشداً يقوم بأمر نفسه، وبينوا أنه يمر بثلاث مراحل هي :-
المرحلة الأولى : تبدأ بمولده ، وتنتهي عند فطامه، وأقصاها عامان لمن أراد أن يتم الرضاعة، وتسمى مرحلة الرضاعة .
المرحلة الثانية : وتبدأ من فطام الصغير إلى أن يبدأ مرحلة البلوغ ، والرشد ، وتشمل هذه المرحلة فترتين : -

أحدهما: فترة عدم التمييز ، وفيها يقوم الولي بجميع التصرفات الخاصة بموليه ، لأن الصغير فيها لا يحرك شيئاً ولا يميز أمراً، وإن بدا في الظاهر مدركاً، ولا يعتد بسائر تصرفاته ، وهذه تنتهي غالباً عند سن السابعة .
والفترة الثانية: تبدأ عندما يتمكن الطفل من التمييز بين النافع والضار بصورة إجمالية ، وفيها يعرف أن البيع سالب، والشراء جالب .
وفي المبحث السابق بينت ولاية الولي على نفس الصغير، وفي هذا المبحث سأتناول الولاية على مال الصغير بصورة مجملة في عدة مطالب .

(١) حاشية ابن عابدين ج٦ ص ١٤٤ .

المطلب الأول الفرق بين الولاية على المال والولاية على النفس

الولاية على المال تعني المحافظة على مال الصغير إن كان له مال ، وذلك بالإتفاق عليه منه ، وتنميته ، والقيام بواجباته الشرعية مثل إخراج الزكاة، وغيرها من الواجبات الشرعية .

أما الولاية على النفس فهي تعني مباشرة الأعمال التي يحتاج إليها الصغير من مأكّل ومشرب، وملبس، ومأوى ، وتربية ، وتعليم، وغير ذلك من مال الصغير أو من مال غيره ممن يجب عليهم الإتفاق عليه .
كما أن الولاية على المال يقوم بها الأب أو الجد ، فإن عدما ينتقل الأمر إلى وصي يعينه الأب أو الجد ، أو القاضي (١) .

أما الولاية على النفس فهي تكون لأقارب الصغير من عصيته الذكور، وهم أصوله وإن علت، وفروعه وإن نزلت ، ويدخل فيهم فروع الأب ، وفروع الجد، إلا أن الولاية على البنات لا تكون لغير محرم لها (٢) ، فإن لم يوجد المحرم للبنات يبقىها القاضي عند حاضنتها مع تعيين رجل أمين من محارم الحاضنة يشرف عليها .

ويجوز للأب والجد أن يرعيا الصغير ، ويقوما بالولاية على نفسه ، وماله معا ، وبعدهما يكون القاضي ، لأنه ولي من لا ولي له .

(١) حاشية ابن عابدين ج٦ ص ١٧٤ ، وحاشية الدسوقي ج٣ ص ٢٩٩ ، والمهذب ج١ ص ٤٢٢ .

(٢) المبسوط ج٥ ص ٢٠٧ ، بداية المجتهد ج٢ ص ١٣ ، المغني ج٧ ص ٣٧٢ .

المطلب الثاني شروط الولاية على المال

يشترط الإسلام في الولاية على المال عددا من الشروط لابد منها في الولي، وهي : -

- ١- كمال الأهلية ، وذلك بأن يكون حرا ، بالغاً، عاقلاً ، لان فاقده الأهلية لا يتولى أمر نفسه، ويعجز أن يتولى أمر غيره بالضرورة .
- ٢- أن يكون مسلماً، ليراعي مال الطفل المسلم بشفقة وحب، وحرص ، لأن اختلاف الدين يقضي على الشفقة، ويؤدي إلى إلحاق الإضرار بدين الطفل المسلم وماله .
- ٣- أن يكون معروفاً بالأمانة التي تمنعه عن الحرام ليحافظ على مال الصغير، ويبذل جهده في رعاية مصالحه كوله .
إن الذي يفرط في الأمانة يكون فاسقاً، وهو إما أن يكون مشهوراً بفسقه، أو غير مشهور ، فإن كان مشهوراً بفسقه يمنع من الولاية عند المالكية والشافعية والأحناف، وإن لم يكن مشهوراً بالفسق تجوز ولايته (١) .
وذهب الحنابلة إلى أن الفاسق لا تجوز ولايته على أي حال ، اشتهر أو لم يشتهر (٢) .

- وذهب ابن القيم إلى جواز ولاية الفاسق على مال الصغير (٣) .
- ٤- أن لا يكون مهملاً غير مدقق ، لأن الإهمال يضيع الحقوق بالغفلة

(١) نهاية المحتاج ج٧ ص ٢١٨، وحاشية الباجوري ج٢ ص ٢٠٣، وحاشية الباجرمي ج٤ ص ١٢٤ .
(٢) المغني لابن قدامة ج١١ ص ٥٢١ .
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ج٤ ص ١٣٢ .

وعدم الاهتمام، وقد لا يعالج الصغير إذا مرض، ولا يهتم به إن احتاج لشيء، ... والمهمل يضيع حاجاته الشخصية ولا يصح أن نعهد إليه بشئون غيره ؟ ! (١)

٥- أن لا يكون سفيها مبذرا ، لأن السفية المبذر يضيع مال نفسه ، ومال من يعوله، ولذا يجب الحجر عليه ،
يقول ابن عابدين: إن الولد إذا كان له كسب، وكان أبوه مبذرا يخشى منه إتلاف مال الابن لا يدفع مال ولده إليه، ويدفع إلى أمين يحفظه وينميه (٢)
وهذه الشروط في الجملة تؤكد على ضرورة المحافظة على مال الطفل حتى يستلمه كاملا، وإفرا، وهو راشد، يقول الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ أَسْأَمَهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ (٣) .

(١)الولاية على النفس ص ١٣٥

(٢) حاشية ابن عابدين ج ٦ ص ١٧٤ .

(٣) سورة النساء الآية : ٦ .

المطلب الثالث **مدى الولاية على المال**

إذا ولى الأب شئون ولده ، وثبت حسن تدبيره ، وأمانته، وحسن رعايته لمال ولده يكون له أن يتصرف في مال الولد بيعا وشراء ، ونفقة، ولا يستثنى من ذلك إلا أن يهب منه لغيره ، أو يتبرع منه ، لأن الهبة والتبرع إخراج المال بلا عوض، وبلا سبب شرعي ، وذلك ضرر محض للصغير فإن وجد له سبب شرعي كأن بلغ نصابا، أو لزمته عاقلة فلأب أن يخرج زكاته المشروعة ، ويدفع ما عليه من الدية .

وله أن يبيع مال الصغير إذا رأى في البيع مصلحة لمال الصغير.
وله أن يبيع ويشترى للغير وللنفس بلا غبن فاحش، لأن الغبن اليسير يقع فيه حذاق البشر في أموالهم ، ولذلك جوزته الشريعة إذا وقع فيه الوالد وهو يعمل في مال ولده .

ويجوز للأب أن يعمل في مال ولده الصغير بما يعود عليه بالنفع ، كأن يؤجره للغير أو لنفسه ، أو يشترك به في عمل تجاري يغلب على الظن نفعه **وإن وقع على المال عدوان من معتد، فعلى الأب أن يرفع الأمر إلى الوالي، ولا شيء عليه .**

الفصل الرابع

تكامـل رعايـة المـحـضون

تكامل رعاية المحضون

إن مرحلة الطفولة هي مرحلة الضعف الأولى التي يعيشها الإنسان وتبدأ بعد مولده، وتمتد إلى بداية مرحلة القوة، وهي مرحلة الرشد والبلوغ والتكليف وقد اشتملت الشريعة الإسلامية على جميع حاجات الطفل منذ مولده ، فأمرت بإرضاعه، ورعايته، وتوجيهه في حدود إدراكه العقلي، وميوله الروحية والعاطفية، وأمرت بحضانتها، وخدمته إلى أن يستطيع خدمة نفسه والاستغناء عن غيره في مأكله، وملبسه، وشئونه نفسه .

وأمرت الشريعة الإسلامية بتعيين وال يلي أمر الصغير ، ويحافظ على مصالحه وأمواله .

وشرع الإسلام هذه الولاية على الصغير منذ مولده ليكون الولي عوناً للمرضعة، وللحاضنة على القيام بما يجب عليهما، وينفق عليهما، ويساعدهما في المحافظة على صحة الطفل، وتعليمه .

وتستمر الولاية بعد انتهاء الرضاعة ، والحضانة ليواصل الولي دوره مع الطفل، ويجتهد في تكوينه الذاتي، والاجتماعي بما يرضي الله تعالى ورسوله ﷺ ، فيغذي جسده وينميه، ويفتح مداركه العقلية، ويفهمه واجبه نحو نفسه، ونحو أهله، وأقاربه، والناس من حوله، ويرشده إلى عالم الغيب، ويعرفه بالبراهين الدالة على حقيقة الإيمان، ومعرفة الله تعالى، ويعوده الذكر، وحفظ القرآن الكريم، وحب الاستقامة والطاعة، ويوجه روحه نحو إدراك المعاني الجميلة، والقيم السامية، والأخلاق النبيلة، وحب الله تعالى، وحب رسوله ﷺ. ويستمر الولي في رسالته مع الطفل حتى يوصله إلى المجتمع إنساناً حسناً في صحته، وفطرته، وروحه، ووجدانه، ومعه ماله وقد نما وازداد .

فإذا بلغ الغلام راشدا يتولى أمر نفسه، وماله، مؤديا للواجب، ومتمسكا بالحق، يعيش مع الناس إنسانا مسلما يتعلم ويعلم، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويتحمل مسئولية الأمانة كسائر المؤمنين، ويقوم بالدعوة إلى الإسلام بقدر استطاعته .

إن الولي قبل بلوغ الصبي يقدم له مفاتيح الشخصية المسلمة الكاملة ، فيعرفه بأركان العقيدة، ويعلمه العبادات، وأحكام الإسلام وبخاصة تلك التي يحتاج إليها، ويعوده التعامل مع الناس، والمشاركة في الأمور العامة، والاهتمام بمصالح الناس، ودوره معهم، ومعرفة كيفية الحكم والاختيار في القضايا الآنية والمستقبلية .

ويلحقه بمدارس العلم ومؤسساته، ويحفظه القرآن الكريم، ويدفعه إلى الاختلاط بالقرناء الصالحين، ويبعده عن الأراذل والسفهاء ،

وهكذا

يبدأ الطفل مرحلة البلوغ راشدا مستفيدا بهذه الموارد الطيبة، ومستقيما على منهج الله تعالى .

ولا يصح ترك الولاية على الصغير إلا إذا تأكد الولي من بلوغه راشدا، عاقلا بعد ظهور علامات البلوغ، وهي الاحتلام، ونبات الشعر الخشن حول القبل ، وغلظ الصوت ، وانفراق أرنبة الأنف .

وقد اعتبر الشارع من هذه العلامات علامتين اثنتين هما الاحتلام،

والإنبات .

أما الاحتلام فمستفاد من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَدْرِكْ
الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ
تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ وَفِي بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَارَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ

جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوْفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ (١)

ومن قوله ﷺ : (رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ،
وعن الغلام حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق) (٢) ، وليس للاحتلام
سن محدد، والصبيان يختلفون فيه .

وأما الإنبات فالمراد به إنبات الشعر الخشن الذي يظهر حول قبل الولد
والبنت، والدليل على ذلك أن رسول الله ﷺ أمر بأن تكشف مآزر بني قريظة
بعد حصارهم لمعاقبة من بلغ منهم، فمن أنبت الشعر، وظهرت عانته فهو
من المقاتلة، ومن لم ينبت فهو من الذراري الصغار، فعن عطية القرظي
رضي الله عنه، قال : (كنت من سبي بني قريظة ، فكانوا ينظرون ، فمن أنبت
الشعر قتل ، ومن لم ينبت لم يقتل ، فكانت فيمن لم ينبت) (٣) .

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عامله أن لا يأخذ الجزية إلا ممن
جرت عليه موسى .

فإذا تيقن الولي من بلوغ الصبي، واختبر رشده، واطمأن على حسن
فهمه، وسلامة تصرفاته سلم له ماله، وتركه، فقد جرى عليه التكليف
الشرعي، وصار مخاطبا بجميع أحكام الإسلام .

وقد حاول الفقهاء وضع سن معين يكون الصبي مكلفا إذا وصل إليه، وآراؤهم
في هذا التحديد مختلفة أقلها اثنا عشر عاما، وأكثرها تسعة عشر عاما

(١) سورة النور الآية : ٥٨ .

(٢) صحيح ابن حبان - كتاب الإيمان، باب التكليف، حديث : ١٤٢

(٣) سنن أبي داود - كتاب الحدود، باب في الغلام يصيب الحد - حديث : ٣٨٤٧

وتسمى المرحلة بعد البلوغ " مرحلة الأشد " ، وعنها يقول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ (١) ، وسميت بذلك ، لأن الشدة تعني التحمل ، والتجلد ، يقول الله ﷻ عنها : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (٢) ، فقوة الإنسان بين ضعفين ، فهو في الضعف الأول يكون نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم جنينا ما دام في البطن .

فإذا خرج فهو وليد ، فإذا أتم سبعة أيام فهو صديغ (بالعين المعجمة)

لأنه لم يشتد صدغه .

ثم ما دام يرضع فهو رضيع ، فإذا قطع عن اللبن فهو فطيم ، فإذا دب ودرج فهو دارج .

فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسي .

فإذا سقطت أسنانه فهو مثغور .

فإذا أنبتت بعد سقوطها فهو مثغر .

فإذا بلغ السبع وما قاربها فهو مميز .

فإذا بلغ العشر فهو مترعرع وناشئ .

فإذا قارب الحلم فهو يافع ، ومراهق ، ونهام للغلظة .

فإذا بلغ فهو بالغ ، ويبدأ في مرحلة القوة إذا بلغ راشدا .

فإذا اجتمعت قوته فهو حزور .

فإذا اخضر شاربه ، وأخذ عذاره في الطلوع فهو باقل .

(١) سورة الأحقاف الآية : ١٥ .

(٢) سورة الروم الآية : ٥٤ .

ثم هو ما بين ذلك وبين تكامل لحيته فتى، وشارخ بحصول شرخ الشباب له (١) .

ثم يأخذ في الكهولة إلى الستين .

ثم يأخذ في الشيخوخة ، فإذا أخذ شعره في البياض قيل : شاب .
فإذا زاد قيل : وخطه الشيب .

فإذا زاد قيل : شمت .

فإذا غلب شيبه فهو أغم (٢) .

فإذا اشتعل رأسه ولحيته شيبا فهو مقعوس .

فإذا انحط قواه فهو هرم، وتبدأ مرحلة الضعف الثانية .

فإذا تغيرت أحواله ، وظهر نقصه فقد رد إلى أرذل العمر، فالموت أقرب إليه من اليد إلى الفم (٣) .

وهكذا سائر الناس، يبدأون ضعفاء، وينتقلون إلى القوة، وينتهون مثل ما بدأوا به .

وفي الآخرة يكون البرزخ ، والبعث والحساب، والجزاء، وتنتهي أحوال النطفة بعد رحلة طويلة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ^ط وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ^ق وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ (٤) .

......***

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص ٢٣٦ .

(٢) رجل اغتم : لا يفصح في كلامه، والأغم : الإبطاء والتأخير .

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود ص ٢٣٧ .

(٤) سورة فصلت الآية : ٤٦ .

إن نظام الإسلام يهتم بالولد في مراحل ضعفه وقوته، فقد جعله الله تعالى في مرحلة ضعفه أمانة عند والديه من وقت مبكر، وشرع لهما الزواج، وحبب لهما الولد، ودعاهما إلى اختيار المحضن الحسن الذي ينشأ فيه، ويأخذ منه الدين، والخلق، والأصل، ودعا إلى إحسان تربيته، والعناية به جسدياً وعقلياً، ونفسياً أثناء رضاعته، وحضانتها، والولاية عليه في إطار منهج شرعه الله تعالى لنمو جسده، وسلامة عقله، وتهذيب روحه.

وإذا ما انتقل إلى القوة كلفه بما شرعه له من عناية شاملة يحافظ بها على جسده، وعقله وروحه،

وإذا ما وصل إلى مرحلة الضعف الثانية يشرع له ما يريعه من بر أولاده به، واهتمام الآخرين بشئونه، وسائر ما يحتاج إليه .

إن حياة الإنسان منضبطة بدين الله تعالى منذ اللحظة الأولى عندما كلف آدم عليه السلام بالنبوة، ودعوة أبنائه، وتعليمهم شرع الله تعالى الذي نزل لهم، وصار واضحاً ضرورة الدين في حياة الناس، ليعرفهم بحقيقتهم، وبالموجودات التي خلقت لهم، وبالمخلوقات الغيبية العاقلة كالجن والملائكة، ليعيشوا حياتهم عقلاء فاهمين، يعملون للآخرة، ويرجون رحمة الله، والله بصير بالعباد .

الباب الخامس

دقة صناعة الإنسان

دقة صناعة الإنسان المكلف

قدر الله تعالى لآدم عليه السلام ، وبنيه أن يعمرُوا الأرض، وينتشروا خلالها، ويتعاملوا مع مكوناتها، ويستفيدوا بالمخلوقات الموجودة فيها، كما عرفهم بما فيها من غرور مادي، وعداوة شيطانية ، وخصومات حول مغامرات الدنيا، وزخارفها، وأرسل لهم الرسل بين الفينة والفينة لتعليمهم منهج النجاة في الدنيا والفوز في الآخرة ، وختم الله ﷺ الرسل والرسالات بدين عام للجميع، وخالد إلى يوم القيامة حملة للناس خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، فقد بعثه الله ﷺ ﴿ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝ ﴾ (١) .

لم يترك الله تعالى الإنسان يعيش في الطين الذي صوره منه، وإنما أمده بالعقل والروح، ووضعها في صورة آدم الطينية ليميز بهما عن سائر المخلوقات في الإدراك، والفهم، والعلم، والنظر، والاستتباط، والقرار، والاتصال بالمال الأعلى ... وقدّر الله تعالى للعقل أن يقرر للطين مساره، وحركته، ويأخذ منه منطلقات فكره ، وأساسيات مداركه ... وقدّر للروح أن تأخذ الإنسان إلى الله تعالى، وترضي العقل بالآيات، وتبقى باحثة عن الجمال، والكمال بعيدة عن ثقل الطين، وتأولات الفلاسفة.

قدر الله تعالى للإنسان سموا يعلو به عن المادة الطينية، ويرتفع به عن المدركات العقلية، فأودع فيه روحه التي تشده إلى الله تعالى، وتمكنه من السعادة في ملكوته، وتوصله إلى عالمها النقي الخالص .

وهكذا صار الإنسان إنسانا بهيكله المادي، وفهمه العقلي، وسموه الروحي وقدّر الله له الحياة بهذه الثلاثية العجيبة ليحيا بها في عالم الدنيا والآخرة .

(١) سورة الأحزاب الآيتين : ٤٥ ، ٤٦ .

ولم يترك الله تعالى الناس لأبدانهم الطينية وحدها حتى لا تدوسهم الأقدام، ولم يتركهم لعقولهم حتى لا تضلهم الأفهام، ولم يترك الروح تستبد بهم، فأنزل القرآن الكريم تفصيلا لكل شيء، وأنزل السنة النبوية تبيانا للقرآن الكريم، وعلم رسول الله ﷺ أصحابه رضي الله عنهم، والمسلمين طرق الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية من وحي الله المنزل، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ (١).

لقد خلق الله تعالى الإنسان، وشرع له ما يصلحه ظاهرا وباطنا، ووضع له المنهج الشامل لكل عناصره ليستقيم عليه، ويسعد به في الدنيا، وفي الآخرة.

إن الصانع الحكيم سبحانه وتعالى خبير بما خلق وصنع، عليم بحاجات المخلوقات، ولذلك كان التطابق التام بين عناصر الإنسان وبين عناصر الدين الذي نزل له، وأكد الواقع والتاريخ أن السعادة والصلاح تتحقق للإنسان مع دين الله تعالى وشريعته، وتختفي مع غيره من النظم والمناهج، لأن شرع الله ﷻ يخاطب عناصر الإنسان، ويربيها، ويشرع لها ما يصلحها، ويسعدها في الدنيا والآخرة.

هذه الحقيقة هي موضوع هذا الباب الذي سأعرف به - بعون الله تعالى - بالإنسان والعناصر الرئيسية التي خلق بها، ومنهج الإسلام للمحافظة على كل عنصر، وذلك في الفصول التالية: -

(١) سورة آل عمران الآية: ٧٣.

الفصل الأول

المحافظة

على عناصر الإنسان

المحافظة على عناصر الإنسان

الإنسان هو الكائن المرئي العاقل في هذه الدنيا، ميزه الله تعالى بالعقل، واختاره خليفة له، وسخر له الكون كله، ومكنه منه ، فجاب الفضاء، وزرع الأرض، وشق الجبل، واستخرج المعادن والحديد، ...

وقضى الله تعالى بنهاية الحياة الدنيا لتبدأ الحياة الأخرى بعدها، وفيها يستوفي كل عاقل جزاء ما عمل في الدنيا .

وقدر الله تعالى للدنيا أن تمتلئ بمخلوقات عديدة، عرفها للإنسان ليتعامل معها بما يحقق الخير له .

ففي الدنيا إبليس وذريته ، فقد أنظرهم الله تعالى إلى يوم القيامة، وتركهم بين الأدميين للوسوسة ، والإغواء ، والإفساد .

وفي الأرض ملائكة يرسلهم الله تعالى ، ويكلفهم بالتدوين والتسجيل ، والإعانة، والنصرة .

وفي الدنيا توجد مخلوقات عديدة لخدمة الإنسان .

لقد كون الله تعالى الإنسان من الجسد ، والعقل، والروح، ليتعامل مع الموجودات ، ويتصل بالموجد سبحانه وتعالى .

وأنزل الله تعالى الكتب، وأرسل الرسل لهداية الإنسان للحق، وتعريفه بالصرط المستقيم، وختم الله تعالى الرسالات والأديان بمحمد ﷺ ، وبدينه الخاتم، وقدم للإنسان المنهج القويم الذي يصلحه، ويصلح له الحياة .

وفي هذا الفصل سأتناول بالبحث التعريف بالإنسان، وتحديد عناصره ، والوسائل التي ترتقي بهذه العناصر بصورة إجمالية، من خلال المباحث

التالية : -

المبحث الأول التعريف بالإنسان

يخطئ من يتصور أن الإنسان هو المادة التي يراه بها، فما المادة إلا عنصر واحد من العناصر التي يتكون منها الإنسان، ولربما كانت هي أقل العناصر دلالة عليه، ففي سائر المخلوقات ما هو أحسن منها، وما هو أكثر ظهورا عنها .

فلو كان الحسن في الضخامة في الكائنات ما هو أضخم من الإنسان كالأرض بسعتها، والجبال بعلوها وارتفاعها، والفيل بضخامته.

ولو كان الحسن بالقوة، وشدة الحركة ففي الحيوانات ما هو أقوى من الإنسان كالأسد، والحصان، والجمل...

ولو كان الحسن بجمال الصورة، ففي النبات، والطير، والماء ما هو أجمل وأحلى من الإنسان .

إن الإنسان ليس هو البدن وحده، ولكنه مكون من عناصر عدة خلقه الله ﷻ بها، وفضله بسببها على كثير من خلقه، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَمَمَلَكْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (١) .

إن التأمل في الإنسان وهو في عالمه الدنيوي يبين صورته المادية المحسوسة، والداخلية المستورة، وفيها العديد من الأعضاء والأجهزة، مثل القلب، والمعدة، والرئة، والأمعاء، والكبد، والطحال،

والجسد المادي وعاء يحتوي على كثير من العناصر المعنوية التي تظهر آثارها، وتغيب حقيقتها، ويشعر الإنسان بها خلال فكره، وميوله،

(١) سورة الإسراء الآية : ٧٠ .

وعواطفه، ورضاه، وغضبه .

فمن خلال أعضاء الجسد نرى عديدا من القوى المعنوية الكامنة فيها
مثل رؤية العين، وصوت اللسان، وحركة اليد، وسريان الدم، وعمل الأجهزة
البدنية كلها، ...

ومن خلال حياة الإنسان ندرك هيمان الروح، ولوعة الحب، وشدة
الغضب، وتذكر الماضي، وتصور المستقبل، والتعبد لله رب العالمين .
إن المجاهد يقبل على الموت راضيا اقتناعا بعقله، وخضوعا لروحه،
ولعنا نذكر "عمير بن الحمام الأنصاري" رضي الله عنه وهو يلقي تمرات من يده
ليسرع إلى الاستشهاد يوم بدر وهو يقول: (**لئن حييت حتى آكل تمراتي إنها**
لحياة طويلة) (١) .

لقد اخطأ الماديون خطأ فاحشا حينما زعموا أن الإنسان هو المحسوس
المادي، وما عداه لا وجود له.
وأخطاوا خطأ أفحش وأكبر حينما رأوا الوجود المحسوس، وأنكروا الموجد
له، وتصوروا أنفسهم على صواب، بينما هم على خطأ واضح.
إنهم يقرون بالإدراك العقلي، والتذكر الذهني، والتصور الخيالي،
ويزعمون أن هذه العمليات مدركة بالحس، مع عجزهم عن معرفة حقيقتها
.... وإن كانوا يعرفونها فليوضحوا لنا ماهيتها، وحقيقتها، ... ولن يستطيعوا
لأنها غيب كالروح تماما.
إنهم يدركون الأثر فقط، وينكرون المؤثر، وهذا أوصلهم إلى سوء الفهم،

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذکر مناقب عمير بن الحمام بن

الجموح رضي الله عنه - حديث: ٥٧٩١ .

وسوء التقدير، وسوء الحكم، وحرمتهم من فهم روح الإنسان، فأنكروا قوتها، وأنكروا انجذابها لخالقها، وسعادتها في ملكوته وعلاه، ولم يدركوا مدى تعلق روح المؤمن بالله تعالى، ومدى حبه للقائه، وحب الديمومة معه في جنات النعيم.

وسبب خطيئهم الواضح هو تصورهم العاجز عن فهم عناصر الإنسان، وإنكارهم للروح، وظنهم أن العقل قوة حيوية ناشئة من تلاقي أعضاء الجسد، بل حاولوا اكتشاف ما هية الروح التي شعروا بها في ضمائرهم، ورأوها في الأمراض النفسية التي تلحق بهم، فعجزوا عن الوصول لشيء، ولعب بهم الشيطان، فجعلهم يهتمون بتحضير الأرواح، ويتصورون حركتها أمامهم، وهذا من لعب الشيطان بهم .

إن كل إنسان يأكل ويشرب ويمشي ويعمل بجوارحه، ويفكر ويفهم ويناقش بعقله الذي لا يراه أحد، ويهيم ويتمنى بروحه، ويتعاطف، ويتعلق بمعان لا وجود لها إلا في خياله ، وتصوراته الذهنية .

إن الإنسان جسد، وعقل، وروح كما يبدو من خلال تعاملاته ، ونشاطه، وأخلاقه وأمانيه ، فليس هو مادة فقط ، وليس هو عقل فقط، وليس هو روح فقط، إنه مجموع هذه الثلاثة، ولكل منها أثره الثابت المعروف .

وقد أكرم الله تعالى الإنسان فأوجده بعناصره جميعا ، وبين في شرعه حدود استقامة هذه العناصر ، ووضع منهج تقويمها ، والاستفادة بها في إصلاح الإنسان، وتحقيق السعادة له في الدنيا وفي الآخرة .

ولذلك ضل كثير من الناس حينما أنكروا كافة عناصر الإنسان، وأضلوا أتباعهم الذين يظنونهم على صواب .

ومن عجيب صنع الله تعالى الترابط المتين بين عناصر الإنسان وتماسكها، وظهورها في هيئة واحدة، لا ينفصل بعضها عن الآخر، فالجوارح تعمل وتتحرك بتوجيهات من الإرادة العقلية، واستجابة للميل الروحي، والانفعال الوجداني .

وتصور انفصال عنصر عن غيره تصور لا يتحقق إلا عند الموت والفناء ، والواقع يشهد لذلك ، فالجوارح تتوافق مع الروح أمنا ورضى ، والعقل لا ينفصل عن الروح رقبيا ورفعة، ولا يبتعد عن الجوارح أمرا ونهيا، والروح إحساس بعمل الجوارح ، وارتقاء بفكر العقل .

إن بعض العناصر قد تظهر عمليا في بعض الحالات ، إلا أن الحقيقة تؤكد اتصال هذا العنصر حين ظهوره ببقية العناصر المستورة .

وقد جاء الإسلام لصناعة الإنسان بكل عناصره ، فنظم له عقله ، بالعقيدة ، ونظم روحه بالإيمان، ونظم جوارحه ووجدانه بالشرعية والأخلاق ، وبجميع تعاليم دين الله تعالى يكون الإنسان إنسانا .

وقد اضطر العلماء إلى دراسة عناصر الإنسان عنصرا عنصرا ، فأفردوا لكل عنصر دراسة خاصة كمنهج تربوي للتفهم بعيدا عن الواقع لبيان عظمة صناعة الله تعالى للإنسان .

المبحث الثاني التعريف بعناصر الإنسان

يتكون الإنسان من عدد من العناصر ، وأهمها ما يلي : -

العنصر الأول الجسد

الجسد أو البدن هو الهيكل المادي المحسوس للإنسان بما حواه من جلد ، وعظم، ومفاصل، تخفي تحتها أجهزة عديدة مثل المعدة، والرئة، والأعصاب، والعروق، إلخ

وقد قدر الله تعالى لأجزاء هذا البدن أن تعمل لتمد الجسد بالحيوية، والطاقة التي تنميه، وتحفظه، وتمكنه من العمل، والنشاط، والقيام بما كلف به ...

فالجهاز الهضمي يأخذ الطعام ويهضمه، ويستخرج منه عصارة الدم، ويرسلها للقلب، ويخرج الفضلات ، ...

والجهاز التنفسي يستنشق الهواء، ويرسله للرئة لتأخذ منه ما ينفع البدن، وتطرد ما لا يفيد .

ويعمل الكبد والقلب، والعروق والشرابين على تغذية الجسد كله بطريقة شاملة، حيث تعمل أجزاء البدن الظاهرة، والباطنة في تكامل ونظام قدره الله تعالى فيها بلا تدخل من الإنسان ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ ﴾ (١) .

والجسد هو أول ما خلقه الله تعالى في الإنسان حين أمر الملائكة أن تصنعه من الماء والتراب، وتشكله بصورة معينة، وتتركه حتى يجف ويصير

(١) سورة الأنعام الآية : ٩٦ .

صلصالا كالفخار ، وبعد مدة قدرها الله تعالى لهذا الجسد الطيني نفخ الله ﷻ فيه من روحه ، فتحرك الطين، وقامت عناصره بوظائفها بأمر الله تعالى ، وصار الطين إنسانا هو آدم ﷺ .

وقدر الله تعالى للإنسان أن يتكاثر بصورته المركبة من الجسد والروح بنحو جديد مع المحافظة على عناصره الأولى، فأخرج الله تعالى من جانب آدم ﷺ زوجته حواء عليها السلام، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، وامتألت الأرض بأبناء آدم وحواء- عليهما السلام .

إن الإنسان في كل وقت، وفي أي مكان نسل لآدم ﷺ ، فهو مكون من الطين، والروح، وهو وإن تغيرت كيفية إخراجها للوجود محافظ على عناصره الأساسية ، فقد قدر الله تعالى لأبناء آدم أن يخرجوا للحياة بعد تزواج ذكر بأنثى، وقدر للوليد أن يولد وفيه كافة العناصر التي تتطور، وتنمو مع تطور الجسد ونمائه.

والماديون على اختلاف مذاهبهم يرون الإنسان جسدا ماديا فقط، ويفسرون ما فيه من فهم، وإدراك بأنه أثر للطاقة الحيوية الناشئة من التقاء أجزائه المادية، ويذهبون إلى أن الإنسان تطور من خلية واحدة حتى وصل إلى ما هو عليه، وسينتطور إلى أكثر من ذلك .

والماديون يخطئون في فهمهم للإنسان ، ويعجزون عن إدراك أجزاء عديدة في الجسد ، ولا يقدرّون على تفسير أعمال عديدة للإنسان ، فهم لا يدرون شيئا عن الأعصاب، ولا يدركون مكان العقل، وكيفية التعقل ، ... ويقفون حيارى أمام التواصل المدهش بين الأجهزة الباطنية المختلفة ، ومنتجاتها العديدة التي يحتاجها الجسد كله ،

ويعجز الماديون تماما أمام معرفة سر الحياة الموجود في ماء الرجل والمرأة ، ولم يتمكنوا أن يفعلوا شيئا مع عقم الرجل أو المرأة، أو عقمهما معا. وقد حدثني مرة أحد هؤلاء الماديين، وقال لي: إننا ندرك وجود روح في الكون لها قوة، ولها تأثير على المادة ، ونحن نحاول معرفتها والوصول إليها فقلت له: لقد عرفها المؤمنون بالله قبلكم بقرون عديدة، وآمنوا بالله الخالق لها، والخالق لكل موجود، وخير لكم أن ترجعوا للحق، وتؤمنوا بالله تعالى، وتكونوا له مسلمين .

إن المؤمنين يدركون قدرة الله تعالى في الخلق والإبداع ، فهو سبحانه الذي وضع الحياة في الطين، ووهب الذكر والأنثى، وصور الإنسان كما أراد، وخلق الأعضاء، والمفاصل، وركب البدن على ما هو عليه، وجعل لكل جزء عملا، ووجد الحركة، ووضعها في طريق واحد ليكون الإنسان كاملا بها إن الحديث عن الجسد يتضمن الحديث عن الطاقة الحيوية التي تلازمه بصورة تلقائية، وبلا وعي وقصد كما قدر الله تعالى لها، فالعين ترى، والأذن تسمع ، والقلب يدق، والمعدة تنقبض وتنبسط، ومثلها العضلات والأحشاء والعروق بقدر الله وحده .

إن الطاقة الحيوية تلازم الجسد، وتحتاج للرعاية ، وصناعة الجسد تعني العناية بالجسد، وطاقته الحيوية، وهو ما سنتحدث فيه فيما بعد .
إن الطاقة الحيوية للجسد ليست هي العقل، لأن العقل إدراك كلي للوجود ، وفهم للواقع بطريقة حسابية دقيقة .
إن الجسد الآدمي صناعة الله تعالى، وهو على كل شيء قدير .

العنصر الثاني العقل

العقل عنصر رئيسي في الإنسان ، ونعمة من أكبر نعم الله تعالى، أتى للجسد مصاحبا للروح، فسكنه وأقام معه، وصار طاقة الفهم والنظر، وأداة العلم والمعرفة، يمد الجوارح بالمحسوسات البديهية ويستتبط منها معان جديدة ويتخذ القرار المناسب لها، ترى الجوارح الشمس فيدرك العقل وجود النهار، وتسمع الأذن صوت القطار فيعلم قدومه، ويرى الأثر فيعلم المؤثر .
إن العقل المدرك في الإنسان ظهر في الطين بعد نفخة الروح ، وبه كان علم الإنسان وفهمه، وكانت عظمته، وخلافته لله تعالى .

إن العقل ملكة الفهم والإدراك، وطريق معرفة براهين الإيمان بالله تعالى، وهو يختلف عن الروح اختلافا كبيرا ، لأنه ينظم أفكاره ، ويربط الدليل بالمدلول، ويبحث عن الاقناع والرضى، بينما الروح تتحرك بطاقة الحب والإعجاب ، وتتخطى مراحل الفكر لتتصل بأصل الوجود في رحلة سريعة لا يقدر عليها العقل البشري، فهي لا تسلك مسلكه، ولا تعيش منهجه، إنها تتخطى الحواجز، وتتذوق حلاوة القرب، وتنبهر بما تلمسه من جلال وكمال، ومع ذلك تستمر في اتصالها بالعقل، وتأخذه معها في مواجهتها، ومقامات رقيها،

إن الروح تهيم بالحب في جلال الله تعالى، وتسعد مع القدر وهو يحرك الوجود ، سأل موسى عليه السلام ربه، وقال : ﴿ رَبِّ ارْزُقْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (١)، فقال له الله عز وجل : ﴿ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنَّ أَنْظُرَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ

(١) سورة الأعراف الآية : ١٤٣ .

تَرَكْنِي ﴿ (١)، فنظر موسى ﷺ إلى الجبل بروحه ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴿ (٢) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : (سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال ﷺ: نور أنى أراه) (٣) إنها الروح في سبحاتها، وموطن عشقها، ورجائها ولقد فتن الإنسان بالعقل منذ القدم، فحاول أن يعرف أصل الحياة بعقله فعجز،... وفي العصر الحديث فتن الإنسان بعقله حين اكتشف المخترعات، ووصل للقمر، واكتشف الطاقة الذرية ، واخترع الصواريخ، ... ومع هذا الافتتان ضيعه عقله، ووقف به في المحيط المادي فعجز عن إدراك أسرار عديدة في هذا الوجود، وعجز عن إدراك ما في المأ الأعلى، ولم يتصل بالله تعالى .

لقد ارتد العقل خاسئا لصاحبه حينما تصور قدرته على كل شيء، وهو التصور الذي أدى إلى إنكار الروح، وعدم الإيمان بالله رب العالمين .
إن الله تعالى أوجد في الإنسان العقل، وحدد مساره، ودعاه إلى النظر في الوجود، وما فيه من آيات بينات تدل على الله سبحانه وتعالى .
إن المجال العقلي هو الواقع الذي وجه الله الإنسان إليه، يقول الله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿ (٤) ، ويقول ﷺ : ﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿ (٥) .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٤٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٤٣ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام : " نور أنى أراه " - حديث : ٢٨٧

(٤) سورة الذاريات الآية : ٢١ .

(٥) سورة فصلت الآية : ٥٣ .

العنصر الثالث الروح

خلق الله تعالى آدم عليه السلام من الطين، وأبقاه بين الملائكة صورة جامدة ، فلما قدر كرامته نفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة أن تعظمه، وتقدره، لما أودع فيه من روحه، يقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١)

وهكذا ارتفع شأن الطين بالروح، ولم يعد جامدا كما كان، وظهرت طاقة الجسد الحيوية في صور بسيطة ملازمة للجسد، فلما تطور الجسد قويت النفس، وصارت عقلا أخذ يدرك، ويفهم، ويتكلم، وتحول الطين إلى إنسان له خصائصه، ووظائفه، فقد اختصه الله تعالى بالمعرفة ، والعلم، واختاره لخلافته في الأرض .

ووجد العقل مع حيوية الجسد لتعمير الأرض كما أراد الله تعالى بالتخطيط والعمل.

وأراد الله تعالى للروح أن تبقى في عالمها الخاص بها متميزة عن الجسد، ومغايرة للعقل، تمدهما بالحياة والحيوية، وتشدهما إلى العالم الذي هبطت منه ، وتهتدي إلى الله تعالى بفطرتها، وتتصل به سبحانه بطريقتها بلا تعب ولا جهد .

إن الإسلام يعنى عناية خاصة بالروح، فهي أكبر طاقات الإنسان، وأكثرها اتصالا بحقائق الوجود .

إن الروح في انطلاقتها لا تعرف الحدود، والقيود، ولا تعرف الزمان والمكان،

(١) سورة الحجر الآية : ٢٩ .

المبحث الثالث وحدة عناصر الإنسان

الإسلام يحترم عناصر الإنسان كلها، فهي هبة الله التي خلقها له، وحدد قدراتها، وطاقاتها، وقدر لها أن تتعاون في إخراج إنسان سوي في كيان واحد متكامل ، متماسك إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وعناصر الإنسان تتشأ معه ، وتنمو بنموه، وتتطور بتطوره.

وهذه العناصر مترابطة متحدة، يكون منها عمل الإنسان، ونشاطه، وفهمه، وفكره، وميوله، وعواطفه ، وأحلامه، وأمانيه، ولذلك كان الاهتمام بتربية الإنسان من خلال تربية هذه العناصر، وتغذيتها بما يناسبها، ورعايتها بما يصلح شأنها، ويمكنها من القيام بدورها مع الإنسان .

إن الجسد المادي يتغذى بالطعام والشراب ، ويسكن بإشباع دوافعه وغرائزه.

والروح طاقة معنوية تتغذى بالتسامح، والخلق الكريم، وتشبع بالتوافق التام مع الإيمان بالله تعالى .

والعقل قوة معنوية تتغذى بالتعلم، والنظر، والتحليل، والتوجيه ، وتشبع بقيادة صاحبها إلى مناط الدليل، وحقيقة المدلول عليه .

والإنسان بهذه العناصر الثلاثة أشبه بقافلة في سفر تبغي الوصول لمكان معين، فإن قادتها الروح وصلت، وإن قادها العقل المهتدي بروحه وصلت، والجسد لا يمكنه مخالفة العقل والروح .

وكل مذاهب الأرض تضع المناهج لتكوين إنسان يرضى بها، وترضى به، ويعمل لها، ويكون جندياً من جنودها .

والإسلام دين الله تعالى جاء على عادة الناس، فحدد لكل عنصر في الإنسان منهجا يصلحه ويزكيه، ويراعي ما يتصل به ، وما ينتجه، مع ربط العناصر جميعا في إطار واحد يظهر منهج الله تعالى في صناعة الإنسان كله .

وهنا أمور لابد من التذكير بها مع المنهج الإسلامي:

الأمر الأول : تربية عناصر الإنسان تبدأ من المراحل الأولى في صناعته قبل الإقدام على الزواج ، ومع الحمل، والإرضاع ، والحضانة، ففي كل هذه المراحل يحسن الحرص على أي عمل يفيد الولد في جسده، وعقله، وروحه .

الأمر الثاني : دراسة منهج تربية كل عنصر على حده لا يعني انفصال أي عنصر عن بقية العناصر، لأنها مترابطة، ومجتمعها في منهج عام ، واستقلال العنصر عن غيره لا وجود له في الواقع، وتقسيمه منهج دراسي للتفهم والتعليم .

الأمر الثالث : تربية عناصر الإنسان تبدأ قبل زواج الوالدين، وقد سبق ذكر هذه التربية حين الاختيار، وبعد الحمل، وحين الرضاعة والحضانة، وعند تكليف الولي بالإشراف على الطفل وعلى ماله وهو ضعيف.

الأمر الرابع : الاهتمام بتربية الإنسان وتوجيهه بعدما يستقل بالغا، راشدا، مكلفا بشرع الله ﷻ ليطبقه في ذاته، وفي المجتمع من حوله، وفي حاجات الأمة وقضاياها .

الفصل الثاني

نظام الإسلام

في المحافظة على الدين

(العنصر الأول)

المحافظة على البدن

رأينا فيما سبق كيفية العناية بالولد ، والمحافظة عليه من وقت مبكر يبدأ عند التفكير في الزواج، وعند علوق النطفة ، وبعد خروج الوليد من بطن أمه إلى أن يصير مكلفا ، عاقلا، راشدا .

ورأينا تفصيلات الشريعة في أحكام الرضاعة ، والحضانة، والولاية على نفس الصغير وماله للمحافظة عليه أثناء ضعفه وحاجته .

ورأينا كيف حافظت الشريعة الإسلامية على بدن الصغير ، وراعت كافة حاجاته النفسية ، والعقلية، والعاطفية ، وأمرت بمراعاته .

والمحافظة على الإنسان لا تقف عند مرحلة الضعف والصغر، وإنما هي شرع ممتد مع المكلف إلى أن يغادر الدنيا عند انقضاء أجله ، ولذلك شرع الإسلام ضرورة أن يحافظ الإنسان على شئون نفسه جميعا لينمو نموا متوازنا ببدنه، وعقله، وروحه، وعواطفه، ويعيش في الدنيا صحيح البدن ، خاليا من المرض، متمتعا بكل ما أنعم الله عليه به من زينة الحياة الدنيا في إطار المنهج الإسلامي .

ولذلك جاءت التكاليف الشرعية للمكلف ليحافظ على بدنه بعدما صار مسئولا ليتمكن من القيام بدوره في الدنيا ، ويسعد بعمله في الآخرة .

والمحافظة على البدن تتحقق بتغذيته، وتنشيطه بالرياضة البدنية، والمزاح، والموانسة، ومخالطة الناس، والعناية بالصحة الوقائية ، والعلاجية .

وسوف أبين - بإذن الله تعالى - في هذا الفصل نظام الإسلام في

المحافظة على البدن، وذلك في المباحث التالية : -

المبحث الأول التغذية بالحلال الطيب

أساس المحافظة على الجسد تغذيته بما يناسبه من طعام، وشراب كما وكيفا، ووقتا ... مع الاعتدال في الطعام والشراب ، لأن الزيادة تضر الجسد كالنقص تماما .

وقد اهتم الإسلام بطعام الإنسان ، وشرابه في حدود هذا الاعتدال ، فقال تعالى: ﴿ كَلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ (١) . فأمر سبحانه وتعالى بالأكل والشرب من رزق الله تعالى الذي أوجده ، وأحله .

وأثبت الله تعالى حل الطيب من الطعام في سؤال تقريري، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٢) ؟ ...

وكما أمر الله تعالى بالأكل والشرب مما أحله للناس حرم الأكل والشرب من أمور حرمها عليهم لذاتها، أو لما يتصل بها ، فقال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَخُلُقُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ (٣) * وقال ﷺ : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ

(١) سورة سبأ الآية : ١٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٣٢ .

(٣) سورة المائدة الآية : ٣ .

* والميتة هي التي فارقتها الروح من غير ذكاة ، والدم هو المسفوح بعد الذبح، والخنزير هو الحيوان المعروف بنجاسة عينه، والمنخنقة هي التي ماتت بالخنق، والمنقوذة هي التي ماتت بالضرب، والمتردية هي التي ماتت بسقوطها من مكان عال، والنطيحة هي التي ماتت بنطح=

تُقْلِحُونَ ﴿١﴾ (١)، لما في التحليل من حكم ومنافع، ولما في المحرمات من فساد وضرر .

وقد أباح الله تعالى للإنسان أن يأكل من أي طعام حلال يشتهي، ولا يعيب طعاما أحله الله ﷻ، فقد ثبت أن النبي ﷺ لم يعيب طعاما قدم إليه قط، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (ما عاب النبي ﷺ طعاما قط ، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه) (٢) .

وقد أشار الإسلام إلى ضرورة تناول الطعام المفيد في التغذية، المتضمن للعناصر الغذائية التي اكتشف الطب الحديث ضرورتها للإنسان، ومن ذلك : -

- أن النبي ﷺ كان يأكل لحم الدجاج، والضأن، والماعز طريا ومشويا، فعن زهدم الجرمي رضي الله عنه قال : (دخلت على أبي موسى وهو يأكل دجاجة فقال : ادن فكل ، فإني رأيت رسول الله ﷺ يأكله) (٣) ..
- وعن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، عن أبيه، قال : (رأيت رسول الله ﷺ يحتز من كتف شاة ، فأكل منها، فدعي إلى الصلاة، فقام وطرح السكين ، وصلى ولم يتوضأ) (٤) .

= غيرها لها ، وأكل السبع بعض النعم يحرم الباقي ، وقد أشارت الآية إلى هذه المحرمات التي لا يجزأ أكلها ، وبيئت أن أكلها فسق وخروج عن طاعة الله تعالى .

(١) سورة المائدة الآية : ٩٠ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم - حديث : ٣٣٩١ .

(٣) سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، باب ما جاء في أكل الدجاج، حديث : ١٧٩٥ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب الحيض، باب نسخ الوضوء مما مست النار - حديث : ٥٦٠ .

- وعن عطاء بن يسار رضي الله عنه (أن أم سلمة رضي الله عنها أخبرته: أنها قربت إلى رسول الله ﷺ جنباً مشوياً، فأكل منه، ثم قام إلى الصلاة وما توضأ) (١)
- كما حرص رسول الله ﷺ على تناول اللبن ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (دخلت أنا وخالد بن الوليد مع رسول الله ﷺ على ميمونة بنت الحارث ، فقالت : ألا نطعمكم من هدية أهدتها لنا أم عفيق ؟ فجيء بضبين مشويين ، فتبزق رسول الله ﷺ . فقال له خالد : كأنك تقذره ؟ قال ﷺ : " أجل " .
- قالت : ألا أسقيكم من لبن أهدته لنا ؟ فقال ﷺ : بلى .
- قال : فجيء بإناء من لبن ، فشرب رسول الله ﷺ وأنا عن يمينه ، وخالد عن شماله ، فقال لي : الشربة لك وإن شئت آثرت بها خالداً " فقلت : ما كنت لأؤثر بسؤرك علي أحدا .
- فقال ﷺ : من أطعمه الله طعاماً فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وأطعمنا خيراً منه ، ومن سقاه الله لبناً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، فإنه ليس شيء يجزئ مكان الطعام والشراب غير اللبن) (٢) .
- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى ، ويحب العسل) (٣) .

(١) سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، باب ما جاء في أكل الشواء، حديث : ١٧٩٨ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل - ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس - حديث : ١٩٠٧ .

(٣) مسند أحمد بن حنبل - مسند الأنصار - حديث السيدة عائشة رضي الله عنها ، حديث : ٢٣٧٥٨ .

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (إن خياطاً دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه ، قال أنس بن مالك : فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام ، ففرد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزاً ومرقاً ، فيه دبء وقديد ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم " يتتبع الدبء من حوالي القصعة .
قال : " فلم أزل أحب الدبء من يومئذ) (١) .
- وعن سويد بن النعمان رضي الله عنه قال : (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر ، فلما كنا بالصهباء - قال يحيى : وهي من خيبر على روضة - دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بطعام ، فما أتى إلا بسويق ، فلكناه ، فأكلنا منه ، ثم دعا بماء ، فمضمض ومضمضنا ، فصلى بنا المغرب ولم يتوضأ) (٢)
- وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من تصبح بسبع تمرات عجوة ، لم يضره ذلك اليوم سم ، ولا سحر) (٣) .
- وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال : (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يأكل الرطب بالقثاء) (٤) .
- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأكل البطيخ بالرطب فيقول : نكسر حر هذا ببرد هذا ، وبرد هذا بحر هذا ") (٥)

(١) صحيح البخاري - كتاب البيوع، باب ذكر الخياط - حديث: ٢٠٠٣

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأطعمة، باب ليس على الأعمى حرج - حديث: ٥٠٧٤

(٣) صحيح مسلم - كتاب الأشربة، باب فضل تمر المدينة - حديث: ٣٩٠٧

(٤) صحيح البخاري - كتاب الأطعمة، باب القثاء - حديث: ٥١٣٦

(٥) سنن أبي داود - كتاب الأطعمة، باب في الجمع بين لونين في الأكل - حديث: ٣٣٥٧ .

وفي هذه الأحاديث دلالات على أن رسول الله ﷺ كان ينوع طعامه لينوع العناصر الغذائية التي يحتاجها البدن، فلقد بين العلماء والأطباء في العصر الحديث أن رسول الله ﷺ كان يحافظ في طعامه على العناصر الغذائية التي يحتاجها الجسد، لأن الجسد محتاج إلى البروتين، وهو موجود في اللحم واللبن ... ومحتاج إلى الكربوهيدرات ، والدهن ، وهو موجود في الحلوى، والعسل، والتمر ومحتاج إلى النشويات وهي موجودة في خبز الشعير والقمح ... ومحتاج إلى الأملاح المعدنية، والفيتامينات وهي موجودة في الخضروات، والفاكهة، والقثاء، والبطيخ، والدباء .

ولم يكتف الإسلام بإرشاد المسلمين إلى تنوع الغذاء، والاهتمام بالعناصر التي يحتاج البدن إليها ، وإنما أرشدهم إلى الكمية التي تصح بها أجسادهم، فنهى عن الإسراف في الطعام والشراب .

يقول الله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١).

ويقول النبي ﷺ : (ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن ، حسبك يا ابن آدم لقيمات يقمن صلبك، فإن كان لا بد فثلث طعام، وثلث شراب ، وثلث نفس) (٢)
إن النهم في الأكل يضر الجهاز الهضمي ، ويحول دون امتصاص الجسد حاجته من الطاقة الموجودة في الغذاء، ويسبب للبدن التخمة والسمنة، والأمراض العديدة ، وقد شبه النبي ﷺ النهم بالكافر ، فقال ﷺ : (المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء) (٣) .

(١) سورة الأعراف الآية : ٣١ .

(٢) صحيح ابن حبان - كتاب الأطعمة، باب آداب الأكل ، حديث : ٥٣١٢

(٣) مستخرج أبي عوانة - مبتدأ كتاب الأطعمة، بيان كراهية كثرة الأكل - حديث : ٦٧٩٢

المبحث الثاني تقوية البدن بالتربية البدنية

التربية البدنية تعني ممارسة الرياضات المختلفة التي تؤدي إلى المحافظة على صحة البدن، وترفع طاقته، وتنشط دورته الدموية، وتعوض الجسد عما يفقده أثناء جهوده وعمله .

والإنسان في كل مراحلها محب للحركة ، شغوف ببناء بدنه على وجه لائق بشبابه وقوته ، ... ولذلك كان من الخير له تقوية ميوله الفطرية بتقوية بدنه ليحقق ما يميل إليه من جري وحركة، ونشاط ولعب ، وما يحبه لبدنه من بناء، وقوة تعود بالفائدة على نفسه وعقله، وعزيمته ونشاطه .

ومن رؤية الواقع يدرك العقلاء أن الرياضة البدنية بأنواعها تمكن الجسد من النشاط، وتيسر له العمل الشاق، وتحول الشيخوخة إلى شرح الشباب .

والواقع المعاصر يؤسس النوادي العديدة لتيسير الرياضة البدنية أمام الذكور والإناث، الكبار والصغار، لتحقيق أحلامهم في النشاط والقوة . وقد اهتم الإسلام بالتربية البدنية بأشكالها المتنوعة، ومن الدلالة على اهتمام الإسلام بالرياضة حثه على رياضة المشي التي يسميها العلماء "سيدة الرياضات".

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : (كانت ديارنا نائية عن المسجد ، فأردنا أن نبيع بيوتنا، فنقرب من المسجد، فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن لكم بكل خطوة درجة) (١) .

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، حديث: ١١٠٢

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : " من تطهر في بيته ، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله ، كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة) (١) .

وبالنظر في هذين الحديثين نرى استحباب الإسلام للمشي، فقد جعل كل خطوة يخطوها المسلم ليصل بها إلى عمل حسن طريقا للجنة .

وقد سبق رسول الله ﷺ بالخييل، وهي رياضة تقوي البدن، وتدريب على السبق، والرمي، وركوب الخيل، فعن ابن عمر رضي الله عنهما (أن رسول الله ﷺ سابق بالخييل التي قد أضمرت من الحفياء ، وكان أمدها ثنية الوداع ، وسابق بين الخيل التي لم تضمر ، من الثنية إلى مسجد بني زريق " ، وكان ابن عمر فيمن سابق بها ") (٢) .

وحدث رسول الله ﷺ على رياضة الفروسية، فعن عروة بن الجعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) (٣) وحدث رسول الله ﷺ على تعلم الرمي ، فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : (مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون .

فقال رسول الله ﷺ: " ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا، ارموا ، وأنا مع بني فلان " .
فأمسك أحد الفريقين بأيديهم .

(١) صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا - حديث : ١١٠٥

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإمارة، باب المسابقة بين الخيل وتضميرها - حديث : ٣٥٦٧

(٣) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير، باب : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة -

فقال رسول الله ﷺ : " ما لكم لا ترمون ؟
فقالوا : يا رسول الله نرمي وأنت معهم .
قال ﷺ : " ارموا، وأنا معكم كلكم " (١) .

لقد حافظ المسلمون في رياضاتهم على خلق الإسلام ، ولم يحولوا
السباق إلى صراع وعداوة كما يحدث في عالم البشر اليوم .
إن اهتمام الإسلام بالرياضة البدنية يجب أن يكون في إطار الشريعة
الإسلامية، وذلك يعني أن تكون هذه الرياضة في أوقات لا تضيق واجبا
دينيا، أو دنيويا ولا تؤدي إلى تعطيل عمل اجتماعي، ولا توقع أحدا في
خصومة، أو توقعه في مخالفة شرعية مثل كشف العورة ، أو القيام بعمل
غير مقبول في الإسلام .

وقد ربط الإسلام دعوته للقيام بالرياضة البدنية بالقيم الإسلامية، وجعل
الغاية من القيام بها أن يخدم الإنسان نفسه ، ودينه، وأمته ، ويؤدي ما وجب
عليه لله تعالى وللناس، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله
ﷺ وهو على المنبر يقول : " **﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾** (٢)، ألا إن
القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي) (٣) .

وقد عد الفقهاء والعلماء العبادات الإسلامية بشروطها ، وأركانها ،
ومقاصدها رياضة بدنية ، وروحية ، ففي الصلاة حركة ، وقيام، وركوع،

(١) صحيح البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى : **﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾** لأنه كان

صَادِقَ الْوَعْدِ ﴿ - حديث : ٣٢٠٩

(٢) سورة الأنفال الآية : ٦٠ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه - حديث : ٣٦٣٣

وسجود ، وفي الزكاة إعانة للفقراء، وتفاعل معهم لتكوين الجماعة المتعاونة ، وفي الصوم تدريب على الجوع ، وتربية للأجهزة الباطنية، ففي الحديث يقول النبي ﷺ : (صوموا تصحوا) (١) ، وفي الحج مشي، وسفر، وهرولة، وسعي، وتنقل بين مشاعر الحج في منى، وعرفة، ومزدلفة، وتدريب على المبيت في الخلاء بثياب موحدة وبسيطة، مع التوجه بالنية في العبادات لله رب العالمين .

لقد عقد بعض العلماء مقارنة بين أعمال الكشافة العالمية، وبين مناسك الحج، وبين ما بينهم من شبه، حيث رأى فيهما الحركة في الخلاء بملابس بسيطة، والمبيت في خيام ، والقيام بنشاط ثقافي، وتعارف بين المشاركين، والقيام بأعمال بسيطة تجمع حركة البدن، وفكر العقل، وسمو الروح ... وانتهى من مقارنته إلى أن مشاعر الحج، وأعماله تمثل حركة استكشافية إسلامية عالمية تجمع الأمة كلها في وقت واحد، وفي مكان واحد عدة أيام فيها ذكر الله تعالى، ومعرفة الإسلام، والوقوف على أحوال المسلمين في كل مكان في إطار مشروع، وعبادة مفروضة، تدل على تميز الإسلام وحسن بنائه للإنسان .

إن فريضة الحج تظهر بجلاء وحدة الأمة الإسلامية، وتدعو إلى أن يهتم المسلم بأخيه مهما بعد عنه مكانه، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢)

وهنا نشير إلى أن الحج في الإسلام عبادة مفروضة ، تتكرر كل عام

(١) المعجم الأوسط للطبراني - باب العين - حديث : ٨٤٧٣ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٩٢ .

يلتقي فيها المسلمون من كل مكان يعبدون الله تعالى، وقيمون في أماكن خالية عدة أيام ، يناقشون مشاكلهم، ويحيطون بأحوال دول الإسلام ومواطنه، ويقفون على واقع الحياة، ويرسمون عوامل تقوية دينهم، وأمتهم وهم في رحاب الله تعالى، ويسترجعون الأيام الأولى لدولة الإسلام في عهد رسول الله ﷺ ، والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم .

إن الإسلام يدعو إلى قوة المسلم البدنية، لينفع نفسه، ودينه، وأمته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : المؤمن القوي، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز) (١) .

وسبب هذه الخيرية أن المؤمن القوي ينفع نفسه، ودينه ، وغيره أكثر من الضعيف، وخيرية الضعيف تكمن في نيته، لأن ضعفه لم يكن مقصدا له .
وعلى الجملة :

فإن ما سبق ذكره يوضح اهتمام الإسلام بالرياضة البدنية لما لها من تأثير إيجابي في المحافظة على البدن ، وصيانة الإنسان ليواجه مشاق الحياة ، وتحمل أعباءها لنفسه ، وأهله ، وأبنائه ، وللمجتمع كله .

(١) صحيح مسلم - كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير

المبحث الثالث

تيسير العمل والتكليف

يوجه الإسلام الناس إلى المحافظة على أبدانهم بتيسير التكليف، وإبعادهم عن المشاق، يقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١) ، ويقول: ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٢) ، فوزع الواجبات على الأوقات ، وجعل النهار للعمل والمعاش، وجعل الليل للراحة والسكن، وأوجب المحافظة على حق البدن في السعي والسلامة .

وقد أكدت السنة الشريفة هذه الحقيقة، ... ومن ذلك : -

- عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ (أن رسول الله ﷺ قال : يا عائشة " إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على الغنف ، وما لا يعطي على ما سواه) (٣) .

- وعن عائشة رضي الله عنها أيضا: (أن النبي ﷺ كان يحتجر حصيرا بالليل فيصلي عليه ، ويبسطه بالنهار فيجلس عليه ، فجعل الناس يثوبون إلى النبي ﷺ فيصلون بصلاته حتى كثروا . فأقبل ﷺ فقال : " يا أيها الناس ، خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا ، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل) (٤) .

(١) سورة البقرة الآية : ٢٨٦ .

(٢) سورة الحج الآية : ٨٧ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق - حديث : ٤٨٠٢

(٤) صحيح البخاري - كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه - حديث : ٥٥٣٠

- وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال : (قال رجل : يا رسول الله إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها .
فغضب رسول الله ﷺ ، ما رأيتَه غضب في موضع كان أشد غضبا منه يومئذ، ثم قال : " يا أيها الناس إن منكم منفرين ، فمن أم الناس فليتجوز، فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة) (١) .
- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : (كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، يقول لنا : " فيما استطعتم ") (٢) .
- وعن أميمة بنت رقيقة رضي الله عنها، قالت: (جئت النبي ﷺ في نسوة نبايعه ، فقال لنا : " فيما استطعتن وأطقتن ، إني لا أصافح النساء) (٣)
- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال : (قال رسول الله ﷺ : " يا عبد الله ، ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ " قلت : بلى يا رسول الله .
قال : " فلا تفعل ، صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا) (٤) .

ولا يقف التوجيه الإسلامي عند العمل المستطاع ، وإنما يحث على الراحة بعد التعب، وتوزيع الواجبات على الأوقات ، ففي الزمن سعة يمكن

(١) صحيح البخاري - كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة - باب من شك إمامه إذا طول،

حديث : ٦٨٣

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأحكام، باب : كيف يبايع الإمام الناس - حديث : ٦٧٩٦

(٣) سنن ابن ماجه - كتاب الجهاد، باب بيعة النساء - حديث : ٢٨٧١

(٤) صحيح البخاري - كتاب النكاح، باب : لزوجك عليك حق - حديث : ٤٩٠٦

الاستفادة بها في العمل والراحة، والمحافظة على البدن، وأداء الواجبات في راحة ويسر .

ولعل في توزيع الصلوات على اليوم والليله ، وقصر الصوم المفروض طوال العام في شهر رمضان، وتشريع الحج للمستطيع مرة واحدة في العمر كله، بيانا جليا على تيسير التكاليف الشرعية، وسهولة الأعمال الاجتماعية ، والواجبات الدينية

وشرع الإسلام قراءة القرآن الكريم عند نشاط البدن، فعن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه) (١) .

بل إن الإسلام يبيح للمسلم أن يروح عن نفسه، ويفيد بدنه ومزاجه بما يريحه من التعب، ويبعد عنه الهموم والضيق، ويحثه على إشباع غرائزه ، وإرضاء دوافعه بما شرع الله تعالى له .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها . فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فقال : " أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج

(١) صحيح البخاري - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب كراهية الخلاف - حديث : ٦٩٥١

النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني (١) .

فهؤلاء الأصحاب الثلاثة رغبوا في الاقتداء برسول الله ﷺ ، وبخاصة في عبادته التي يقوم بها بعيدا عنهم، فلما علموها عدوها قليلة، وظنوا أنهم يحتاجون إلى العبادة أكثر من رسول الله ﷺ ، لأن رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فلما علم النبي ﷺ بهم جمعهم مع الناس، وخطبهم، وبين لهم أن الإسلام دين يسر، ورحمة، وحياته ﷺ بينهم هي الدين، فمن رغب عنها بعد عن الصواب .

وهكذا يدعو الإسلام المسلمين إلى التمتع بشرع الله تعالى في المحافظة على البدن، وإشباع الدوافع ، والتمتع بما خلق الله تعالى من نعم .
إن الله تعالى خلق الأرض والسماء في ستة أيام ليتعلم الناس الأناة في العمل، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢) .

وخلق الليل والنهار رحمة بالعباد، ليستريحوا من التعب، يقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا ﴿٥١﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣) .

ففي الليل سكن، ونوم، وراحة، وفي النهار عمل، وسعي، وشغل .
ولا يستطيع الإنسان أن يعيش على حالة واحدة، فلنفسه إقبال وإدبار، ولروحه جولات وجولات، وعليه أن يتعامل مع هذه المتغيرات برضى، وهدوء

(١) صحيح البخاري - كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح - حديث : ٤٧٧٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .

(٣) سورة النبأ الآيتين : ١٠ ، ١١ .

ولا ينزعج لحدوثها فهي قدر الله تعالى فيه .

فعن حنظلة الأسدي رضي الله عنه قال : (لقيني أبو بكر ، فقال : كيف أنت

يا حنظلة ؟ ...

قلت : نافق حنظلة .

قال : سبحان الله ما تقول ؟

قال : قلت : نكون عند رسول الله ﷺ ، يذكرنا بالنار والجنة ، حتى كأننا

نراها رأي عين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ ، عافسنا الأزواج ،

والأولاد ، والضيعات ، فنسينا كثيرا .

قال أبو بكر : فوالله إنا لنلقى مثل هذا .

فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ .

قلت : نافق حنظلة يا رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ " وما ذاك ؟

قلت : يا رسول الله نكون عندك ، تذكرنا بالنار والجنة ، حتى كأننا رأي

عين ، فإذا خرجنا من عندك ، عافسنا الأزواج ، والأولاد ، والضيعات ،

نسينا كثيرا .

فقال رسول الله ﷺ : " والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون

عندي ، وفي الذكر ، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ، ولكن

يا حنظلة ساعة وساعة " ثلاث مرات (١) .

والتكاليف الشرعية لا تشغل العمر كله ، ولذلك أباح الإسلام للمسلمين

(١) صحيح مسلم - كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك

أن يشغلوا فراغهم بأعمال اجتماعية يحبونها تعود على أبدانهم ، ونفوسهم بالفائدة، في حدود الضوابط الشرعية، ومنها الترويح الحسن ، واللعب المباح، والتفكير الذهني، فلقد كان رسول الله ﷺ يمزح مع أصحابه ﷺ ويؤانسهم.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن رجلا استحمل رسول الله ﷺ .

فقال ﷺ : إني حاملك على ولد الناقة.

فقال : يا رسول الله ، ما أصنع بولد الناقة ؟

فقال رسول الله ﷺ : " وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ " (١) .

وعن عائشة رضي الله عنها (أن نبي الله ﷺ أتته عجوز من الأنصار، فقالت :

يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلني الجنة .

فقال نبي الله ﷺ : " إن الجنة لا يدخلها عجوز " .

فذهب نبي الله ﷺ فصلى ، ثم رجع إلى عائشة .

فقالت عائشة : لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة .

فقال نبي الله ﷺ : " إن ذلك كذلك ، إن الله إذا أدخلهن الجنة حولهن

أبكارا " (٢) .

ولذلك سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن المزاح، والمداعبة، والمؤانسة،

فبين لهم ﷺ أنه يمازحهم ولا يقول إلا حقا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قالوا : يا رسول الله ، إنك تداعبنا .

(١) سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

- باب ما جاء في المزاح، حديث : ١٩٦٢

(٢) المعجم الأوسط للطبراني - باب العين، باب الميم من اسمه : محمد - حديث : ٥٦٤٧

قال ﷺ : إني لا أقول إلا حقا (١) .

وهكذا

يبيح الإسلام للناس أن يتمتعوا بما خلق الله لهم، ويروحووا عن أنفسهم ، وأرواحهم، ويتعاونوا على البر والتقوى، بشرط عدم الوقوع في ضرر أو أذى. يقول النبي ﷺ (لا تمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تعده موعدا فتخلفه)(٢) وقال ﷺ : (ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ، ويل له ، ويل له) (٣) .

ولا يصح أن يملأ المسلم فراغه بعمل غير صالح، مثل اللهو المحرم، أو سماع الغناء الفاسد، يقول النبي ﷺ: (الغناء ينبت النفاق في القلب)(٤) ويحرص الإسلام على دوام الألفة والمودة بين المسلمين، ولذلك نهى رسول الله ﷺ المسلم عن أن يضحك المسلم على فعل يصدر من أخيه بلا قصد منه، كالضراط ونحوه، فعن عبد الله بن زمعة رضي عنه قال : (نهى النبي ﷺ أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس) (٥) .

(١) سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

- باب ما جاء في المزاح، حديث : ١٩٦١

(٢) سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

- باب ما جاء في المرء، حديث : ١٩٦٦

(٣) سنن أبي داود - كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب - حديث : ٤٣٥٩

(٤) سنن أبي داود - كتاب الأدب، باب كراهية الغناء والزمر - حديث : ٤٣٠٠

(٥) صحيح البخاري - كتاب الأدب، باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ ﴾، حديث :

المبحث الرابع العناية بالصحة الوقائية والعلاجية

"العقل السليم في الجسد السليم" ، وكلما كان البدن سليماً كان قادراً على القيام بالمهام المكلف بها ، فإذا أصابه مرض أو ضعف فإنه يعجز بقدر ما أصابه .

إن الصحة هبة الله تعالى للإنسان، وقد جعلها سبحانه وتعالى سبب السعادة والسرور، ومصدر النشاط والحيوية، وقديماً قالوا : "الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يشعر بها إلا المرضى" .

إن صحة البدن أساس الشعور باللذة الجسدية، والنفسية، والعقلية، ولذلك حث الإسلام المسلمين على العناية بصحة أبدانهم، وسلامة أجسادهم ليؤدوا ما وجب عليهم من عبادة الله تعالى، ومعاملات الناس، ويتمكنوا من التلذذ والإحساس بجمال ما خلق الله لهم من متاع حلال ميسر من مسكن واسع، وملبس رائع ، وزوجة طائع ، وحياة ميسرة ، وكسب طاهر ، وولد نجيب، وعلم ينتفع به، ... أو في غير ذلك من المتع الحلال .

وقد شرع الإسلام للإنسان كل ما يحافظ له على صحته ، ... كما شرع له طرق الخروج من المرض إن ألم به ، وبذلك يصون المسلم بدنه في صحته ، ويقيه من المرض، ويعالج المرض إن أصابه ، ...

ومن هنا وضع الإسلام للصحة البدنية منهج الوقاية من المرض، ومنهج العلاج منه، وبذلك يسلم البدن بأمر الله تعالى، ويعيش المسلم متمتعاً بفضل الله تعالى، وعطائه ، وبيانهما فيما يلي : -

- أولاً -

الصحة الوقائية

الوقاية خير من العلاج، وقديما قالوا: "درهم وقاية خير من قنطار دواء".
والوقاية تعني تجنب أسباب المرض، ودواعيه في الأماكن العامة
والخاصة، وفي أي جانب من جوانب الحياة، وأول الوقاية يكون بالتنظيف
والنظافة التي أولاها الإسلام عناية خاصة .

وجعل الله تعالى النظافة والطهارة موطن حبه، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (١) فأكد ﷺ حبه الدائم للمتطهرين ظاهرا، وباطنا
كما جعل الله الطهارة شرطا من شروط صحة الصلاة، يقول النبي ﷺ:
- (لا تقبل صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول) (٢) .

- (ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها
وخشوعها وركوعها ، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم
يوث كبيرة وذلك الدهر كله) (٣) .

وجعل الله تعالى الطهارة مقدمة للدخول في الإسلام، كما فعل عمر بن
الخطاب رضي الله عنه عندما قدر الله تعالى له أن يدخل في الإسلام ، فقد ورد (أنه
رضي الله عنه قال : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه .
فقالت أخته: إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون، قم فاغتسل أو توضأ) (٤)

(١) سورة البقرة الآية : ٢٢٢ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة - حديث : ٣٥٥ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه - حديث : ٣٦١ .

(٤) المستدرک علی الصحیحین للحاکم - کتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر فاطمة بنت الخطاب، حديث : ٦٩٦٢

وقال مصعب بن عمير رضي الله عنه للسعدين - سعد بن معاذ، وسعد بن عباد-
في المدينة حينما سألاه : ماذا يفعل من يريد الدخول في دينكم ؟ ...
قال لهما : يتطهر، ويغتسل وينطق بالشهادتين ، ففعلوا، وأعلنوا إسلامهم .
والنظافة تشمل البدن كله، فقد حث الإسلام على الغسل، فجعله واجبا
بسبب الجنابة، ومستحبا يوم الجمعة، وكل أسبوع ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِن
كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهِّرُوا ﴾ (١) أي اغتسلوا من الجنابة .
ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : (الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم) (٢) ،
ويقول صلى الله عليه وسلم : (حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يوما يغسل
فيه رأسه وجسده) (٣)، وبذلك يشمل التطهير أعضاء الوضوء، والغسل،
والبدن كله .

وقد أمر الإسلام بإزالة النجاسات التي تصيب الأرض، أو الثوب، أو أي
شيء له علاقة بممارسة العبادات، أو ليس له علاقة، سواء كان لها جرم أم
لا ، كل بحسبه كما هو مفصل في شريعة الإسلام .

وحت الإسلام على غسل اليدين عند الاستيقاظ من النوم، وقبل
البدء في أي عمل، لأنهما أداة تناول الطعام، وعضو السلام والتلاقي، فعن
أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا استيقظ أحدكم من نومه ، فلا
يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا، فإنه لا يدري أين باتت يده) (٤)

(١) سورة المائدة الآية : ٦ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة - باب وضوء الصبيان ، حديث : ٨٣٤

(٣) صحيح البخاري - كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل حديث : ٨٧١

(٤) صحيح مسلم - كتاب الطهارة، باب كراهة غمس المتوضئ وغيره يده في الإناء - حديث : ٤٤٢

ومن هديه ﷺ في النظافة أنه كان إذا شرب لبنا تمضمض بعده، فعن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن النبي ﷺ شرب لبنا ، ثم دعا بماء فتمضمض ، وقال : إن له دسما) (١) .

وأنه ﷺ كان كثير التسوك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه : (أن رسول الله ﷺ قال : لولا أن أشق على أمتي، أو على الناس لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة) (٢) .

وبين ﷺ حسن لبس الثوب الجميل ، والظهور بالمظهر الحسن ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " .

قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة . قال ﷺ : إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس) (٣) وعن أبي إسحاق رضي الله عنه، قال سمعت البراء رضي الله عنه يقول : (ما رأيت أحدا أحسن في حلة حمراء من النبي ﷺ) (٤) .

وعن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة رضي الله عنه، عن أبيه قال : (أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة، فقال : " هل لك من مال ؟ " فقلت : نعم .

قال ﷺ : " من أي مال ؟ "

(١) صحيح مسلم - كتاب الحيض، باب نسخ الوضوء مما مست النار - حديث : ٥٦٣ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة - حديث : ٨٦١ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها - حديث : ١٥٦ .

(٤) صحيح البخاري - كتاب اللباس، باب الجعد - حديث : ٥٥٦٨ .

قلت : من كل قد آتاني الله من الإبل، والرقيق، والغنم .
قال ﷺ : " إذا آتاك الله مالا فليبر عليك) (١) .

وكان النبي ﷺ يحب الطيب ، يقول ﷺ : (حبب إلي من الدنيا النساء،
والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة) (٢) .

وكما حث الإسلام على النظافة الشخصية حرص كذلك على نظافة
البيئة التي يعيش فيها الإنسان، وفي ذلك يقول ﷺ :

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : (البزاق في المسجد
خطيئة، وكفارتها دفنها) (٣) .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ قال : " اتقوا اللعانين .
قالوا : وما اللعانان يا رسول الله ؟

قال : " الذي يتخلى في طريق الناس ، أو في ظلهم) (٤) .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لا يبولن أحدكم في
الماء الدائم ثم يغتسل منه) (٥) .

(١) صحيح ابن حبان، كتاب اللباس وآدابه، ذكر الأمر للمرء إذا أنعم الله عليه أن يرى أثر نعمته -
حديث : ٥٤٩٣

(٢) مستخرج أبي عوانة - مبتدأ كتاب النكاح وما يشاكله، باب ذكر حض النبي ﷺ على تزويج
الأبكار - حديث : ٣٢٥٦

(٣) صحيح البخاري - كتاب الصلاة، باب كفارة البزاق في المسجد حديث : ٤٠٧

(٤) صحيح مسلم - كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في الطرق - حديث : ٤٢٣

(٥) صحيح مسلم - كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد - حديث : ٤٥٠

وأمر النبي ﷺ بالتحوط في زيارة المرضى، وعدم الاختلاط بهم عند توقع العدوى.

فعن أسامة رضي عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم ، أو على بني إسرائيل ، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه ، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها) (١) .

وقد روى عمرو بن الشريد، عن أبيه رضي عنه قال : (كان في وفد ثقيف رجل مجذوم ، فأرسل إليه النبي ﷺ " إنا قد بايعناك فارجع) (٢) .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٣) وحرمة الإسلام الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، لأنها تسبب أمراضا خطيرة ، مثل الزهري، والسيلان، وسلس البول، ...
كما أنها تنشر التحلل الأخلاقي، والفساد الاجتماعي، وتقوض الثقة بين أطراف المجتمع كله .

إن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يشعر به إلا المرضى، ولذلك حرص الإسلام على كل عوامل الصحة من غذاء جيد، وحركة بدنية، وترويح، وتفكه، ونظافة للبدن وللبيئة التي تحيط به ، وطهارة في الخلق والسلوك، وترك كل فساد يضر الأفراد والمجتمعات .

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام، باب الطاعون والطيبة والكهانة ونحوها - حديث : ٤٢٠٥ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب السلام، باب اجتناب المجذوم ونحوه - حديث : ٤٢٣٣ .

(٣) سورة الإسراء الآية : ٣٢ .

- ثانياً -

الصحة العلاجية

- إذا وقع المرض، واعتل الجسد، وجب على المريض البحث عن الدواء المناسب لدائه عند طبيب مسلم حاذق، يقول النبي ﷺ :
- عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل) (١) .
 - وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كمية بنار، وأنا أنهى أمتي عن الكي) (٢) .
 - وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، قال : (الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء) (٣) .
- وأرشد النبي ﷺ إلى أدواء بعض الأمراض، فقال ﷺ :
- فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (إن في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام، والسمام الموت ، والحبة السوداء الشونيز) (٤) .
 - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استنطق بطنه .

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي - حديث : ٤١٧٨

(٢) صحيح البخاري - كتاب الطب، باب : الشفاء في ثلاث - حديث : ٥٣٦٤

(٣) صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق، باب صفة النار - حديث : ٣١٠٦

(٤) صحيح مسلم - كتاب السلام، باب التداوي بالحبة السوداء - حديث : ٤١٩٩ .

فقال رسول الله ﷺ: " اسقه عسلا " فسقاه .
ثم جاءه فقال : إني سقيته عسلا فلم يزدہ إلا استطلاقا .
فقال له ثلاث مرات ، ثم جاء الرابعة فقال ﷺ : " اسقه عسلا "
فقال : لقد سقيته فلم يزدہ إلا استطلاقا .
فقال ﷺ : صدق الله، وكذب بطن أخيك " فسقاه فبراً (١) .
وبالدواء يشفى المريض، ويذهب المرض ، وقد حث النبي ﷺ على
التداوي، وأمر به، فعن أسامة بن شريك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (تداووا
، فإن الله لم ينزل داء إلا وقد أنزل له شفاء ، إلا السام والهرم) (٢)
وبهذا العلاج يتحقق الشفاء بأمر الله تعالى .

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام، باب التداوي بسقي العسل - حديث : ٤٢٠٢ .

(٢) صحيح ابن حبان - كتاب الحظر والإباحة، باب الطب - ، حديث : ٦١٥٦ .

المبحث الخامس منع العدوان عن البدن

يحافظ الإسلام على البدن بصيانتته بالغذاء، والنظافة، والرياضة، والحركة، والتطهر، والعلاج من المرض.

كما يحافظ عليه بتحقيق الأمن له أثناء العمل، والحركة، وصيانتته من أي عدوان يقع عليه، فشرع الإسلام العقوبات الرادعة لمن يعتدي على أحد من الناس، فمن قتل يقتل، يقول الله تعالى : ﴿ وَكُلُّ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

فجعل الإسلام القصاص من القاتل حياة للمجتمع كله، وذلك يتأتى بتطبيق شرع الله تعالى، لأن من يعرف أنه إن قتل سيقتل ينتهي عن القتل، ولا يرتكب جريمة القتل، وهذا أمر بدهي يسلم به العقلاء، ومن حكم العرب قبل الإسلام " القتل أنفى للقتل"، وقد سبق بيان تشريع " الغرة " وهي العقوبة التي يستحقها من اعتدى على امرأة حامل واسقط وليدها .

وشرع الإسلام كذلك العقوبات على أي عدوان يقع على البدن ولم يؤد إلى القتل، فحدد القصاص في الشجاج، وإزهاق الأعضاء، وقضى بالقصاص فيها كما قضى به في قتل النفس، يقول الله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (٢) .

(١) سورة البقرة الآية : ١٧٩ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٥ .

وفي العدوان الذي لا قصاص فيه شرع الإسلام عقوبات تناسبه تسمى
بالتعزير .
وهذه العقوبات يقوم بها ولي الأمر، حماية للمجتمع، ومنعاً من الفوضى
والفساد .
وتشريع هذه العقوبات زجر عن العدوان ابتداءً، لأن من علم أن
عدوانه سينقلب عليه لن يعتدي خوفاً من المصير الذي سيقع فيه .
وشرع الإسلام حسن معاملة الإنسان لأخيه في أقواله، وأعماله، لتسود
الأخلاق الكريمة حياة الناس.

الفصل الثالث

نظام الإسلام

في المحافظة على العقل

(العنصر الثاني)

المحافظة على العقل

يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات بمزايا عدة ، أهمها وجود العقل الذي ينشأ مع البدن بسيطاً مثله، ثم ينمو ويتطور حتى يصير عنصراً في الإنسان له أهميته، ويصبح الإنسان به إنساناً يخضع له الكون، وينهض بخلافة الله تعالى في الأرض .

إن العقل في الإنسان طاقة معنوية تظهر بآثارها فقط، أما حقيقتها وتكونها فهي سر من أسرار الخلق لا يعلمها إلا الله تعالى .

وقد حاول كثير من العلماء والفلاسفة على تنوعهم وتعددتهم اكتشاف حقيقة العقل، والوصول إلى كنهه، ومعرفة كيفية قيامه بعملية التعقل، والإدراك، والتذكر، والقرار، وطرق محافظته على ماضي الإنسان ومعارفه ، فعجزوا عجزاً كلياً ، واكتفوا بالكشف عن وظائف العقل، ووضع أحسن الطرق لرقبها، والتسامي بها ، وحصرها في معرفة آثار العقل، وطرق الاستفادة به ، وصدق فيهم قوله تعالى : ﴿ وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٨٥ ﴾ (١) .

وظهرت المناهج العديدة في ترقية العقل، وبنائه بناءً حسناً ، ليفيد صاحبه ، وغيره من الناس، إلا أن القصور في المناهج التي وضعها العلماء قاصرة لأسباب عدة ... منها : -

- تكليف العقل بأمور يعجز عنها، مثل البحث فيما وراء الطبيعة، والكشف عن الغيب البعيد عنه بلا دليل وبرهان.

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٥ .

- إبعاده عن أمور خاصة به، خلقه الله تعالى لها مثل التعلم، والتذكر، والتصور، وإقرار المعروف، وإنكار المنكر.
- شغله بأمور لا تليق به، كتأليف التهم الكاذبة، وتأليف المؤامرات الحسية وإحاقها بالأبرياء .

إن العقل طاقة معنوية تتحرك في إطار مادي يرتبط بالماضي، والحاضر، والمستقبل، فهو يأخذ من الماضي الدروس والعبر، ويعيش مع الحاضر متأملاً ، مخططاً، ومختاراً، وينظر إلى المستقبل مؤملاً الاستفادة من دروس الماضي، وعبر الحاضر لإحقاق الحق، وإنقاذ الإنسان من الظلم والعدوان ، والصعود به مع الروح إلى الله تعالى .

ونتاج العقل معنوي مثله، فهو يفهم، ويتذكر، وينظر، ويتصور ، ويضع الحلول، ويقرر المنهج العملي لأعضاء البدن، ويفسح المجال العلوي لصعود الروح .

ويتميز العقل عن الروح في أنه يعتمد على البديهيات الحسية ، وينطلق منها إلى أمور غيبية منطقية مرتبطة بها، ولا يتخطاها إلى خيال بعيد أو تصور غير مسلم ، وخطواته الإدراكية تعتمد على الصور الحسية، والأوليات المنطقية المسلمة، وغايته الوصول إلى البرهان المقنع، والدليل السديد المستمد من واقع الوجود .

أما الروح فإنها تسبح بعيداً عن الحواس، وتعيش مع العواطف ، وتسبح في أفق بعيد عن المادة ، إنها تترك مدركات الحس، ومنطلقات العقل، وتأخذ الفطرة إلى عالمها النقي، وتحولها إلى مشاعر وجدانية، وتسمو بها إلى موطن عشقها، وتهيم معها في حب الله تعالى، وتسعد بالتواصل معه، وتعيد للجسد الأمن والرضى، وللعقل القوة واليقين .

إن الروح في عملها ترضى الجسد ، وتهذب العقل ، وتحول الإنسان إلى عبد مطيع لله تعالى .

إن الروح قوة معنوية غير محسوسة ، ولا يشعر بها في الإنسان إلا العقل ، لأنها تمده بحقائق الموجودات ، وتنميه بنور الله تعالى ، وتدفعه إلى الجمال والكمال الموجود في سائر خلق الله تعالى .

وقد وقع الماديون في خطأ حين تصوروا القوة العقلية هي القوة الحيوية التي تكمن في الجسد المادي حين تقوم الأعضاء بوظائفها، كرؤية العين، وسمع الأذن، وحركة القلب، وغيرها ...، لأن هذه القوى الحيوية تظهر مع الجسد بسيطة، وتهدي الجوارح لوظيفتها، فالجنين حي في بطن أمه ، يتغذى وينمو، وفيه عناصر الإنسان كلها، ويخرج من بطن أمه ومعه هذه الحيوية التي تعمل بتلقائية .

إن القوة الحيوية جزء من الجسد المادي، وتستمر معه طوال حياته، وتعمل عملها منساقاة بأمر الله تعالى بلا دراية منها لعملها، ولا إدراك لدور العقل معها .

أما العقل فهو طاقة معنوية تدرك الأشياء، وتحلل ما ترى ، وتتصور، وتقضي، وتقرر، وتقارن .

وفي هذا الفصل سوف أتناول - بإذن الله تعالى - دقة صناعة العقل في الإنسان، وذلك في المباحث التالية : -

المبحث الأول دور العقل في الإنسان

يتميز الإنسان بالعقل دون سائر الكائنات الحية، وهو موجود معه منذ النشأة الأولى في بطن أمه، وهو قوة معنوية تنشأ مع الجسد ، وتأخذ في الإدراك مع الجنين .

يبدأ الوليد في حركات غير مقصودة بعد خروجه من بطن أمه، يلهمه الله تعالى إياها، ويضعها سبحانه في أعضاء جسده مثل بحثه عن الغذاء، واستعداد فمه للقم ثدي أمه، ومص اللبن منها، وهذا ما يسميه العلماء بالقوى الحيوية، لدالتها على حياة الإنسان، وإحساسه بالحنان والود حين تضمه أمه إلى صدرها، ... وتتطور قواه تلك فترى العين ، وتسمع الأذن، ويشعر بالجوع، ثم تكون منه المحاكاة، وتفسير ما يدور حوله من حسن وسوء، ولين وقسوة أو شدة، ويتعلم الكلام، ويتدرج في الحديث ، ويتعامل مع الآخرين، ويظهر فهمه العقلي من خلال قواه العضلية، فيأخذ في التواصل مع أبويه وإخوته ، وكل من يختلط به ، ويستمر في النضج والتطور إلى أن يصير شابا مكلفا راشدا

وكلما تقدم بالطفل السن يأخذ عقله في التقدم والظهور، فيبحث عن لعبته، ويستغيث بأبويه إن لحق به مكروه ، ويبدى رغبته وسخطه ، ويتعلم الكلام من المحيطين به، ويستنبط أمورا معنوية من المحسوسات، ويبدأ في التفكير، والتذكر، والتعلم، وقد سبق بيان منهج الإسلام في تربية عقل الصغير، وصناعته في مرحلة طفولته .

وقد شرع الإسلام للوليد من يرضعه ، ويحضنه ، ويتولى أمره ، ويعلمه ، ويعوده حسن الخلق ، وحسن التعامل ، ... مع المراعاة التامة لمداركه العقلية ، وميوله الفكرية ، والتسامي بروحه وفطرته .

ولم يهمل الإسلام العقل بعد البلوغ والرشد ، وإنما كلف الإنسان برعاية عقله بما ينميه ويصلحه إلى أن يلقي ربه .

وأول وظائف العقل **المعتبرة** كشف الصلة بين الحواس وبين ما تقوم به ، وتواصله مع الروح ، وتذكر ما كان يسمعه ويراه ، والانتقال من المحسوس إلى المعقولات البسيطة للوصول بها إلى المعقولات المركبة ، ثم يتحول العقل بعد تطوره إلى قوة تتأمل ، وتتصور ، وتقرر ، وتفقد الجسد إلى قناعتها التي رضيت بها ، وترى من نفسها انجذابا خاصا إلى الروح ، تنتشد الفناء فيها ما لم يمنعها مانع .

والواجب على المكلف أن يسلم القيادة للعقل ، فهو القادر على توجيه الجسد ، والتكيف مع الروح ، وقد جاء خطاب الإسلام له ، واشترط الإسلام وجوده في كل تكليف شرعي ، فهو العمود الرئيسي في الإنسان ، ولا قيمة للإنسان بدونه ، فالمجنون غير مكلف ، ولا أثر لعمله ، والروح لا تتحرك إلا والعقل وراءها يدعمها ، ويشاركها في مرئياتها ، وقراراتها .

ولذلك كان أعظم الصناعة إيجاد العقل في الإنسان ، وقيامه بدوره في البناء البشري ، والإقرار بوجوده ، وأهميته ، ووظيفته .

المبحث الثاني تتمية العقل بالتعليم

العقل في الإنسان قوة معنوية قابلة للنمو، والتطور بما قدره الله تعالى له في الإنسان من فهم المحسوس، واكتساب الخبرة، والتفكير الذاتي، والتكيف الاجتماعي، والقدرة على التخيل والاستنباط، والحكم السليم .
وقد اهتم الإسلام في صناعته للعقل بتتمية هذه القدرات العقلية، فأمر بتعليم الصغير، وتعهده بالتنقيف، وإمداده بالقيم، والعادات الحسنة، وتعليمه الألفاظ الجميلة وهو في مرحلة الرضاعة والحضانة، وبخاصة في القضايا التي يحتاج إليها.

ويحث الإسلام على تعليم الصغير أمور الدين منذ صغره، يقول النبي ﷺ : (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع) (١)، ومثل الأمر بالصلاة يكون التعليم والتوجيه السليم، ولذلك نادى المربون ببدء التعليم عند السنة السادسة.
وفرض الإسلام التعلم على المسلمين طوال حياتهم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : " طلب العلم فريضة على كل مسلم) (٢) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (اطلبوا العلم ولو بالعين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم) (٣) .

(١) سنن أبي داود - كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة - حديث : ٤٢٣

(٢) المطالب العالية للحافظ ابن حجر، كتاب العلم، باب الترغيب في طلب العلم، حديث : ٣١٤٠

(٣) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي، باب العلم العام الذي لا يسع البالغ العاقل جهله، حديث : ٢٣٥

والإنسان المكلف يجد نفسه أمام دين قائم على العمل، والخلق، والسلوك وفق منهج محدد المعالم، ولا بد له من علم ومعرفة توضح الطريق المستقيم أمامه، ولذلك كان العلم بالإسلام ضروريا قبل العمل به .

وقد روى الصحابة عن رسول الله ﷺ كثيرا من الأحاديث التي تحت على التعلم ... منها : -

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (... ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده) (١) .

- وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : ما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر) (٢) .

- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة . وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم . وإن العالم ليستغفر له من في السموات ، ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء . وإن فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب .

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، حديث : ٤٩٧٣

(٢) المعجم الكبير للطبراني - من اسمه سمرة ، ، حديث : ٦٨٠٥

وإن العلماء ورثة الأنبياء .

وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ، ولا درهما، وإنما ورثوا العلم ، فمن
أخذه أخذ بحظ وافر) (١) .

إن اهتمام الإسلام بالتعليم تنمية للعقل، وتوسعة في الفهم، وبيان لدين
الله تعالى، وتوضيح للعمل، ودعوة لتعمير الدنيا وتمكين للإنسان في أرض
الله تعالى .

وقد أنزل الله أول آية أمرة بالقراءة، وهي قوله تعالى : ﴿ أقرأ بِأَسْمِ
رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ (٢) ﴾، ونزلت سورة القلم في أول الإسلام، وفيها أقسم الله
تعالى بالقلم، وبالسطر المكتوب، في قوله ﷻ: ﴿ ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ (٣) ﴾
فبين الله تعالى بهذا القسم قيمة الحروف التي يتألف منها القرآن الكريم،
ويتكون منها الكلام والبيان الذي جعله الله تعالى حكمة ورشادا، وبين ﷻ
كذلك قيمة السطر الذي يكتبه القلم حين التدوين، وأثناء التعليم .

وقد ظهرت مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم بجوار المسجد الحرام لتعليم
من يسلم ما نزل من القرآن الكريم، وتعاليم الإسلام، وعلم المسلمون ضرورة
إتقان قراءة القرآن الكريم، وفهم معانيه .

ولما بايع أهل المدينة رسول الله ﷺ البيعة الثانية في العقبة أرسل إليهم
مصعب بن عمير رضي الله عنه يعلمهم القرآن الكريم، وأحكام الإسلام ، فبقي رضي الله عنه
فيهم، وأدخل الإسلام والقرآن الكريم في بيوت المدينة كلها في عام واحد .

(١) سنن أبي داود - كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم - حديث : ٣١٧٥

(٢) سورة العلق الآية : ١ .

(٣) سورة القلم الآية : ١ .

وفي غزوة بدر جعل رسول الله ﷺ فداء الأسير تعليم عشر من المسلمين القراءة والكتابة .

وفضل الله تعالى العلماء المؤمنين، ورفع درجاتهم على من دونهم، فقال ﷺ : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (١) .

وبسبب اهتمام المسلمين بالعلم حفظوا القرآن الكريم، وحفظوا السنة النبوية المشرفة، وأبقوها كما نزلت بين المسلمين إلى اليوم، وأقاموا دولة الإسلام ناهضة في كل مجال .

وقد دفعت هذه الأحاديث وأمثالها كثيرا من المستشرقين إلى أن يقرؤا بفضل الإسلام في ترقية الفكر، وتنمية العقل .

يقول الأستاذ / كازانوف أحد أساتذة كوليغ دي فرانس : يعتقد الكثير منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثيل آرائنا ، وهضم أفكارنا، يعتقدون ذلك ، وينسون أن نبي الإسلام هو الذي فضل العلم على العبادة ... فأبي رئيس ديني كانت أو تكون له الجرأة في أن يقول مثل هذا القول الفاصل المتين ؟ ...، هذا القول نفسه هو عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة " (٢) .

إن اهتمام الإسلام بالعلم جعل المسلمين يعملون في كل مجال يحتاجون إليه، فاخترعوا وسائل الجهاد، وظهر منهم أطباء للعلاج، ومهندسون للبناء والعمل، وعلماء للفقهاء، والحكم، والقضاء، وأقاموا المدن، ومهدوا الطرق، وشيدوا الحصون، ورفعوا القناطر، والكباري، والسدود ، وصار لهم في كل مكان وصلوا إليه أثر وآثار .

(١) سورة المجادلة الآية : ١١ .

(٢) محمد عند علماء الغرب ص ٣٥ .

المبحث الثالث تتمية العقل بالحق الثابت

يهتم الإسلام بتربية العقل بصورة إيجابية، فيضعه في طاقته، ويحدد له المجال الذي خلقه له، ويترك الغيب للروح التي جعلها الله تعالى هائمة نحوه، سابعة إليه، أما العقل فقد ربطه الله تعالى بالمحسوس، وبالأوليات البديهية لينطلق منها إلى ما تدل عليه وفق القواعد المنطقية، والمفاهيم المحددة .

ويدرب الإسلام العقل على الاستدلال بالظواهر التي يلمسها، فينهاه عن التقليد، والظن، وما لا دليل عليه، يقول الله تعالى :

- ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (١) .
- ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٢) .

ويأمر الإسلام العقل بالتدبر الواعي لكل ظواهر الكون المحسوس القريب منه والبعيد، يقول الله تعالى :

- ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .
- ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٤) .
- ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٥) .

(١) سورة النجم الآية : ٢٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ٣٦ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٤٤ .

(٤) سورة التغابن الآية : ٣ .

(٥) سورة آل عمران الآيتين : ١٩٠ .

كما يأمره بتدبر ما في العبادات من أثر ، يقول الله تعالى :

- ﴿ إِنِ الصَّلَاةَ تَنَهَوْنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١)
- ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كِتَابَ عَلَيْهِمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (٢) .
- ﴿ فَمَنْ قَرَضَ فِيهِتِ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا سُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (٣)
- ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (٤) .

وهكذا يأخذ العقل صاحبه إلى الكون من حوله ، ويريه ما فيه من آيات الله تعالى، ويعرفه بما في العبادات والتكاليف الشرعية من فوائد .

ولا يغادر العقل صاحبه، وإنما هو باق معه يذكره بالتاريخ الماضي، ويستخرج له منه الدروس والعبر، ويرسم له طريق المستقبل انطلاقاً من دروس الماضي، ودعوة الحاضر، والاستقامة على منهج الله تعالى الذي هداه للحق، وأنزل له الإسلام على قدر طاقته وعناصره، ويسعد العقل بملاقاة الروح أثناء صعودها إلى جلال الله تعالى، وكمالها، ويحسن بذلك إرشاداته وتوجيهاته .

وخاطب الإسلام العقل، فأنزل الوحي خطاباً له ، وعاش معه في مستواه حتى أتم الله تعالى الدين، وكَمَّلَ النعمة، وصار الإسلام بيننا واضحاً، تفهمه العقول، وتؤديه الجوارح، وتسبح به الروح في عالمها العلوي الجميل .

(١) سورة العنكبوت الآية : ٤٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٨٣ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١٩٧ .

(٤) سورة التوبة الآية : ١٠٣ .

المبحث الرابع تنمية الذكاء العقلي

كان النبي ﷺ يحرص على تقوية ذكاء أصحابه، وتنمية قدراتهم الذهنية، وتشجيعهم على الاستنباط والاستنتاج، وذلك بعرض أمور أمامهم، وتكليفهم بتفسيرها، وبيان الرأي فيها ليتعلموا دقة النظر، وعمق التأمل، وصحة الاستنباط، ومعرفة الحقائق التي تعبر عنها المراثيات الحسية.

ومن ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنما مثل المسلم، حدثوني ما هي " ؟ ... فوق الناس في شجر البوادي .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : فوق في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت .
ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ ...
قال ﷺ : " هي النخلة) (١) .

وقد استحيا ابن عمر رضي الله عنهما من الإجابة تقديرا لأبيه وكبار الصحابة الذين كانوا في مجلس رسول الله ﷺ .

كما حرص رسول الله ﷺ على تعويد أصحابه تحليل المعاني، والوصول إلى ما تتضمنه من أسرار بيانية، وحكم تشريعية من خلال ما فيها من إرشادات ، ورموز، وما تتضمنه من بيان وبلاغة.

فمن ابن عباس رضي الله عنهما (أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال : إني رأيت الليلة في المنام ظلة تنطف السمن والعسل ، فأرى الناس يتكفون منها ، فالمستكثر والمستقل ، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء ، فأراك

(١) صحيح البخاري - كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبرهم ، حديث : ٦٢

أخذت به فعلوت ، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به ، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به ، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ثم وصل ؟ ...

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، بأبي أنت ، والله لتدعني فأعبرها .

فقال النبي ﷺ : " اعبرها " .

قال أبو بكر رضي عنه : أما الظلة فالإسلام ، وأما الذي ينطف من العسل والسمن فالقرآن ، حلاوته تنطف ، فالمستكثر من القرآن والمستقل .

وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه ، تأخذ به فيعليك الله ، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به ، ثم يأخذ به رجل

آخر فيعلو به ، ثم يأخذه رجل آخر فينقطع به ، ثم يوصل له فيعلو به ، فأخبرني يا رسول الله ، بأبي أنت ، أصبت أم أخطأت ؟

قال النبي ﷺ : " أصبت بعضا وأخطأت بعضا " .

قال : فوالله يا رسول الله لتحدثني بالذي أخطأت .

قال ﷺ : " لا تقسم " (١) .

وإنما لم يخبر النبي ﷺ أبا بكر رضي عنه بما أخطأ فيه ، لأنه يتصل بالمستقبل ، وإظهار ما سيحدث مع رسول الله ﷺ ومع خلفائه الراشدين رضي عنهم ، حتى لا يتواكلوا ، ويتركوا السعي والعمل .

وهذا الحديث دليل على أن رسول الله ﷺ كان يدرّب أصحابه على تقوية أفكارهم ، وعلى أن يحلّلوا ما يرونه بحسبهم ، لاستنتاج أمور جديدة مستنبطة مما يرونه .

وكان ﷺ يختبر معارف أصحابه ، ويشجعهم على الابتكار ، فقد ورد

(١) صحيح البخاري - كتاب التعبير ، باب من لم ير الرؤيا لأول عابر إذا لم يصب - حديث : ٦٦٥٧

(أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن قال : " كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ " .
قال : أقضي بكتاب الله .
قال ﷺ : " فإن لم تجد في كتاب الله ؟ " .
قال : فبسنة رسول الله ﷺ .
قال ﷺ : " فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ، ولا في كتاب الله ؟ ...
قال : أجتهد رأيي ، ولا آلو - أي ولا أتأخر - .
فضرب رسول الله ﷺ صدره ، وقال : " الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله) (١) .

ولم يمنع رسول الله ﷺ أصحابه من صناعة منبر من الخشب يخطبهم عليه بصورة لم تكن معروفة في المدينة من قبل ، ووافق ﷺ أصحابه يوم بدر والأحزاب ، فغير مكان الجيش قي بدر ، وحفر الخندق يوم الأحزاب ، ... وهذا مستفاد من خبرات غير المسلمين ، فأباح الإسلام بذلك الاستفادة بمخترعات العقل في تيسير أمور الحياة في حدود المشروعية الإسلامية .
إن قوة المؤمن في قوة عقله ، وهدوء ذهنه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) (٢) .

وأمر الإسلام بتسخير العقل في الاجتهاد ، والاستنباط ، ولذلك يقول النبي ﷺ : (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم

(١) سنن أبي داود - كتاب الأفضية ، باب اجتهاد الرأي في القضاء - حديث : ٣١٣٦ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب - حديث : ٥٧٦٨ .

أخطأ فله أجر (١) .

وحدث الإسلام الإنسان على تعميق فكره، وإشباع ميوله العقلية، والاستفادة بقواه الذهنية للوصول للحق الذي يسعى إليه، لأن للنفس ميلا نحو أمور تتمناها بلا تحليل لها، والواجب استقبال هذه الميول النفسية، وتدبرها لأن مهممات الروح لا تكون من فراغ، ويحسن تحليلها، ومعرفة دلالاتها، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول : (الأرواح جنود مجنونة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف) (٢) .

وحدث الإسلام على تنمية العقل في مراحل العمر الأولى، لأن معارف الصغير لا تتمحى ، فعن إسماعيل بن رافع رضي الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعلم وهو شاب كان كوشم في حجر ، ومن تعلم في الكبر كان كالكاتب على ظهر الماء ") (٣) .

ومن الضروري لسلامة التفكير، والوصول لقرار حكيم وضع فروض أمام العقل حين يفكر، لأن هذه الفروض هي أساس الإبداع ، وطريق الوصول لكل جديد، حيث يستعرضها الفكر فرضا فرضا، وما لا يرضيه يرده، ويقبل أي أمر معه دليل يؤيده، ... وهذا أمر يدعو إلى التفكير المنظم في إطار القواعد الثابتة التي تؤدي إلى نتائج حسنة، كما حدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام حين سأله عن النخلة التي تشبه المؤمن ، ففكروا ، وتصوروا، ثم أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنها النخلة .

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد - حديث : ٦٩٣٩

(٢) صحيح البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، باب : الأرواح جنود مجنونة - حديث : ٣١٧٣

(٣) السنن الكبرى للبيهقي - باب تقريب الفتيان من طلاب العلم وترغيبهم في التعلم، حديث : ٥١٦

وقد اهتم العلماء المسلمون والفقهاء باستعراض كافة الفروض في المسألة الواحدة، وفي الفقه الإسلامي فروض عديدة مع أحكامها الشرعية حين حدوثها، حتى أن علماء اليوم يعجبون من أحكام شرعية مدونة في كتب الفقهاء كانت خيالا في الماضي، وهي اليوم حقيقة .

إن التفكير فريضة إسلامية ، لأنه يعرف الإنسان بالله تعالى ، ويوضح أمامه تعاليم الإسلام، ولذلك مدح الله تعالى الذين يفكرون في آلاء الله تعالى، ونعمه، وينظرون في هذا الملكوت الواسع ، ويصلون الله تعالى من خلال نظرتهم الحسية، وأفكارهم العقلية ، يقول الله تعالى : -

- ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وُقِعُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطٰلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)
- ﴿ قُلْ اَنْظُرُوْا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا تُعْبٰى الْاٰيٰتِ وَالنُّذُرِ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢) .
- ﴿ قُلْ اِنَّمَا اَعْظَمُ بِوٰحِدَةٍ اَنْ تَقُوْمُوْا لِلّٰهِ مَشٰى وَفِرَادٰى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوْا مَا بِصٰحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ اِنْ هُوَ اِلَّا نَذِيْرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيْدٍ ﴿٥﴾ ﴾ (٣) .
- ﴿ اَقْلًا يَتَذَكَّرُوْنَ الْفُرْقَانَ اَمْ عَلٰى قُلُوْبٍ اَقْفٰلُهَا ﴿١٣﴾ ﴾ (٤) .

ويقول النبي ﷺ : (كونوا في الدنيا أضيافا ، واتخذوا المساجد بيوتا، وعودوا قلوبكم الرقة، وأكثروا التفكير والبكاء، ولا تختلفن بكم الأهواء) (٥)

(١) سورة آل عمران الآية : ١٩١ .

(٢) سورة يونس الآية : ١٠١ .

(٣) سورة سبأ الآية : ٤٦ .

(٤) سورة محمد الآية : ٢٤ .

(٥) مسند الشهاب القضاعي - كونوا في الدنيا أضيافا، حديث : ٦٨١

الفصل الرابع

نظام الإسلام

في بناء الروح

(العنصر الثالث)

بناء الروح

اهتم الإسلام بالروح اهتمامه بالجسد والعقل، لما لها من أثر عليهما، واتصال بهما، فهي منهما تخرج، وإليهما تعود، ومعهما يكون الإنسان إنسانا. وقد تجلت عناية الله تعالى بالروح منذ اللحظة الأولى لوجود الإنسان، فهي الحياة في الخلية الأولى عند علوق النطفة، وهي هادية الجنين للغاية التي خلقه الله ﷻ لها، مكثت معه تتطور، وتتمو قبل الولادة وبعدها حتى صارت عنصرا فعالا للإنسان في كل أعماله العادية، والتعبدية، وأصبحت طريقه إلى الله تعالى، وسبيله لإدراك المعاني النبيلة التي يتمناها الإنسان، ويعمل لها، ويرجوها للتواصل مع الله تعالى .

وليس للعبد إلا أن يطيع سيده، ويحبه، ويسعد بقاءه، ويتحرر من الارتباط به، وبخاصة إذا كان السيد يعطي ولا يأخذ، يرحم ولا يقسو، يعلم ولا يجهل، غني لا يحتاج لشيء ، ...

إن الله ﷻ فرد صمد، متفرد بصفات الجلال والكمال، غني عن مخلوقاته جميعا .

والعبودية لله تعالى في الدنيا تعني إنشاء مملكة الأرض بمنهج الله تعالى، والقيام فيها بخلافة الله ﷻ ، وتطبيق دين الله تعالى في حياة الناس . ومع تحقيق العبودية، وإقامة الخلافة تنشط الروح، وتصل صاحبها بالله تعالى ، وتتحرك مع الخلافة الرشيدة لتظهر عظمة المنهج الإلهي في البقاء والتعمير .

إن عظمة الروح في وظيفتها، ولذا اهتم الإسلام ببنائها، وتقويتها، وهذا ما سنوضحه - بإذن الله تعالى - في المباحث التالية : -

المبحث الأول وجود الروح في الإنسان

تنشأ الروح مع فطرة الإنسان، وتتمو بنموه، وتنزع به نحو الله تعالى ، يقول الله ﷻ : ﴿ فَطَرْتُ اللَّهَ إِلِيَّ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ (١) .

وقد ذكر العلماء أن الدين هو الفطرة ، بمعنى أن الإنسان يولد ومعه إحساس يشده إلى من يطعمه، ويساعده، ويحقق له ما يشبعه، وتلك هي الفطرة في صورتها الساذجة، ومع الإدراك والفهم تكبر، وتعمل على الاتصال بخالق الخلق، ورب كل موجود ، ولذلك يقول العلماء إن الإنسان حيوان متدين ، وأن الروح فيه تشده إلى أصلها

إن العاطفة التي تظهر في حياة الصغير تشده إلى أمه ، ومن يحيط به، ثم من يفيدته ويهتم به ، وتكمن الروح في الإدراك، وتشده إلى مجالها الواسع في الملا الأعلى، وتجذبه نحوها، ليتصل بها .

ويذهب علماء الاجتماع المعاصرين إلى أن ميل الإنسان الدائم هو البحث عن شيء أقوى منه، وسند مادي يتقوى به، وهذا دليل يرشد إلى إيمانه بذات غيبية يرجوها لنفسه، وينشد منها العون والمساعدة، والطمأنينة، والهدوء يقول الأستاذ / مصطفى الخشاب: " ليس هناك عاطفة إنسانية أبعد غورا في الإنسان ، وأقوى تأثيرا في مشاعر الفرد والجماعة من العاطفة الدينية " (٢)

(١) سورة الروم الآية : ٣١ .

(٢) المدخل إلى علم الاجتماع ص ١٤٧ .

هذه الحقيقة تحتاج إلى رعاية البدايات الأولى للإنسان، فقد خلقه الله تعالى بالفطرة، وأمر الآباء بالعناية بها، وتوجيهها في طريقها الصحيح .
فبين الله تعالى وجود الفطرة الدينية في الإنسان وهو في عالم النذر،
فقال تعالى :

- ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (١)
﴿ فَأَقْرَرْنَا وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢) .

وبين رسول الله ﷺ دور الآباء في توجيه الفطرة، فقال ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء) (٣) .

والإسلام يوجه الآباء والمربين إلى هذا الجانب المستور في الإنسان للاهتمام به، وتقويته عند الصغير بقدر فهمه واستيعابه ، لينشأ سويا بين صفاء الروح، وقناعة العقل، وسلامة الجوارح، وبذلك يشب إنسانا إيجابيا في أعماله، وراقيا في أهدافه، ومشاركا في إخراج الجماعة المؤمنة الصادقة والإقرار بوجود روح الإنسان، والتسليم بضرورة دورها هو أول الطريق في رعايتها، والاستجابة لرغباتها، وهداياها، وفهم كافة القضايا التي تعيش فيها ومن المهم الاستجابة لنداء الروح، والغوص في صفائها، وإشباعها بالغذاء الذي يرضيها، ويسعدها .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٢ .

(٢) سورة الروم الآية : ٣٠ .

(٣) صحيح البخاري - كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات - حديث : ١٣٠٥

المبحث الثاني تنمية الروح

الإسلام دين الله تعالى، شامل لكل حاجات الإنسان، ولذلك نراه يعمل على تقوية الروح، وإمدادها بالغذاء الذي ينميها، ويوجهها إلى الإيمان بالله تعالى خالق الوجود، رب العالمين .

ولذلك كان من الضروري توجيه الصغير إلى الله تعالى الذي خلق كل شيء، وهده لما خلق له على نحو يلائم مدارك الصغير، ويتطور معه بتطور فهمه، واتساع أفقه ليعلم صاحب الفضل، ويتيقن من عظمة الدين ، ويرتبط بخالقه عبدا مستسلما، ويشب مؤمنا صادقا مع الإسلام الحنيف .
يقول الأستاذ / عباس العقاد : " إن تصور الذات الإلهية هي غاية ما تتصوره الروح من كمال وجلال، وهو مثلها الأعلى التي تسبح في ملكوته العظيم " (١) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى طبيعة الروح ، وسعادتها عندما تتحقق غاياتها، فإنها تشعر بقوة شديدة تدفعها إلى الله تعالى، وتخلصها من شواغل المادة ، وثقل المفاهيم الباطلة، ووساوس الشياطين .

إن الروح في قوتها وصفاتها تأخذ الإنسان إلى الله تعالى ، وبخاصة في الأوقات التي تحتاج فيها لمعين يساعدها، وقوي يشد أزرها، وعليم يهديها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض، ورب العرش الكريم) (٢)

(١) الله ص ١٥٤ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب - حديث : ٥٩٩٥

وقد بينت السنة النبوية كيفية تنمية المفاهيم الروحية في النفس البشرية، ووضحت وسائل تحقيق هذه التنمية:

فهى - أولاً - تنادي بغرس القيم والفضائل في النفس، وإبراز آثارها الإيجابية، والتعريف بآثارها السلبية، وذلك يكون بتفهم الإنسان الفضائل الخلقية، وترقية عقله بآيات الكون والحياة، وزرع حب الخير في الروح، وتمكينها من السبل الموصلة إلى كل خير من الصدق، والحب، وسائر المعاني السامية مثل الأمانة، والإخلاص، والتقدير، والرحمة، ...
عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: (إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً .
وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) (١) .

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " وشبك أصابعه) (٢)

والروح - ثانياً - تحتاج لغذاء ينميها، ويحافظ عليها، وأساس هذا الغذاء الحب والعطف، والاستقامة، فالروح تشبه شجرة مثمرة تنتج الخير، ولا بد لها من غذاء ينميها، وراع يرعاها، وغذاء الخير يكون خيراً كله، والظل المستقيم يكون انعكاساً لسببه، يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٥﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ - حديث: ٥٧٤٨

(٢) صحيح البخاري - كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة - باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره،

حِينَ يَأْذِنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴿ (١) .

وهي - ثالثاً - تحتاج لإيجاد أسوة طيبة تتبعها، فالإنسان في صغره يحاكي غيره ، وفي شبابه يتبع مثالا يقدره، ولذلك جعل الإسلام رسول الله ﷺ أسوة حسنة للناس ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ﴿ (٢) ، ورسول الله ﷺ أسوة للناس في أقواله ، وأفعاله ، وأخلاقه .

وهي - رابعاً - تحتاج إلى مصاحبة الأخيار، لتسمع منهم الذكر والدعاء، وتسعد معهم في تواصلهم، وعباداتهم، وتقوى بهم، فهم ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ﴿ (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخال) (٤) .

إن مصاحبة الأخيار ضرورية في تكوين عناصر الإنسان كلها، لأنهم يتجنبون كل خطأ، ويؤدون كل واجب، ويحافظون على كافة الحقوق، ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ﴿ (٥)

(١) سورة إبراهيم الآيتين : ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٩١ .

(٤) سنن أبي داود - كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس - حديث : ٤٢١٤

(٥) سورة الأنفال الآية : ٤ .

كِتَابُ مُبِينٍ ﴿٥١﴾ ﴿١﴾

- ﴿يَبْقَىٰ إِلَٰهَهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ حَيِيرٌ ﴿٥١﴾ ﴿٢﴾ .

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴿٣﴾ .

وبهذه التوجهات تعيش الروح في مجالها، وتتصل مع الله تعالى موطن حبها وعشقها، وتتيقن من علمه الشامل المحيط بكل شيء .

ويدعو الإسلام الروح إلى الاستمرار في الذكر، والإخلاص في العبادة، والتفاني في الخضوع ، والطاعة، لتتال الرضى، وتعيش في النور هائمة بين حب أنعم الله ، والخوف من العذاب الأليم .

وسبب ذلك أن روح الإنسان تعشق العظمة، وتتعلق بها، وتتمنى الوصول إليها، وتحب إرضاءها، ... وفي نفسي الوقت تخاف من أي تقصير في الطاعة، وأي بعد عن المنهج المستقيم، ... ولهذا تلجأ إلى العبادة ، وتعيش معها، وترجو منها النجاة والفوز في الدنيا والآخرة .

إن العبادة في الإسلام مزيج من الحب الصافي، والخوف العام، فبالحب يكون الأمل في كسب رضا المحبوب، وبالخوف تكون النجاة من غضبه وسخطه وهكذا تعيش الروح في مجالها ، وتصنع من صاحبها عبدا خاشعا لله رب العالمين

(١) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٢) سورة لقمان الآية : ١٦ .

(٣) سورة المجادلة الآية : ٧ .

المبحث الرابع تحقيق سعادة الروح في عبوديتها لله تعالى

بعد أن توضع الروح في مجالها الملائم لها، وتعيش في إطار القدرة الإلهية الشاملة، وعلمه المحيط، تنتقل إلى الحقيقة المطلقة لهذا الوجود، فتلجأ للخشوع التام، وترضى بالاستسلام المطلق لله تعالى، وترضى العقل بالبرهان، وتهدي الجوارح بالطاعة والاستسلام .

إن الخشوع والاستسلام هما ثمرة جولات الروح في لمسات القدرة الموجودة في كل مخلوق، والعلم الشامل المحيط بكل موجود، وهذا الحال يضع الإنسان في إطار عبد يراقبه سيده،

يراقبه وهو يعمل، ويعلم ما بظاهره، وما بباطنه .

ويراقبه وهو يفكر، ويعلم ما في نيته، وقصده .

ويراقبه وهو يتخيل، ويعلم ما توسوس به نفسه، وما يتمنى وما يرجو..

ويراقبه وهو ساكن، ويعلم ما يشغله .

ويراقبه في قوله وصمته، ويعلم نجواه ودعاه .

إن اليقين بهذه المراقبة يحقق الصدق، والإخلاص، والتجرد لله تعالى،

وتضع العبد بين يديه كأنه يراه .

وحين تعيش الروح في جو العبودية والخشوع ، والاستسلام تجد نفسها

راغبة في حب هذا العظيم ، ومشتاقة للمكث في معيته، فتتجه إليه راغبة ،

ومعها العقل الفاهم، والجسد العابد المطيع .

وهكذا تأخذ الروح الإنسان إلى الله تعالى ، وتضعه في الصراط

المستقيم، فيعبد الله تعالى بجوارحه، وعقله، ويسمو معها إلى الدرجات العلاء،

ويعيش الأمن والهدوء، وذلك هو الخير، فقد خضع الإنسان لأمر الله تعالى، وما عند الله لا يضيع .

قد يتصور البعض أن هذا الاستسلام ضعف وخنوع، وليس الأمر كذلك، ولكنه توكل على القادر، وتواصل مع الله العظيم، وبذلك تقوى العزائم، وينتهي القلق والتردد .

إن اتصال العبد الضعيف المحدود بخالق الوجود هو القوة في الحقيقة، وهو الوصول إلى أعلى درجات الكمال في الإنسان.

إنه التوكل الذي يسعد النفس بطاعة الله ، ولذلك كان الوضوء طهارة كاملة ، وكانت الراحة في الصلاة، وكان الصوم قوة خلقية وروحية ، وكان الحج قوة، ونسكا، وخالقا .

إن تخلص الروح من ثقل المادة، وارتقاءها إلى الملائكة الأعلى يربط الإنسان بالكون كله، وينشر الحب بين جميع الأحياء، ويؤكد الاستعلاء الإيماني على كل باطل، ويمكن الإنسان من الوصول لعطاء الله تعالى وقوته .

إن الإسلام يربي الروح تربية شاملة تناسب تطورها ، وتنتقل بصاحبها من حال لحال، وتتحرك إلى الله تعالى وهي مرتبطة بالجسد والعقل، وتستمر على النجاح حتى تأخذ الإنسان لله تعالى عبدا شكورا .

الفصل الخامس

ترابط عناصر الإنسان

ترابط عناصر الإنسان

قد يتصور البعض أن تربية عناصر الإنسان تسير في خطوط مستقيمة يبتعد فيها كل خط عن غيره ، وهذا تصور غير صحيح ، ولا وجود له في الواقع ، فالتربية كلها تتم في كيان واحد ، والصناعة مع الإنسان كله تكون في وقت واحد ، فعمليات الجسد ، وصناعاته تعمل مع صناعة العقل، ولا تتصادم مع صناعة الروح.

فصناعة البدن، وتغذيته تتم لينهض مع عقله إلى عبادة الله، وتتمكن روحه من النظر والتأمل فيما يقوم به جسده، وما يذكره بلسانه، وما يعقله بلبه، وقد ورد عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الرجل ليصلي ولعله أن لا يكون له من صلاته إلا عشرها ، أو تسعها، أو ثمنها ، أو سبعها حتى انتهى إلى آخر العدد) (١) .

وتدريب العناصر المادية تتحرك في إطار المفاهيم العقلية ، وتسعى مع مقامات الروح في عبادة الله تعالى بلا تناقض ولا خلاف .

إن نظرة العقل وتأملاته الواعية تحيط الجوارح بالسكون ، وتربط الأعمال بالمفاهيم ودلالاتها، وتحقق للروح مدارج السلوك، وتنشطها في سعيها لله تعالى .

وبشيء من التفصيل نعلم أن إحساس العنصر المادي هو بداية الإدراك العقلي، وأساس انطلاق الروح نحو الموجد العظيم .
والبراهين العقلية تتوقف على العالم المادي وهي تدرك دقته، وجماله، وغاياته، وتقر بقدرة الله المعجزة ، وألوهيته التامة ، وكماله الذي لا مثيل له،

(١) السنن الكبرى للنسائي - كتاب السهو ، حديث : ٦٠١

فهو سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

إن كيان الإنسان كيان واحد مكون من جسد، وعقل، وروح، فليس هو جسم مستقل بذاته عن العقل والروح، وليس هو عقل منفصل عن الجسد والروح، وليس هو روح لا صلة لها بالجسد والعقل، هذا هو الواقع، والإسلام يقر بهذه الوحدة في الإنسان ، فيعطيه ما يحتاج إليه من عقيدة ومثل، وصعود وترفع ، وجهاد وعمل .

إن التنظيمات الأرضية البحتة لا يعالجها الإسلام منفصلة عن الكيان النفسي في مجموعه، فلا يعترف بأن هناك قوانين اقتصادية منقطعة عن مدارك العقل، أو أن هناك قوانين مادية لا تتصل بقوانين الروح.

إن الإسلام يقيم تنظيماته كلها على أساس الوحدة الفطرية الثابتة للإنسان، فتشريعات الإسلام المادية الخالصة من زواج ، وطلاق، وإرث ، وتنظيم اقتصادي ، وسلام وحرب ، ... الخ تقوم على أساس الاعتقاد الديني المرتبط بالعقل والروح .

والعبادة الخالصة ليست مقصودة لذاتها، لأنها تقصد تهذيب النفوس، وإصلاح الحياة ، والاتصال بالله تعالى .

وتوجهات الروح ليست منفصلة أبدا عن الجسد والعقل .

إن العقل في الإنسان وهو يبحث عن الله تعالى يبحث عن الدليل الذي يحقق له مراده، ولن يجده إلا في الكون المادي المحيط به ، والبعيد عنه، وبواسطة الحواس يأخذ العقل الأدلة التي يرضي بها ويوصلها للروح ،
ومن أهم هذه الأدلة : -

(١) سورة الشورى الآية : ١١ .

١- دليل الخلق والإبداع :

هذا الدليل هو أقوى الأدلة على وجود الله تعالى ، ويعرف بالدليل الكوني لأنه يتصل بكل مخلوق كائن موجود في أي مكان، وفي أي زمان تشهده الحواس، وتؤكد ظواهر الوجود المادي في كل مجال .

وأساس هذا الدليل البحث عن الموجد لكل مخلوق حادث، لأنه لا يمكن تصور وجود شيء من عدم بالصدفة، لأن الصدفة لا تتكرر، والقول بالصدفة في هذا العالم الواسع المليء بالمخلوقات قول مردود ومستحيل.

ولا يمكن القول أن المخلوقات أوجدت نفسها، لأنه تصور مستحيل .

فأي الأجزاء توجد مثلتها ؟ ...

وأيهما الخالق؟ ... وكيف وجد ؟ ...

وأيهما المخلوق ؟ ...

ومتى حدث التقسيم ؟ ... وكيف ؟ ...

ولا يمكن تصور حادث أوجده حادث سبقه ، حتى لا نذهب إلى تسلسل لا نهائي من حادث إلى حادث إلى ما لا نهاية .

ولابد من الوصول إلى الحقيقة الثابتة بالعقل القوي، وهي أن الله تعالى هو الخالق لكل مخلوق، والموجد لكل موجود .

وقد ربط الإسلام الإنسان بالكون المحسوس، لينظر فيه بحواسه، ويتأمل

فيها بعقله ليعرف الله تعالى، ويؤمن به، يقول الله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٣﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٤﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٥﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٦﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١٧﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

(١) سورة الغاشية الآيات من ١٧ : ٢٢ .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ
ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا
مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١) .

إن التأمل في كون الله المخلوق يؤكد وجود خالق له، وهو الله تعالى ،
فهذه المخلوقات التي يراها كل الناس من سماء، وأرض، وجبال، ودواب ،
... تؤكد وجود خالق لها ، وهو الله ﷻ ، وهو سبحانه خلق الأرض وأحيائها
بالماء، وأنبت فيها الحب، والعنب، والتمر، والأزواج كلها،...

إن التفكير في مخلوقات الله تعالى يؤكد وجود الله ﷻ ، وقديما رووا أن
رجلا سأل عن الله تعالى ؟

فقيل له: لو رأيت قصرا جميلا مهيا في أعلى الجبل هل تتصور له صانعا ؟
قال : لا بد له من مهندس ليبيب .

فقيل له : وأين هذا القصر من السموات والأرض ، والليل والنهار، والماء
والهواء، وكل خالق موجود ، إن الخالق هو الله .
فأقر بذلك وآمن .

يقول النبي ﷺ : (فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة) (٢) .

٢- دليل الغاية :

ويعرف هذا الدليل بدليل القصد، لأنه يؤكد أن المخلوقات كلها لم تخلق
سدى، وإنما الواقع يشير إلى وجود غاية وهدف لكل مخلوق موجود .
وإيجاد الهدف، وهداية كل مخلوق لهدفه دليل للعقل للإيمان بالله تعالى .

(١) سورة يس الآيات من ٣٣ : ٣٦ .

(٢) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني - باب الأمر بالتفكير في آيات الله عز وجل - حديث : ٤٢

والعقل يعيش في هذا الدليل استنادا إلى الحواس، ومشاهدة المنافع

التي يعيش فيها الإنسان، يقول الله تعالى : -

﴿ وَاللَّهُمَّ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا يَشِقُّ الْآنْفُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْقَيْلَ وَالْجَمَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًا تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَلَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَىٰ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ الْوَيْلَ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴿ (١) .

إن هذه المخلوقات خلقها الله تعالى ، وسخرها للإنسان ، وفي كل منها فائدة له، يحتاج إليها في طعامه، وشرابه، وسفره، وترحاله، وشغله، وراحته ، وقد ساقها الله تعالى للعقل ليقنعه ، ويشبع بها بدنه، وتسمو بها روحه

(١) سورة النحل الآيات من ٥ : ١٨ .

إلى أفقها العالي ، وهي تؤكد وجود الله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَ مَسْوَى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۖ ﴾ (١) .

٣- دليل الكمال :

ويعرف هذا الدليل بدليل الكمال والتمام، وهو من الأدلة المقنعة الدالة على وجود الله تعالى، ووحدانيته ﷻ ، وتؤكد أنه الفاعل لكل مخلوق موجود، لأن العقل البشري لا يتصور أمرا مخلوقا كاملا في صورته، وفي قيامه بوظيفته بلا فاعل يخلقه، وهذا الكون كامل متوازن، ومن الضروري أن يكون الخالق أكمل من المخلوق، وأسبق منه، ولا بد أن يكون الخالق متصفا بالكمال المطلق، وهو الله تعالى .

يقول الأستاذ / عباس العقاد : " فما من شيء كامل إلا والعقل الإنساني متطلع إلى ما هو أكمل منه حتى يصل إلى الكمال المطلق الذي لا مزيد عليه ، ... وهذه طبيعة العقل في تصوراتها للوجود كله بما فيه من جمال، وعظمة ، وكمال، وحق، فهو يسلم بوجود كمال مطلق ، وعظمة مطلقة ، وحق مطلق (٢) .

وبذلك المنهج يصل العقل للإيمان بالله تعالى ، وبكل كمال يليق به فهو سبحانه ثابت الوجود، وهو غاية الكمال والجمال ، وهو القادر العظيم ، وهو سبحانه منزه عن أي نقص فقد جمع أوجه الكمالات كلها .

ولا يسلم العقل بتسلسل الكمال، ويرى ضرورة الوقوف عند الكمال المطلق الموجد لكل كامل حادث لاستحالة التسلسل والدور، لأن العقل لن يصل بهما إلى حقيقة أبدا.

(١) سورة الأعلى الآيتين : ٢ ، ٣ .

(٢) الله للأستاذ / عباس العقاد ص ١٥٥ .

وهكذا يصل العقل بفكره إلى معرفة الله تعالى الذي يخضع له الجسد، وتسمو إليه الروح، ويعيش الإنسان مع الله تعالى .

يقرر القرآن الكريم هذه الحقائق ، ويقول الله تعالى : -

- ﴿ فَأَطْرُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ جَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهَا لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴿ (١)
- ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَكِيلٌ مِنَ الدَّلِيلِ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا ﴿١٣﴾ ﴿ (٢) .

٤ - دليل القيم السامية والخلق الكريم :

ومعنى هذا الدليل رسم الطريق أمام الإنسان على نحو دقيق يضم القيم، ويرسم الطريق بصورة عادلة .

إن هذا الطريق لا يقدر عليه إلا رب الوجود الواحد الأحد، الذي لا يميز فريقا على فريق، ولا يحابي في الحق أحدا ، وهو الله تعالى .

إن الظلم والعدوان ينتشران بين الناس حين يسود بينهم قانون بشري، ويتولى أمرهم حاكم مستبد ، ... ولذلك وجدت التفرقة العنصرية ، والتمايز الطبقي، ووسد الأمر للمستبدين والطغاة .

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر، وتظهر القيمة العالية لشرع الله تعالى في نشر العدل، وتحقيق السلام .

إن الله ﷻ يميز الحق من الباطل، ويدعو إلى الاستقامة في القول والعمل، والسلوك ...، ويحاسب على القول، والعمل، والسلوك، يقول الله تعالى :

(١) سورة الشورى الآية : ١١ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ١١١ .

- ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (١)
- ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٥﴾ وَوَأَلْفَىٰ مَعَاذِيرُهُ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢) .
- ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ (٣) .
- ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴿٤٦﴾ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلِيمٍ لِلْعَعِيدِ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٤)
- ويربي الإسلام الإنسان على الفضائل ، والبعد عن الرذائل ، ويوجه المسلم إلى طلب التخلص من الرذائل .
- فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : (لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كان يقول : " اللهم إني أعوذ بك من العجز ، والكسل ، والجبن ، والبخل ، والهرم ، وعذاب ، القبر اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها) (٥) .
- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه : (اللهم اجعل في قلبي نورا ، وفي بصري نورا ، وفي سمعي نورا ، وعن يميني نورا ، وعن يساري نورا ، وفوقي نورا ، وتحتي نورا ، وأمامي

(١) سورة المدر الآية : ٣٨ .

(٢) سورة القيامة الآيتين : ١٤ ، ١٥ .

(٣) سورة الشمس الآيات من ٧ : ١٠ .

(٤) سورة فصلت الآية : ٤٦ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل - حديث : ٥٠٠٥

نورا ، وخلفي نورا ، واجعل لي نورا) (١) .

- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهدد قال : " اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن .
ولك الحمد، أنت الحق ، ووعدك حق ، وقولك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق .
اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت .

فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ، أو : لا إله غيرك) (٢) .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ ، يقول : " اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر) (٣) .

لقد اهتم الإسلام بنشر القيم الفاضلة، والخلق الكريم، وحصر رسول الله ﷺ غاية بعثته فيها ، فقال ﷺ : (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق) (٤) .

(١) صحيح البخاري - كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل - حديث : ٥٩٦٦

(٢) صحيح البخاري - كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل - حديث : ٥٩٦٧

(٣) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل - حديث : ٥٠٠٣

(٤) مصنف ابن أبي شيبة - كتاب الفضائل، باب ما أعطى الله تعالى محمدا ﷺ - حديث : ٣١١٣٤

لقد اتخذ العلماء والمفكرون من قيم الإسلام ودعوته الأخلاقية دليلاً على وجود الله تعالى ووحدانيته، بعد أن تأملوا في حياة الناس، ورأوا طغيان الإنسان حين يستبد برأيه، وينشر الدمار والهلاك، ويقوم بالحروب والقتال، ولا يعرف معنى العدل والمساواة الذي نادى به الله تعالى على لسان أنبيائه جميعاً، فقد بعثهم الله تعالى بالقيم النبيلة، والخلق الكريم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) (١).

وحيث نعود لسنة النبي صلى الله عليه وسلم نجد فيها الكثير من التوجيهات الخلقية، والقيم النبيلة التي جعلها العلماء دليلاً على وجود الله ووحدانيته تعالى، ... ومنها: -
- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا) (٢).

- وعن أبي ذر رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: " انظر، فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى) (٣).

- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: (لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: " إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً) (٤).

(١) صحيح البخاري - كتاب المناقب، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم - حديث: ٣٣٦٣.

(٢) سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، باب ما جاء في رحمة الصبيان، حديث: ١٨٩١.

(٣) مسند أحمد بن حنبل - مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري - حديث: ٢٠٨٥٣.

(٤) صحيح البخاري - كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم - حديث: ٣٣٨٧.

- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن) (١) .
- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء) (٢) .
- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال في مجلس :
(ألا أخبركم بأحبكم إلي ، وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة ؟ -
ثلاث مرات يقولها - .
قلنا : بلى يا رسول الله .
قال ﷺ : " أحسنكم أخلاقا) (٣) .

وقدم الجيل الأول أخلاق الإسلام في كل أعمالهم، وأقوالهم، فقدموا بذلك الدليل على صدق الإسلام ، وصدق مجيئه من عند الله الواحد الأحد .

٥ - دليل الحسن والجمال :

حين ترى الحواس الإنسان والكون تلمس الجمال والحسن في كل خلق الله تعالى في حقيقته الذاتية ، وفي وظيفته العملية ، وأول ما تلمس من جمال نراه في خلق الإنسان نفسه، فلقد أراد الله تعالى له صورة حسنة يظهر

(١) سنن الدارمي - ومن كتاب الرقاق، باب : في حسن الخلق - حديث : ٢٧٤٠

(٢) سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

- باب ما جاء في حسن الخلق، حديث : ١٩٧٤

(٣) صحيح ابن حبان - كتاب البر والإحسان، باب حسن الخلق - ذكر البيان بأن من حسن خلقه كان

في القيامة ممن قرب، حديث : ٤٨٦

بها، حيث تعلوه الرأس، وفي مقدمتها الوجه، وقدر له ﷺ أن يسير على قدمين ، ووضع فيه العقل، والروح ، وتلك آية الجمال في الإنسان ، وكل الخلق جميل في صورته ، جميل في وظيفته ، وعمله، جميل في توجهه الذاتي لما خلق له ، بعدما هداه الله ﷻ له .

إن البراهين المذكورة تتجه لعناصر الإنسان الثلاثة ، لأنها تصدر منها، وترتبط بها، فالجانب المادي للمخلوقات تلمسه الحواس، ويشعر به البدن ، ويفهمها العقل، ويدرك ما فيها من فوائد للإنسان، وتدور حولهما الروح، وهي تسعى للوصول إلى الله تعالى الخالق لهذه المخلوقات ولكل موجود .

إن هذه البراهين تؤثر في الإنسان كله ، وتمكنه من القيام بحاجاته الذاتية ، وتساعد في وظيفته الاجتماعية ، وتربطه بغيره من الناس .

فهي مع الجانب النفسي توضح كيفية التعامل مع الانفعالات، وتدعوه إلى الرفق واللين، وترك الغضب، وتذكره بأخوة الإنسانية والنسب، والدين، وتفتح له أبواب العمل والفهم، وتشبع غرائزه بالحلال المشروع ، فمن أراد مالا فليعمل، ومن ملك الباءة فليتزوج، ومن أراد القيادة فليعلم ، ويعمل، ويشارك، ومن به عصبية فليذكر قول رسول الله ﷺ : (تبسمك في وجه أخيك صدقة لك ، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلالة لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإمطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة) (١) .

وليكن المسلم الذي رضى بالإسلام ديناً محباً للناس كحبه لنفسه، طاعة

(١) صحيح ابن حبان - كتاب البر والإحسان، فصل من البر والإحسان، حديث : ٥٣٠ .

لله ﷻ ورسوله ﷺ ، فقد قال النبي ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (١)، وقال ﷺ : (لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، ولا يحقره التقوى هاهنا " ويشير إلى صدره ثلاث مرات " .
بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه ، وماله ، وعرضه) (٢) .

إن الإيمان بالله تعالى يربط المسلم بأخيه المسلم ، ويضعهما في وحدة سليمة، يقول النبي ﷺ :

- (مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (٣) .
- (المؤمن أخو المؤمن ، فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر) (٤) .

وبالنسبة لمشاركته الاجتماعية يرتقي الإسلام بعواطفه، ويسوقه إلى حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ ، وبرزقه حلاوة الإيمان يقول النبي ﷺ :
(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر

(١) صحيح البخاري - كتاب الإيمان، باب : من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه - حديث : ١٣ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم - حديث : ٤٧٥٥

(٣) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم و- حديث : ٤٧٩٠

(٤) صحيح مسلم - كتاب النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه - حديث : ٢٦١٤

كما يكره أن يقذف في النار) (١) .

ويأمر الله تعالى المسلمين بالتعاون ، يقول الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ
وَالْتَّقْوَى ﴾ (٢) .

إن صناعة الإنسان على هذا الحسن دليل على قدرة الله تعالى ، فقد أعلى
مقام الإنسان بهذا الجمال الواضح .

وهكذا تتكامل عناصر الإنسان في جمالها ، وعملها ، وهدفها إيجاد
شخصية إسلامية متوازنة ، تحقق الأهداف الرئيسية التي خلق الله تعالى
الإنسان ليقوم بها ، ويحققها في عالم الدنيا .

(١) صحيح البخاري - كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان - حديث : ١٦

(٢) سورة المائدة الآية : ٢ .

الباب السادس

ركائز الإيمان

في صناعة الإنسان

ركائز الإيمان في صناعة الإنسان

الركائز هي الدعائم والأسس التي يقوم عليها الشيء ماديا كان أو معنويا، فدعائم الإسلام هي الأسس الخمسة التي قام عليها، ودعائم الإيمان هي الوجود المخلوق في جنبات الدنيا كلها، ففي كل جزئية آية ، وفي كل حادث ركيعة تشهد بوحداية الله تعالى وقدرته، وصفاته اللائقة بألوهيته سبحانه وتعالى .

وفي ثنايا هذا الكتاب رأيت الله تعالى في كافة مواضعه

ورأيت الله ﷻ وهو يبث في الجماد الروح والحياة .

ورأيت الله ﷻ وهو يجمع الأزواج ، ويمدهما بوسائل الإشباع ، ويوجه أحلامهما لحب الولد وتمنيه .

ورأيت الله ﷻ وهو يربي الجنين في بطن أمه ، ويسكنه في مسكن آمن، ويربط تكونه بعواطف أمه .

ورأيت الله ﷻ وهو يمد الجنين بالغذاء المناسب لحجمه، وحاجاته .

ورأيت الله تعالى في إعداد الغذاء للوليد لبنا في ثدي أمه يبحث عن الخروج عند نزول الولد .

ورأيت الله سبحانه وهو يشرع للولد ما يصلحه في حياته كلها إلى أن يموت وآيات الإيمان موجودة في كل مخلوق، وهي في خلق الإنسان أوضح، وكل عاقل يدرك الآيات فيه، وفي غيره وهو ينظر ويفكر، ويتذكر، ويتخيل .

وعليه أن يبحث عن أعطاه غذاءه، وهياها له؟ ... وعن فضله بهذا على كل الكائنات ؟ ... وعن مكن التعقل في ذاته، وعن سبب اختلاف الناس في الفهم والإدراك؟ ...

إن ركائز الإيمان في خلق الإنسان عديدة، وتحتاج من العقلاء إلى التأمل، والنظر، يقول الله تعالى:

- ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۗ ﴾ (١)
- ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۗ ﴾ (٢) .
- ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۚ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۚ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۚ ۝١٠ ﴾ (٣)

إن الإنسان يشبه الحيوان في التوالد، والنمو، والأكل، والهيكل الجسدي، فكلاهما له رأس، وقلب، ومعدة، وورثة، وإدخال وإخراج،

ولكن الحيوان ليس كالإنسان في الإدراك، والفهم، والعقل.

فمن أين للإنسان ذلك ؟ ...

وأين يوجد هذا العقل في الجسد ؟ ...

وكيف تتصل الروح بالله تعالى ؟ ...

إن الكون كله يتحرك بقدرة الله تعالى بلا عقل فيه، ... أما الإنسان فقد ميزه الله تعالى بالعقل، وحدد له الطريق، وعرفه برسالته التي خلق لها، وعليها يكون الحساب والجزاء .

إن النظر في كل هذه القضايا يؤكد آيات الله تعالى في صناعة الإنسان، ويظهر ركائز الإيمان أمام العقلاء، ... وهذا ما سأبينه - بإذن الله تعالى - في فصول هذا الباب .

(١) سورة الطارق الآية : ٥ .

(٢) سورة عبس الآية : ٢٤ .

(٣) سورة البلد الآيات من ٨ : ١٠ .

الفصل الأول

ركائز الإيمان

في الخلق والإبداع

الركائز الإيمانية في الخلق والإبداع

قدر الله تعالى للإنسان أن يوجد، فأوجده من عدم، وصنعه من الطين ،
وصوره كما أراد، ونفخ فيه من روحه، فصار الطين بالروح إنسانا ، يعقل،
 ويفهم، ويدرك ، ويتحرك، ويعمل .

وصار هذا التكوين الآدمي آية من آيات الله تعالى ، تشهد له بالوحدانية
في التأليه، والصفات، والأفعال، وتوضح مكونات المخلوقات، ووظيفة كل
منها في حركة الحياة، وسيادة الإنسان للمخلوقات الأخرى .

إن التأمل في لحظة الوجود الأولى للإنسان وغيره من الكائنات يؤكد
ضرورة الإيمان بالله تعالى، وضرورة العبودية له، ويحتم الاستقامة على
منهج الله تعالى مخلصين له الدين حنفاء ...

وليس من ركيزة تدعو إلى الإيمان أقوى من ركيزة الخلق والإبداع الذي
قدره الله تعالى للإنسان، وتتجلى هذه الركيزة في الجوانب الآتية : -

- أولاً -

أصالة الإنسان وتكريمه

آدم عليه السلام هو أبو البشر، وهو المخلوق الإنسي الأول ، فلا آدم قبله ،
وكل الناس من بنيه، وذريته ، لأن التاريخ والواقع لا يشير لوجود أوادم قبل
آدم عليه السلام ، بدليل عدم ظهور أي أثر لهم ، ... وعدم الإشارة إلى أي ذرية
لهم في أي بقعة من الأرض ، ولو وجدت أوادم أخرى لاستسلم إبليس
اللعين لأمر الله تعالى ، ولاستمر على ما كان عليه معهم ، ولكنه أبى
السجود لآدم عليه السلام ، واستكبر عن السجود لمخلوق رآه لأول مرة ، وظن نفسه
أرقى منه وأعلى .

ولو وجدت أوادم أخرى قبل آدم ﷺ لأشار الوحي إليها، ولتكلم آدم ﷺ عنهم، ولتكرر إيجادهم بعد ذلك، وكل ذلك لم يحدث، فتبين أن آدم ﷺ هو أبو البشرية ، وهو أول إنسان مخلوق في الأرض .

وخلق آدم ﷺ بصورته آية كبرى، وركيزة إيمانية واضحة ، فمن الطين كانت الصورة ، ومع العقل وجد العلم ، والفهم، والإدراك ، ومن الروح وجد الاتصال بالله تعالى، ومن المجموع كان الإنسان المكلف بتعمير الأرض ، وبناء الحياة بأمر الله تعالى ، وإقامة الخلافة لتطبيق شرع الله تعالى .

فآية الآيات وجود الإنسان بمكوناته التي تميز بها ، فبجسده كانت صورته، وبعقله كان فهمه، وعلمه، وإدراكه، وبروحه الوثابة النقية كان اتصاله بخالقه تعالى .

لقد حاول إبليس أن يكون سيد الكون، وادعى أنه أفضل من آدم ﷺ، وقال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (١)، فرد الله تعالى حجته ، وأنظره إلى يوم القيامة ليعبث في الأرض ، ومعه أبناؤه وأتباعه ، ويعمل على نشر الضلال، والغواية، والفساد .

إن العاقل يعود بعقله إلى يوم الوجود الأول لآدم ﷺ ، وحوله الملائكة تسجد له ، وتعظمه، وبينهم إبليس اللعين الذي أبى واستكبر ، ورضى أن يعيش في الأرض عدوا لآدم ﷺ ، وبنيه ، ليضلهم ، ويغرهم ، ويوسوس في صدورهم ، ويزين لهم الفواحش .

إن العاقل يعود إلى الإيجاد الأول، وإلى حالته اليوم ليعرف الفضل الذي وضعه الله ﷻ فيه، والنعم التي يرفل فيها، والكرم الذي أحاطه الله به من كل

(١) سورة الأعراف الآية : ١٢ .

جانب في ذاته وحياته، وبيصر آلاء الله تعالى في دقة الخلق، وروعة الإيجاد، ويعيش مع هذه التساؤلات التقريرية التي سأذكرها لإظهار الركائز الإيمانية، وبراهين القدرة الإلهية البارزة في كيانه كله، والتي لا يستطيع مادي مغرور أن يجيب عليها بصدق، ولا يؤكد بما لديه من مزاعم باطلة.

أما العقلاء فهم يزدادون إيماناً بالله تعالى، وهذه التساؤلات هي : -

- ١- من الذي اختار له الصورة التي هو عليها ؟ .. ومن ركبه فيها ؟ ..
- ٢- من الذي هيا للرجل والمرأة أجهزة لإخراج ماء به حياة ؟ ... وجمع الحياة من مائين ؟ ...
- ٣- ومن الذي خلق الحياة من الماء، وأظهره في وقت معين ، وفي حالة خاصة؟ ... وجعل منه ذكرا أو أنثى .
- ٤- من الذي هيا للجنين المسكن المكين، والغذاء الملائم ، والنمو المتوازن ؟ ...
- ٥- من الذي يعلم متى يخرج الجنين من بطن أمه ؟ ... وما هي صفاته العضوية ، والعقلية ، والنفسية ؟ ...
- ٦- كيف يشعر الجنين وهو في بطن أمه ، ويعد ولادته بالحنان، والود، والهدوء ؟ ...
- ٧- ما هو العقل؟ ...، وما هي صلته بالجسد والروح ؟ ...
- ٨- ومن يوجه الأذن لتسمع، والعين لترى ، واللسان للكلام ، والأنف للشم ؟ ...
- ٩- من أوجد الأجهزة الداخلية في الإنسان من معدة لهضم الطعام، والشراب، ورئة للتنفس، وقلب لتنقية الدم ، وعروق لغذاء الجسم ، وكبد وطحال للمساعدة في الهضم ، وأمعاء للإخراج ،

من أوجدها ؟ ...

ومن هدى كلا منها لوظيفتها ؟ ...

ومن كلفها بالعمل التلقائي ؟ ...

ومن نسق بينها جميعا ؟ ...

ومن يرعاها ؟ ...

ومن يحفظها ؟ ...

١٠- من الذي أوجد المفاصل في البدن للثني، والوقوف، والمشي،
والحركة ؟ ...

١١- ما الذي يوجه القوة الحيوية في الجسد ؟ ويصنع في كل عضو
الطاقة التي تحركه لتحقيق هدف مقصود ؟ ..

١٢- كيف يباشر العقل العمليات العقلية العديدة ؟ ..

١٣- ما هي الروح التي توجه الحياة، وتسمو بصاحبها إلى مكارم
الأخلاق ؟ ... وإلى عالم الخلود ؟ ...

إن الله تعالى هو صاحب الفضل كله، خلق فسوى، وقدر فهدى.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه القادر

يقول الله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۗ (١)، ويقول ﷻ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ

الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۗ (٢) .

إن العاقل هو من يتأمل نفسه، ويذكر نسبه، ويعرف ربه، ويشكره على
نعمه ، وأفضاله، فهي سابغة كثيرة ، بدأت قبل مولده ، وعاشت معه في

(١) سورة الطارق الآية : ٥ .

(٢) سورة عبس الآية: ٢٤ .

بطن أمه، وصاحبته عند مولده ، واستمرت معه إلى أن يلقى ربه ﴿ ذَٰلِكَ فَضَّلَ
اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١﴾ .

- ثانياً -

الجمال في صورة الإنسان

لم يخلق الله تعالى آدم ﷺ على صورة الخلائق الموجودة قبله، مثل
الشجر، والحجر، والزرع، والفاكهة، والأنعام، والحيوان، والزواحف، والحشرات
والطير، والهوام ، ... وإنما صورته على نحو خاص ، هو هيكله الذي عاش
به، وعلى صورته التي جاءت ذريته نحوها برأس مرفوعة ، وبدن منصوب ،
ووجه يعلو، ويد تتحرك، ورجل تمشي، ولسان يتكلم، وأذن تسمع، وعقل
يعي، ويدرك، وعن ذلك يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿١﴾
الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٢﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٣﴾ . (٢) .

ومن لحظة الخلق الأولى لآدم ﷺ ظهر حسن الإنسان، وجمال الصورة،
ودقة الفهم والعلم أمام الملائكة وأمام إبليس، وفي ذلك آية لكل عاقل تلزمه
بالإيمان، وتوجب عليه شكر الله تعالى ،

ونسأل الماديين عن صانع الإنسان على هذه الصورة الجميلة، وبألوان
شتى، وهياكل عديدة، وكلها تؤكد وجود صانع قادر .

ونسألهم عن الذي قدر استمرار البشرية على صورة أبيهم آدم ﷺ؟ ...
إن دارون القائل بالتطور لم يشر إلى ما هو أجمل من الإنسان الذي
عاصره ، أو الذي بشر به، وكل مذهبه خيال وفروض ينقصها الدليل
الصادق، والبرهان الصحيح .

(١) سورة الجمعة الآية : ٤ .

(٢) سورة الانفطار الآيات من ٦ : ٨ .

والحق يثبت أن الخالق هو الله رب العالمين، فهو سبحانه ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ
كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۗ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ
مَّهِينٍ ۗ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۗ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ﴿٥﴾ (١) .

- الثالث -

تكامل عناصر الإنسان

تكامل العناصر الثلاثة في الإنسان تدل على وجود الله تعالى ، وتعد
ركيزة إيمانية، فقد أودع الله تعالى في حيوان النطفة ملامح العقل، وإشراقه
الروح، وأنشأ العقل والروح مع نشأة البدن، وربطهما باللحم والعظم، ...
وبالولادة خرجت العناصر الثلاثة في صورة تجعل الصغير يحس بالجوع،
والشبع، والألم، ويقبل على الثدي واللبن، وأخذت عناصر الطفل تكبر،
وتتضح في تماسك وتعاون من خلال صناعة إنسان صغير الحجم، يتأثر
بالذكر والدعاء، وكلما كبر حجمه زادت مداركه، وتجلت أحاسيسه وروحه ،
وتميزت عضلاته، وأجهزته، وقام كل عنصر بوظيفته على نحو قدرتي واضح
يشهد بقدرة الله تعالى وسعة فضله على هذا الإنسان المخلوق .

وقد اتحدت العناصر جميعا في إنسان راشد مكلف، يؤمن بالله تعالى ،
ويعيش بمنهج الله ، ويمثل الكون بدين الله تعالى في تكامل قدرتي عجيب .
فيتحصل البدن على ما يغذيه ، وينميه ، وعلى ما يعينه على القيام بما
يجب عليه من عبادة وعمل في إطار شرع الله تعالى .

ويقوم العقل بفهم الإسلام، وتطبيق المنهج، والتعامل بالمعروف، والتشاور
مع الآخرين ، وإقامة مجتمع بشري في الأرض يعمل لله ، ويسعى إليه ﷻ .

(١) سورة السجدة الآيات من ٧ : ٩ .

وتنطلق الروح إلى بارئها، ومحضنها ، لتسعد ، وتستريح ، وتمد البدن بالطمأنينة والرضى ، وتشعر العقل بالقناعة ، والسكون .

وكأني مع العناصر الثلاثة للمؤمن في اجتماع يتناقشون فيه، وهم في القبر بعد الموت، وكل يتحدث بما يشعر به .

فيشكر البدن العقل أن يسر له الحلال، وعرفه به ، وأبعده عن المنكر، ونهاه عنه ، وكان لأفعاله رقبيا ، ولتوجهه للخير معينا مؤيدا .

ويشكر الروح أن ربطته بمجالها العظيم حتى أحس وهو في الأرض بعالم الملائكة العلوي ، وعلم أنهم لله في الأرض الرقباء والحفظة .

وأخذ العقل يشكر البدن لحسن طاعته، وطرده الوسواس الشيطانية ، وبعده عن عمل السوء وأهله .

وأخذ يشكر الروح ، لأنها جعلته يتذكر الله في علاه ، وبطيعة ، ويخاف منه ، ويتمنى الفوز والنجاة في الدنيا والآخرة .

وتسعد الروح بما تسمع من أخويها، وتبشرهما بالرضى والرضوان الذي سيجمع الثلاثة في مقام واحد كما هما اليوم في كيان واحد ... وأتخيل السعادة الكبرى تعم هذا الاجتماع وهم في روضة من رياض الجنة .

هذا الاجتماع هو الإنسان في حقيقته يوم أن تخشع جوارحه ، ويستقيم عقله ، وتهتدي روحه .

إن أي صناعة بشرية يقل شأنها، ويضعف دورها بمرور الوقت ، أما الإنسان فإنه يبدأ ضعيفا، ثم يكبر، ويشتد ويقوى، وتستمر قوته إلى قرب ذهابه إلى الله ﷻ، وهذا فضل من الله تعالى .

إن تكامل عناصر الإنسان شيء قدرى محض لا يقدر عليه إلا الله تعالى، ولذلك يسعد المرء بحب الله ﷻ، ويجد لذة الإيمان في قلبه ، وحياته ، ويخلو

من التناقض الفعلي ، والقلق العقلي، وسقوط الروح .

- رابعاً -

تحقيق السعادة والأمن

تكامل العناصر الثلاثة في الإنسان يوجد الشخصية المؤمنة التي تعبد الله بإخلاص، وتقويم الخلافة بالعدل، وتقضي على الأمراض النفسية والعصبية، بإرضاء النفس، وإشباع العواطف، وتحقيق المطالب الشرعية للانفعالات والدوافع، لأن التطبيق السليم لتعاليم الله تعالى يضع كل عنصر في الإنسان في المجال الذي خلق له، فالعقل يوجه الجوارح بهدوء إلى الصبر والرضى، ويسعد بنور الروح وهي تهب عليه من علاها، تذكر بالله تعالى، وبالقيم الفاضلة، وبالأخلاق الكريمة التي جاء الإسلام بها.

وهنا تهدأ العواصف الهائجة في النفس، وتسكن الدوافع الثائرة في الفطرة، وينتهي التوجه الذاتي، ويستجيب الإنسان لقول الله تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ قَوْبٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

(١) سورة الفرقان الآية : ٦٣ .

(٢) سورة الحجرات الآية : ١٢ .

(٣) سورة الأنفال الآية : ١ .

ولقول رسول الله ﷺ :

- عن صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عجا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) (١)
- وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا) (٢)
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه (أن رجلا قال للنبي ﷺ : أوصني . قال ﷺ : " لا تغضب " فردد مرارا ، قال : " لا تغضب ") (٣) .

إن الإنسان المعاصر يشكو الهموم، ويخاف من المستقبل، ويصطدم بالمآسي والاضطرابات، ويصاب بأمراض عصبية، ونفسية عديدة تؤدي به إلى كراهية الدنيا وما فيها، وقد توصله إلى الانتحار، وسبب ذلك أنه حرم نفسه من منهج الخالق العظيم، ورضى لنفسه بمناهج بشرية وضعية. وهنا أهيب بالإنسان المسلم، وأناديه إلى الله تعالى، ليكون عبدا مطيعا لربه، ملتزما بشريعته، ويكفيه من الضلال ما هو فيه من فقر وجهل، وحاجة

(١) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير - حديث : ٥٤٢٨

(٢) سنن الترمذي الجامع الصحيح - الذبائح، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -

باب ما جاء في الإحسان والعفو، حديث : ١٩٧٩

(٣) صحيح البخاري - كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب - حديث : ٥٧٧٠

إن غير المؤمنين لا يرضون بما يقع لهم ، ويطلبون المزيد عليه ، وعقلهم يجرحهم إلى العدوان والغلبة، والجور على الآخرين، وترتد أرواحهم إلى عقولهم كئيبة، مكسورة ، بعدما انسدت أمامها طرق الوصول للحق، وعميت عن رؤية نور الله ، وسوف تسأل أرواحهم يوم القيامة عن سبب عماها، ونقول لله تعالى: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ (١) ؟ ...

فيرد الله ﷻ عليها : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَمَا نَسَى آيَوْمَ نُسَى ﴿١٢٦﴾﴾ (٢) إن الإيمان بالله تعالى يحقق الأمن والسعادة للمجتمع كله، أفرادا وجماعات، لأن كل إنسان يؤدي واجبه لله مخلصا، ويستسلم للقدر راضيا ، ويؤمن بأن ما كان وما يكون ، وما سيكون فهو قدر الله تعالى .
إن المؤمن يأخذ من أقدار الله تعالى خيرا يرضى به إن كان ضرا، ويشكر عليه عن كان خيرا .

عن صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عجا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء ، صبر فكان خيرا له) (٣)

(١) سورة طه الآية : ١٢٥ .

(٢) سورة طه الآية : ١٢٦ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير - حديث : ٥٤٢٨ .

الفصل الثاني

ركائز الإيمان في

سرعة الاستجابة والتغيير

ركائز الإيمان في سرعة الفهم والتغيير

يتنوع البشر وتختلف طباعهم، ومذاهبهم، وأخلاقهم، وبينهم تسعى الشياطين للإفساد، والإضلال، ... ووسطهم تنتشر الملائكة تنادي بالخير، وتشهد على الناس، وتستغفر للصالحين.

ومن هنا يختلف سعي الناس ، وتنوع اتجاهاتهم ، واهتماماتهم ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝ (١) ، ويقول ﷺ : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝ (٢) .

والإنسان المسلم العارف بمقامه، الراغب في جنات النعيم يرى الطريق المستقيم الموصل إلى الله تعالى، ويبحث عنه، وينظر إلى الكون الفسيح، والآفاق الواسعة، والمخلوقات العديدة، فيرى الله تعالى، ويتبين بعقله أنه سبحانه هو الحق، ويتوافق بسرعة مع دعوات الخير، وعوامل الإصلاح ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۝ (٣) .

إن روح المؤمن لا ترضى لطائف الشيطان أن يعشعش في العقل ، أو يقود البدن للهلاك، فتبصر العقل بنور الله تعالى، وتأخذ الجسد إلى طريق الله ﷻ ، وتعيد المؤمن بكليته إلى الله ﷻ ، ويغور الشيطان بلومه بعيدا عن المؤمن وهو حسير .

إن المؤمن لا يستريح مع الظلام، ولا يرضى بالظلم ، فإذا اقترب منهما

(١) سورة الليل الآية : ٤ .

(٢) سورة هود الآية : ١٠٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية : ٢٠١ .

أسرع بالبعد عنهما بأمر في نفسه ، أو بتوجيه من خارجه، فهو على نور من ربه، فيحب الله تعالى ورسوله ﷺ ، ويرضى بما قدر له، ويتيقن بقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (١) .

إن من آيات الله تعالى في الإنسان سرعة إيمانه، وقوة يقينه إذا صفت روحه، وهدى الله تعالى عقله، ومكنه من النور الذي يؤثر فيه، ومن دلالات سرعة إيمان النفس الصافية وجود الشفافية التي تجعلها تتأثر بالخير والمثل التي تراها، وتعلمها، ... ومن هذه المؤثرات الإيمانية : -

١- القدوة القائمة :

يجد المؤمن أمامه مثالا واقعيا يتأسى به ، ويتخذه قائدا له ، فقد جعل الله تعالى رسوله ﷺ موطن حب المؤمن، ومثال الخير أمامه فقال ﷺ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ﴾ (٢) ، ولذلك كثرت المؤلفات التي تعرف الناس برسول الله ﷺ وكأنه يعيش مع الناس ليروا عمله، ويسلكوا مسلكه.

جاء الصحابة رضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إلى أم المؤمنين عائشة رضِيَ اللهُ عَنْهَا وسألوها عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت رضِيَ اللهُ عَنْهَا : (كان خلقه القرآن) (٣)، فأجابتهم رضِيَ اللهُ عَنْهَا إجابة قليلة الكلمات، لكنها شاملة لحياة رسول الله ﷺ كلها .

فسؤال الصحابة رضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كان لمعرفة مناط القدوة في خلق رسول الله ﷺ الذي

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .

(٣) مسند أحمد بن حنبل - مسند الأنصار - حديث السيدة عائشة رضي الله عنها حديث : ٢٤٠٤٥ .

أخلصوا له الحب ليتمثلوها في حياتهم ، ويعيشوا بها في دنياهم ، فعرفتهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القرآن الذي عاش به عملا ، وخلقا، وسلوكا ، فمن أراد أن يقرأ حياة محمد صلى الله عليه وسلم فليقرأ القرآن الكريم، ومن أراد أن يرى الصورة العملية للقرآن الكريم فلينظر لخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن محمدا صلى الله عليه وسلم نور يشع في الدنيا، ويوضح الطريق الموصول لله تعالى، وهو صلى الله عليه وسلم بذلك شخوص عديدة في ذات واحدة ، كل منها متكامل في ذاته ، فهو معلم وداعية، وهو زوج وأب، وهو شيخ قبيلة وأحد أفرادها، ورئيس دولة وأحد الرعية، وهو مجاهد، ومحارب ، وعابد، ومتحنث، هو صلى الله عليه وسلم كل نماذج الخير والاستقامة في الناس، يقول الله عز وجل وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ ويقول صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧٦﴾ ﴿٢﴾

والافتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم أمر سهل بسيط يحتاج لمعرفته صلى الله عليه وسلم، وإظهار جوانب العظمة في سيرته ، وضرورة الانتفاع بنوره ، ودعوته، والمسلم يجد في نفسه دافعا قويا لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحب طاعته، والاستجابة لدعوته.

وهنا

ننادي بضرورة دراسة السيرة النبوية ، وبخاصة مناط القدوة فيها، والآثار التي تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم لتوجيه المسلمين لفعالها .

ومن ركائز الإيمان في الإنسان سرعة استجابته للحق، وإخلاصه في طاعة الله تعالى، فقد وضع الله تعالى فيه نفسا تلومه على الخطأ، وتدعوه

(١) سورة الأنبياء الآية : ١٠٧ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٦٤ .

للصواب، ولأن فطرته للتقوى، ورزقه عقلا يميز الحق من الباطل، وروحا تحببه في الخير والصواب.

وما أبعد الإنسان عن الإسلام إلا شياطين الإنس والجن الذين يصدون الناس عن الإيمان بكل ما أمكنهم من حيل، وأكاذيب، وأعمال، ولذلك كان التحذير من مصاحبة المفسدين الذين يسعون في الأرض فسادا .

إن الإنسان يهتدي بأمر الله تعالى بكلمة مؤثرة، أو بموقف معبر، أو بفكر ثاقب، لقد اسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسماع آيات من القرآن الكريم ، وأسلم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه من سب الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم العربي وهو يقول: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، ... أسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا يدل ذلك على قدرة العزيز الحكيم؟

٢- القرآن الكريم :

معجزة الإسلام الكبرى هي القرآن الكريم ، وهو " كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، المعجز، المتحدي، المتعبد بتلاوته" ، وقد يسره الله تعالى للذكر، وبين أحكامه ، وحكمه، وقد آمن الكثير بمجرد استماع آيات القرآن الكريم، وشهد لحلاوته خصوم الإسلام في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والقرآن الكريم هو مصدر التشريع وأساس الدعوة ، وفيه من صور التأثير الكثير، ومن صفات المؤمنين أنهم ﴿ إِذَا تُلِّيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝ ﴿٥٨﴾ (١) ، وهم ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ﴿٢﴾ (٢) .

(١) سورة مريم الآية : ٥٨ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٢ .

وكان القرآن الكريم سببا لإيمان بعض القسس، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيحِينَ وَهَبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْفُرْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿٨٣﴾ (١) .

والإنسان يتأثر بالقرآن الكريم لجلاله وكماله، ووضوحه، وبيانه، وسعة موضوعاته، وقوة تأثيره، وبلاغته، فهو يبرز نعم الله تعالى وآلائه في الخلق والعطاء، والرزق والإنعام، ويورد القصص الذي يعرف بطباع البشر، وصوت المؤمنين، وحجج العصاة والمنافقين ، ويوضح نتائج المواقف كلها من كفر وإيمان .

ويقدم القرآن الكريم للإنسان أدلة التوحيد ، والإيمان، وزيف المنافقين والكفار، وهو سند الدعاة دائما وهم يبلغون دين الله تعالى .

وننبه في هذا المجال إلى أن خصوم الإسلام يهاجمون القرآن الكريم بمزاعمهم الباطلة ، لأنهم يرونه قوة للإسلام والمسلمين، وواجب على كل مسلم بصورة عامة ، والدعاة بوجه خاص الاهتمام بالقرآن الكريم بإتقان حفظه، وقراءته ، وفهم معانيه وأحكامه ، وتطبيق أوامره ونواهيه،

وليعلم الدعاة أن القرآن الكريم أساس الدعوة، ومنهج السلوك القويم، يقول الله ﷻ على لسان رسوله ﷺ: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ (٢) ولذلك رأى الفقهاء جواز أن تكون خطبة الجمعة قرآنا فقط ، والداعية الجيد هو الذي يستشهد بآيات القرآن الكريم في خطبه وأحاديثه بما يتفق مع الموضوع والعناصر التي حددها لموضوعه .

(١) سورة المائدة الآيتين : ٨٢، ٨٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٩ .

لو أراد المسلمون لأنفسهم وأمتهم الخير فعليهم بمنهج الله تعالى الذي آمنوا به ، واستسلموا لحكمه، وإن لا فليعلنوا على الملأ مقاصدهم ، وموقفهم مع دين الله تعالى .

إن آيات القرآن الكريم ، ومعانيها تسري إلى الأرواح لا يصدها حاجز مادي، وتتفعل بها العقول، وهي تعرض الآيات من خلق الله تعالى ، وتنشط لها الأبدان ، وهي تتبع الأرواح والعقول .

وقد حفظ الله تعالى القرآن الكريم، ويسر للناس الوصول إليه ، وها هي مخترعات الاتصال تذيعه في كل وقت ، وفي كل مكان حتى صارت له مؤسسات عديدة .

وهنا أسأل :

متى يفيق المسلمون ؟ ومتى يستفيدون من القرآن الكريم ؟ ...
٣ - التطبيقات العملية المشروعة :

لا يعيش الإنسان وحده ، ولكنه يعيش مع الناس ، يتأثر بهم ، ويؤثر فيهم ، ويرى عملهم ، وحياتهم ، ويحب النجاح، ويكره الفشل ، ولذلك كان اقتداؤه بالعمل الصالح ، والمثال الطيب ، ...

وقد اهتم الإسلام بإنشاء المجتمع المسلم في كافة نواحيه لينشأ الإنسان فيه مسلماً ، تتجاوب فطرته مع الواقع ، فيكسب المال الحلال الطيب ، ويجد العمل الطيب ، ويرى مؤسسات الدولة على منهج الإسلام ، وحينئذ يسهل عليه أن يكون مسلماً ، ويسهل عليه أن يربي أولاده على الإسلام ، وتنهض الأمة بالإسلام وتقوى به

واليوم :

ساء حال الأمة بسبب تركها لمنهج الإسلام في حياتها، فقد تعددت مناهج

لتعليم، وانتشر الربا ، وظهرت الفحشاء بين الناس، وعلا الباطل ، وساد أهل البغي والفساد ، وهذا حال يضر ولا يفيد، ويؤدي إلى الاضطراب، لأن جانبا يبني، وآخر يهدم، وداع يدعو إلى الحق، وآخرون ينادون للفساد والشهوات .
إن الأمم الناهضة تعلن عن ذاتيتها، وتطبق المنهج الذي آمنت به، أما المسلمون فهم يعلنون إسلامهم ، وعند العمل لا ترى فيهم من الإسلام شيئا.
لقد اتخذ الصحابة الكرام رسول الله ﷺ قدوة لهم ، واتخذ التابعون الصحابة قدوة لهم ، ونحن اليوم نبحث عن القادة القدوة الذين يأخذونا إلى الله تعالى ، ويبعدونا عن مزالق الطريق .

٤- الترغيب والترهيب :

يتمنى الإنسان أن ينجح في دنياه ، ويسعد في أخراه ، ولن يتحقق له ما يتمنى إلا بالاستقامة على منهج الله تعالى الذي جاء به الإسلام ، ووضعه أمامنا رسول الله ﷺ ، ومن رحمة الله تعالى أن رغب الإنسان في الطاعة، وخوفه من المعصية، ووضح أمامه الطريق الذي يوصله إلى الخير في الدنيا وفي الآخرة بمنهج يناسب عقله وروحه، يبدأ بدعوته البينة، يقول الله ﷻ : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١)

ويدعوه إلى الحسن في القول، والعمل ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢)

إن النفوس ليست صورة واحدة فمنها الهين اللين الذي يتأثر بالإشارة ،

(١) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

(٢) سورة فصلت الآيتين : ٣٣ ، ٣٤ .

ويستجيب لنداء الروح، ورغبات الميول والوجدان، وهؤلاء يكفيهم القول اللين، والدعوة الهادئة .

ومن النفوس أناس جمدت مشاعرهم، وازداد انحرافهم ، وهؤلاء لا يصلح معهم إلا التهديد ، والتخويف والعقوبة .

وتجلت رحمة الله تعالى بهؤلاء القساة، فتدرج ﷺ في تهديدهم، وإنذارهم، فناداهم ليعودوا لله تعالى ، يقول ﷺ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونِ ۝١٦ ﴾ (١) .

وحذرهم ﷺ من مخالفة شرعه حتى لا ينقلب حالهم، فقال ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝٣٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَئِمَّ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٣٩ ﴾ (٢) .

وخوفهم من عذاب الله في الآخرة ، يقول ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنقُ أَثَامًا ۝٣٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝٣٩ ﴾ (٣) .

إن المؤمن يصدق بكلام الله تعالى، ولذلك يسارع إلى الطاعة، والاستقامة أملا في النجاة والفوز، واستجابة لنداء الحق سبحانه وتعالى .

إن الإنسان العاقل يعيش مع القرآن الكريم ، ويتأمل ما فيه من عظات بينات ، ومثلات واضحات ، وترغيب في الصالحات التي يراها في القرآن الكريم ، وفي قدوة النبي ﷺ .

(١) سورة الحديد الآية : ١٦ .

(٢) سورة البقرة الآيتين : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) سورة الفرقان الآيتين : ٦٨ ، ٦٩ .

الفصل الثالث

ركائز الدعوة في

إشباع العواطف المتعارضة

ركائز الدعوة في إشباع العواطف المتعارضة

يتعامل الجسد مع الواقع الذي يعيش فيه ، فيأكل من طعامه، ويشرب من مائه، ويتخذ عملا يلائمه، ويتألف مع عادات الناس وتقاليدهم .
ويأخذ العقل مفاهيمه من الواقع، ويختار طريقه انطلاقا منه، ويستدل على ما غاب عنه مما يرى ويسمع .

وتأخذ الروح العقل في مجالها الواسع ، فتذكر الماضي البعيد، وتريه الحاضر القريب، وتستبشر بالمستقبل وبما فيه من آمال وأحلام .

وتستمر الروح في تفاعلها مع العقل خلال عواطف نفسية عديدة، ومن عجيب هذه العواطف أنها كامنة في النفس، ولها تأثير على العقل والجسد ، فالحزن يؤلم العقل، ويؤذي الجسد، والحب ينشط الجوارح، ويحيي الروح، ويقوي العقل والأمل، ويشجع على النشاط والعمل، ويمتن الفهم واليقين .

ومن عجائب هذه العواطف الساكنة في نفس الإنسان أنها متعارضة، وتبحث عن الإشباع، وتأبى السكون والعدم، وتستمر في الضمير والقلب.
يولد الطفل وفي نفسه هذا التعارض، فهو يحب الدفء في صدر أمه، ويقبل على الرضاعة، ويحب من يلعب معه، ويقبل عليه، وفي نفس الوقت يخاف الصوت العالي، ويكره من يقسو عليه، ويقاطع من لا يلاعبه .

والإنسان البالغ المكلف يخاف الفقر، والعجز، والموت ، ويحب الاستقرار، والغنى، والحياة .

هذا التعارض العاطفي موجود في النفس البشرية كثيرا ، ففيها الغضب والرضى، وفيها اليأس والأمل ، وفيها الطمع والقنوط، وفيها الواقع والخيال، وفيها الميل للسكون، وحب النشاط والحركة ، وفيها الشجاعة والجبن ، وفيها

تعارض كامن بالنسبة لكافة العواطف الباطنية .

ومن رحمة الله تعالى بالإنسان ربط هذه العواطف بالواقع الذي يعيشه الإنسان، فأوجد لكل عاطفة ما يرضيها، وبأخذها إليه حتى لا يكبت عاطفة، أو بجميع المتعارضين في شيء واحد، فتحول التعارض إلى تعاون والتقاء، فأوجد الجن والملائكة ، وخلق الخير والشر ، وجعل الظلمات والنور ، وقدر سبحانه ظهور العواطف مع ما يناسبها في الواقع ، وبذلك يستفيد الإنسان بعواطفه كلها، ويعيش إنسانا متوازنا سليما ،

فهو في حال يعشق العمل، ويتعلق بمحبوبه، ويهيم بالملأ الأعلى، ويتمنى النور العظيم، ويرجو رغد الحياة في عطاء الله تعالى ، وسبحات الروح .

وإذا أصيب المكلف بمكروه ينتقل نشاطه إلى الجانب العاطفي المضاد، فيكره الأعمال الضارة، ويمقت الفساد والمفسدين، ويرفض البؤس والفقر، ويتمنى البعد عن المكاره والعيوب، ... وبذلك لا يلتقي المتناقضان في مسار واحد ، وإنما يقدر الله تعالى لكل عاطفة ما يناسبها من واقع الحياة، وبذلك يستفيد الإنسان بالعواطف المتعارضة ، ويضع كل عاطفة في مسارها الذي يرضاه لها .

وقد جعل الله تعالى للإنسان اتجاهات نفسية متعددة، تظهر حين الحاجة إليها، فنفس الإنسان تأمره بالغبوية والسوء إن لعب بها الهوى، وهي تلومه بعد المعصية حتى لا يعود إليها، وهي مطمئنة إذا أخذت صاحبها إلى الخير والصواب، ... وهي في كل أحوالها لا تتناقض ولا تموت ، فإذا قويت في جانب ضعفت في غيره .

يقول الله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْتَهَا ۖ فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۗ وَقَدْ حَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۗ ﴾ (١) ، ويقول ﷺ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴾ (٢) ، ويقول ﷺ : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۗ ﴾ (٣)

لقد مكن الله تعالى الإنسان من التعامل مع كل موجود بما يناسبه من عاطفة وعمل، فإن كان الموجود سوءاً أو شراً، فإن عواطف الكراهية، والبغض، والنفور تحيط به ، وإن كان الموجود حسناً أو خيراً فإن عواطف الحب، والتعلق ، والرضى تدفع إليه ... وبهذا يستفيد الإنسان من العواطف المتعارضة التي خلقها الله تعالى في نفسه .

وهذا إعجاز قدرتي أوجده الله تعالى في الإنسان الذي خلقه وسواه ، ولا يستطيع ذلك غير الله تعالى، ولو تصورنا الإنسان يعيش بتوجه واحد لعواطفه فإنه يعيش مضطرباً عاجزاً أمام الموجودات المتعارضة .

إن الحياة النفسية والعقلية لم يصل إلى سرها أحد، ولم يدع أحد إمكان إيجاد مثيل لها .

إن إشباع التعارض العاطفي في النفس البشرية يحقق ما يلي : -
أولاً : يوسع أفق الإنسان، ويمكنه من التعامل مع الواقع على ما هو عليه، فلديه استعداد فطري للتعامل مع تناقضات الواقع، وهو ثابت على الحق الذي هداه الله إليه .

(١) سورة الشمس الآيات من ٧ : ١٠ .

(٢) سورة الملك الآية : ٢ .

(٣) سورة الإنسان الآية : ٣ .

ثانياً : يرضي كافة العواطف الإنسانية بإيجاد الطرق المتعددة المناسبة للواقع، حيث تجد كل عاطفة في النفس ما يشغلها، وينشطها، فعواطف الكراهية والسوء تجد مجالها مع الأمور المحرمة، ووسط وساوس شياطين الإنس والجن، وعواطف الحب والمودة، والأمل تسعد مع الزوج، والعمل الصالح، وصفاء الحياة، وتعليم الله تعالى .

ثالثاً : يرتبط المسلم بالوجود اتصالاً روحياً، وعملياً من خلال مفاهيم عقلية، ورغبات نفسية، وتوجه روحي، إلى الوجود كما هو كائن، وعلى أي نحو يكون، لأن المسلم يتحرك بروحه في إيجابية واضحة نحو الوجود كله راضية به أو ساخطة .

......***

وهكذا

وضع الله تعالى في صناعة الإنسان الركائز الدالة على وجوده، وقدرته، وحثه على تأمل هذه الصناعة، والنظر إليها ، والتصديق بما تثبته له ، وتقنعه به ليقوم إيمانه بالله تعالى على اليقين التام، ويعبد الله تعالى بقدر طاقته، ويستجيب لقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١) .

فليتأمل العاقل صورته، وحسنه، وعقله وفهمه، وروحه واشراقاتها ليعلم

أن الفضل لله ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٥﴾ ﴾ (٢)

(١) سورة التغابن الآية : ١٦ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٠٥ .

الفصل الرابع

الإنسان

وركائز الإيمان

الإنسان وركائز الإيمان

إن من ينظر لطفل عند مولده، ويتأمل ما فيه من خصائص لا يرى شيئاً أبداً، ولا يجد إلا قطعة من اللحم والعظم لها شكل إنسان صغير .
ولو نظر إلى هذا المولود بعد بلوغه سيرى إنساناً مختلفاً عن صورته يوم مولده ، ولو نظر إلى الأحداث التي مرت خلال النظرتين سيدرك قدرة الله تعالى في هذا الوليد، ويرى نعم الله تعالى فيه ، ويلمس القدرة الإلهية التي أبدعت، وكونت، وحافظت على هذا الكيان، ويرى ذلك في سائر المخلوقات ، وعليه بعد ذلك أن يؤمن بالله تعالى يقيناً، ويستسلم له خاشعاً، ويطيعه خاضعاً مستقيماً، وينادي ربه ﴿ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ (١) .

إن التأمل في الخلق والإبداع يؤدي إلى معرفة الله تعالى .

وتدبر عملية التعقل، والتذكر، والتخيل يوصل إلى الله ﷻ .

والسياحة في ملكوت الله تعالى تحقق التيقن .

وماذا على الإنسان بعد ذلك ؟ ...

عليه أن يكون عبداً مطيعاً لربه، وعارفاً بآلائه ونعمه، ومنتظراً لحسابه

وما حال الإنسان اليوم ؟ ..

لقد أصيب إنسان اليوم بالجمود والجحود وهو لربه خصيم مبين،

ولتعاليمه غافل لئيم ...

وسأوضح ذلك - بإذن الله تعالى - في المبحثين التاليين : -

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٠ .

المبحث الأول ركائز الإيمان في الإنسان

خلق الله الإنسان، ووضع فيه براهين الإيمان، ودعاه إلى النظر في مكونات ذاته ليعرف ربه، ويؤمن به، ويستقيم على منهجه، ... وأرسل الرسل هداة مبشرين، ودعاة إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم مستندين إلى الركائز الدعوية الموجودة في جميع مخلوقات الله تعالى .

وكان على الإنسان أن يتجاوب مع الركائز التي خلقها الله تعالى في نفسه ، وفي الكون من حوله ، ويسارع إلى الإيمان والتقوى .

إن كل جزئية في الإنسان آية تدل على وجود الله الواحد الأحد، وبرهان على التوحيد، ودعوة جادة لطاعة الله تعالى، والاستقامة على منهجه الذي جاء به رسول الله ﷺ .

إن الله هو الخالق لكل شيء، والموجد لكل حادث، ومن حق الخالق أن يعبد، ويشكر، ويطاع .

ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أن رزقه العقل ليهديه به إلى الحق، وخلق الروح ليدرك أن في الوجود غيبا فوق إدراكه، وأن الإيمان بالله يحتم التسليم بقدر الله تعالى، والوقوف عند طاقة العقل، ...

لقد خلق الله تعالى الإنسان، وشرع له ما يصلحه، ويحييه، ووضع للعقل ما يقنعه، ويرضيه، ودعاه للنظر في ذاته التي يراها، ويحس بها ، ويتأمل ما فيها من عجائب الخلق، وغرائب الإبداع ، ويؤمن بالله تعالى ، ويطيع رسوله ﷺ فيما دعاه إليه، ويكون مسلما .

إن الإنسان إذا اسلم أمره لله تعالى ، ودخل في دين الإسلام عليه أن يتيقن من التزامه بأمور معينة يقتضيها إيمانه بالله تعالى .

وعلى كل مسلم أن يتأكد من أن الإسلام دين مكون من عقيدة، وشريعة، وأخلاق، ولن يتم إيمان المسلم إلا بالتصديق التام بأركان العقيدة ، والالتزام الكلي بأحكام الشريعة ، والتحلي الدقيق بمكارم الأخلاق .

ومخطئ من يظن أن شيئاً في الإسلام يكفي، فأجزاء الإسلام كل مترابط، لا بد منها جميعاً، فعقيدة الإسلام منطلق شريعته، وأخلاقه حُسن يظهر في عقيدته وشريعته، ولا يصح لمسلم أن يفعل شيئاً، ويترك ما عداه، لأن المتروك لا يغني عنه غيره ، والمفعول يبقى ناقصاً بسبب المتروك .

وركائز الإيمان ليست صعبة المنال، ولا مستحيلة الفهم، فهي واضحة في كل مخلوق، وهي في الإنسان أشد وضوحاً، وأكثر بياناً، وقد ركز عليها القرآن الكريم، وأكدتها السنة النبوية، وقد أشرت إلى كثير منها في صناعة الإنسان .

ومن المؤسف أن الإنسان اليوم، وبخاصة المسلم منه وقع في أمراض الضعف والهوان، وانصرف عن معرفة الإسلام حتى صار الإسلام غريباً عن عقله، وإدراكه، وهذا داء يؤدي إلى الهزيمة، وإلى الخسران في الدنيا والآخرة. كان المأمول أن يستفيد العقلاء بركائز الإيمان الموجودة في كياناتهم والتي وجههم الله تعالى إليها، يقول الله ﷻ: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا بُصُرُونَ ﴾ (١) ، وعرفهم العلماء بها، من خلال مؤلفاتهم في العقيدة، والشريعة، والأخلاق ... إلا أن هذا المأمول لم يتحقق، وانصرف مسلم اليوم عن الصراط المستقيم ، وأخذ الفساد إلى ميادين اللهو والهوى، وأبعده عن المنهج الإسلامي الصحيح ، ورضى أن يلعب بعقله المفسدون.

(١) سورة الذاريات الآية : ٢١ .

إن الواجب المأمول من الإنسان المسلم ينحصر في أمور ثلاثة هي : -

الأمر الأول معرفة الإسلام

الإسلام دين قائم على المعرفة، والعلم، لأنه معلومات حقيقية ثابتة ، يحتاج من يعرفها أولاً ، ويؤديها قولاً، وعملاً بعد ذلك .

ولذلك اشترط الإسلام في المكلف أن يكون عاقلاً ليعلم ما يرى ، وينظر فيما يسمع، ويحول ما يسمع إلى منهج قابل للعمل والتطبيق، وحين نتأمل في أركان الإسلام نجدها مسائل معرفية، ميسرة الفهم، واضحة المعالم، سهلة التطبيق والعمل .

والدعوة إلى الإسلام نشر لعلم يحتاج للتطبيق، ولذلك اهتم الصحابة بالتناوب حول رسول الله ﷺ ليعلموا كل ما ينزل، ويعملوا به، وبخاصة أن رسول الله ﷺ دعاهم إلى العلم، ومعرفة الإسلام قبل العمل، وذكرهم بقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَمْلُوكِكُمْ ۝ (١) .

ولم يقل اهتمامهم بالعلم عن اهتمامهم باعتناق الإسلام، لأنهم أيقنوا من تعاليم الإسلام أن العلم ضروري للمسلم، وأنه طريقهم إلى معرفة الله تعالى، وإلى تطبيق الإسلام، وإلى التعامل الحسن مع الناس . وكانوا رضوان الله عليهم يسارعون إلى العمل بعد العلم، ولم يتركوا للشيطان مدخلا يلج منه إلى قلوبهم، وأرواحهم .

(١) سورة محمد الآية : ١٩ .

وحرصهم على العلم لم يعادله في حياتهم إلا الحرص على العمل، وطبقوا ما علموه، فكانوا بذلك ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١) .

لقد عرف الصحابة مقام ربهم، فأمنوا بدينه ، والتزموا بمنهجه، واستقاموا على الطريق القويم، فغمرتهم التقوى، وصاروا مثلا واقعية للمسلمين أجمعين. لم ينزل من عند الله تعالى أمر إلا وعملوا به، ولا نهى إلا وانتهوا عنه . وكانوا رضوان الله عليهم يسألون عن أي أمر لا يعرفون حكمه، ولم يرتضوا لأنفسهم أن يقلدوا شيئا مما عند الشرق الغرب ، واكتفوا بما جاءهم من عند الله تعالى، ورأوه كافيا لهم، وسعدوا به في دنياهم وأخراهم .

الأمر الثاني عبادة الله تعالى

الهدف الأسمى الذي خلق الله تعالى الإنسان له هو عبادته ﷻ ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۗ ﴾ (٢) .

فقد خلق الله تعالى الإنسان للعبادة ليعيش بكليته فيها، فيتحرك جسده، ويستقيم عقله، وتسمو روحه .

والعبادة التي خلق الله تعالى الإنسان لها عبادة شاملة للعبادة المحددة في شريعة الله ﷻ ، وهي الدعائم الخمسة التي بني عليها الإسلام، وعنهما يقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان) (٣)

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٠ .

(٢) سورة الذاريات الآية : ٥٦ .

(٣) صحيح البخاري - كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ : " بني الإسلام - حديث : ٨ .

وشاملة لسائر أعمال الإنسان القولية، والقلبية، والعملية، لأن المسلم يقوم بها طاعة لله تعالى، وقاصدا بها وجهه سبحانه وتعالى، ومطيعا لأمره ، يقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَوُضُّوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۗ ﴾ (١)، حيث تتحقق بها العبودية الصادقة والصلة الدائمة بالله ﷻ .

إن العبادة التي يقوم بها الإنسان منهج كامل للحياة تشمل الاعتقاد، والعمل، والصلة بالله تعالى ، وبذلك تصبح العبادة شحنة دافعة للإنسان ، تسري في الجسد وهو يعمل، وتملأ القلب وهو يفكر، وتسعد الروح وهي تسبح في عالم الخلود العظيم .

إن الإسلام صريح في اعتبار العمل من العبادة حين التوجه به إلى الله تعالى، يقول الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعَثَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۗ ﴾ (٢) .

والتأمل في الآية يبين أن البر مفهوم عام يشمل العبادات المحددة، وكل أعمال الإنسان الفردية، والاجتماعية، والسلوكية، والأخلاقية ، وبذلك تكون العبادة صناعة الإنسان الكامل العابد لله تعالى، المستقيم على منهجه ودينه .

(١) سورة البينة الآية : ٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٧٧ .

إن الله تعالى غني عن عبادة الناس، ولا حاجة له فيهم، والأمر كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : (... يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي ، فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، ..) (١) .

ولكن الله تعالى أكرم الإنسان بهذه العبودية ، لأنه بها ينال حقوقه ، ويؤدي واجبه في ثقة ، ... فلا يعرف الخوف من مخلوق ، ويعيش القوة ، والعزة، والكرامة، والحرية بملازمته لربه، وانضمامه لحزبه، يقول الله تعالى :

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

﴿ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّسُولِيُّ ﴾ (٣) .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ

سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (٤) .

﴿ وَالَّذِينَ ءَاهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (٥) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في

(١) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم - حديث : ٤٧٧٩

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٧٥ .

(٣) سورة المنافقون الآية : ٨ .

(٤) سورة محمد الآية : ٢ .

(٥) سورة محمد الآية : ١٧ .

نفسى ، وإن ذكرني في ملاذكرته في ملا خير منهم ، وإن تقرب إلي بشبر
تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتاني
يمشي أتيته هرولة) (١) .

وصدق من قال :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

الأمر الثالث

الخلافة في الأرض

منذ البدء خلق الله تعالى آدم وحواء - عليهما السلام- وكلفهما بعمارة
الأرض، والقيام بالخلافة فيها، وكان هذا الهدف واضحا في قوله تعالى :
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٢) .

وسار القدر كما أراد الله تعالى ، فامتألت الأرض بالرجال والنساء ،
ونزل فيهم منهج الله تعالى .

وبذلك اتضحت معالم خلافة الإنسان في الأرض التي كلفه الله بها .

إن الإنسان في ذاته عبد طائع مستقيم ، وهو مع إخوانه مكلف بإقامة
الخلافة في الأرض، وهو في هذه المملكة يتعاون مع المنتسبين إليها،
ويجتهد في إثرائها، وقوتها .

وحق الإنسان في مملكة الله تعالى أن يعيش فيها حرا كريما ، مؤمنا
بالله تعالى، ومستقيما على الصراط المستقيم، وعاملا لإرضاء فطرته بما

(١) صحيح البخاري - كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ - حديث :

شرعه الله تعالى له ، وعليه أن يتعاون مع غيره ، ويساهم في نهضة الأمة بقدر ما يستطيع ، ويؤدي ما عليه من حقوق ، يقول الله تعالى : -

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٣) .

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مِمَّا مَلَكَتْ مِنْ نَفْسِكِ فَتَنْكِحِي طَلِيقَاتِكَ سِوَىٰ مَا سَأَلْتِ وَابْتِكَارًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (٤) .

ويقول النبي ﷺ :

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال :

يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتي ؟

قال ﷺ : " أمك " .

قال : ثم من ؟

قال ﷺ : " ثم أمك " .

(١) سورة الإسراء الآيتين : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة الروم الآية : ٢١ .

(٣) سورة النحل الآية : ٩٠ .

(٤) سورة التحريم الآية : ٥ .

قال : ثم من ؟

قال ﷺ : " ثم أمك " .

قال : ثم من ؟

قال ﷺ : " ثم أبوك " (١) .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سره أن يبسط له في رزقه ، وأن ينسأ له في أثره ، فليصل رحمه) (٢)
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (استوصوا بالنساء خيرا)(٣)
- وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما زال يوصيني جبريل بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه) (٤) .

- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) (٥) .

والنظر في هذه الآيات والأحاديث وأمثالهما كثير يتبين واجبات المسلم تجاه إقامة مجتمع إسلامي ملتزم بشرع الله ﷻ، وبذلك تقوم الخلافة الإسلامية في أرض الله تعالى.

(١) صحيح البخاري - كتاب الأدب، باب : من أحق الناس بحسن الصحبة - حديث : ٥٦٣٣ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم - حديث : ٥٦٤٥

(٣) صحيح مسلم - كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء - حديث : ٢٧٤٩

(٤) صحيح البخاري - كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار - حديث : ٥٦٧٤

(٥) صحيح البخاري - كتاب المظالم والغصب، باب : لا يظلم المسلم المسلم - حديث : ٢٣٣٠

ولابد للمسلم من العودة لدين الله ﷻ ليكون مسلماً بحق، وعليه أن يتيقن
من تعاليم الله تعالى فهي الطريق الوحيد للإصلاح، وأحكامها تعم حياة الفرد
وحياة الجماعة، وسوف يسأل الله تعالى كل مسلم عن نفسه ، وعن إخوانه،
ومجتمعه، فلكم مسئول عن رعيته .

إن تنظيم الوجود متكاملًا، متوازنًا لا يكون إلا من إله عظيم، ﴿ وَطَقَّ
كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿١﴾ ، فقد صنع عبداً، ووضعه في الأرض،
وسخر له الوجود، وأمره بخلافة الله تعالى في كونه العريض، وهذا التكامل
لا يقدر عليه إلا الخالق العظيم .

(١) سورة الفرقان الآية : ٢ .

المبحث الثاني قصور المسلم المعاصر

انقلب المسلم المعاصر على عقبه، وعاد إلى الحياة المادية البغيضة، وقصر في واجبه مع الله تعالى، وجحد حق من صنعه وسواه، ولا يصح أن يصير المسلم كغيره من أصحاب الديانات، والمذاهب الأخرى، فمصادر الدين ثابتة، وموجودة، وصوت الدعاة متواصل، ونعم الله تعالى واسعة لا انقطاع لها، ولذلك كان قصور المسلم في التجاوب مع ركائز الدعوة الموجودة في كل المخلوقات أمراً عجبياً ومدهشاً .

إن القرآن الكريم يتلى على الناس صباح مساء، وصوت العلماء لا ينقطع وصوت المؤذن يقرع السمع خمس مرات في اليوم، وخطب الجمعة بيان لأحكام الإسلام، ومن هنا كان انصراف المسلمين عن تعاليم الإسلام أمراً مدهشاً .

ومن أعجب العجب أن المسلمين انصرفوا عن تعاليم الإسلام، ورضوا بنظم غير إسلامية، واستكانوا إلى ذلك، وزعموا أن الإسلام أباح لهم ذلك، وهم في ذلك كاذبون،... لأن الإسلام نزل من عند الله تعالى واضحاً بيناً شاملاً لكل حاجات الإنسان ليطبق كما يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (١) .

لقد أصبح الإسلام غريباً في حياة المسلمين، فقد شاع في المسلمين الجهل بالدين، وعدم العلم بأركانه وأحكامه، ومعرفتهم به معرفة سطحية،

(١) سورة النساء الآية : ٦٤ .

لا تبيين شيئاً، ولا توضح عملاً، ... وكيف لجاهل أن يؤدي عملاً قائماً على خطة عملية ، ونظام متكامل ؟

إن الإسلام فرض على المسلم العلم بأركان العقيدة ، وأحكام العبادات المشروعة، وأحكام العمل الذي يمتننه، ويقوم به حتى يقيم حياته على بصيرة وعلم ، ويعتمد على يقين وثقة، فكل عمل له أسس علمية، وكل عمل في الإسلام له دليل شرعي .

أما مسلم اليوم فهو جاهل بأركان العقيدة، وأحكام الشريعة ، وأمور الدين، وما يؤديه من عمل ديني فهو جاهل به ، لا يدري عنه شيئاً، ولذلك نجد مصلياً يخون أخاه، ونرى مسلماً يحارب المسلمين، وينصر عدوهم، ويتبع غير المسلمين، ويقدم نظامهم، وأفكارهم على نظم الإسلام، وتعاليمه .
ولا يجد المسلم غضاظة في أن يدعي الإسلام وهو يعارضه في أقواله وأعماله ، وأخلاقه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ، يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ") (١) .

إن الإسلام لا يتحقق في حياة الناس إلا بالتطبيق ، ولا يتم التطبيق إلا بالعمل، وهذا ما يفتقده المسلمون اليوم .

وقد أدى الجهل بتعاليم الإسلام إلى بعد المسلمين عن رسالتهم التي خلقوا لها ، فقد أهملوا العبادة بأنواعها، وإن أدوها أدوها بصورة شكلية لا تظهر في سلوكهم وأعمالهم .

(١) صحيح البخاري - كتاب المظالم والغصب، باب النهي بغير إذن صاحبه - حديث : ٢٣٦٣

كان المسلم الصادق يتفاعل مع جلال المعبود، ويسرع إلى الطاعة، ويشعر أنه يتعامل مع ملك الملوك، وكان إذا أتى الوضوء يصفر لونه خوفاً وطمعاً، وكان يسعد وهو يعمل مع الله تعالى أملاً في القبول.

وأين هذا من مسلم اليوم ؟

وقد أدى انفصام المسلمين عن الإسلام أن تمكن خصوم المسلمين من السيطرة عليهم، فصار المسلمون عبيداً في أوطانهم لمن هم أقل منهم، ووقع التحارب بينهم، وأصبحت الخلافة حلماً بعيد المنال، وصارت الأوطان مرتعاً للمذاهب المنحرفة، والأفكار الهابطة، وأصبح المسلمون في أوطانهم أيتاماً وسط اللثام .

إن كل مسلم يجد في نفسه براهين الإيمان، ومع ذلك لا يلتفت إليها، ولا يتأثر بها، فصرف عقله إلى التنافس، والصراع، والسبق، وقهر روحه بإغراقها في بحور الفحشاء والمنكر، وتمكن الظلم والفساد من الانتشار بين الناس .

إن هذا الواقع المعاصر يشهد بحال المسلمين البئيس الذي صاروا به بعيداً عن منهج الله تعالى .

ومن الضروري أن نعود للإسلام بصدق وإخلاص، ففيه الإصلاح الحقيقي للإنسان، وللمجتمع كله، وقد ارتضاه الله تعالى للناس، ووضع فيه كل خير وفلاح، ... يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَّمْ مَا تَوْسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ ^ط وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلٍ

الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ (١)

- ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (١) .
- ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (٢) .
- إن حياة المسلمين اليوم لا تسر أحدا، وطريقهم إلى النهضة من جديد هو تطبيق الإسلام، ولا طريق لهم سواه.... ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) .
- وهذا مني لكل مسلم نذير وإرشاد، والله الهادي إلى سواء السبيل .

(١) سورة يونس الآية : ٦١ .

(٢) سورة المجادلة الآية : ٧ .

(٣) سورة النور الآية : ٦٣ .

وبعد

فقد أعانني الله تعالى وعشت مع عنايته سبحانه وتعالى بالإنسان في مراحل صناعته ليكون إنسانا مكلفا، ينال ما هو له من حقوق، ويؤدي كافة ما عليه من واجبات، وذلك من خلال مراحل صناعته التي بدأت مع والديه قبل زواجهما، واستمرت في فترة حمله، رضاعته، وحضانتها، ولم تتركه أبدا في صغره ، وبعد شبابه وقوته إلى أن يلقي ربه .

وحاولت خلال الكتابة إظهار قدرة الله تعالى التي رحم بها الإنسان، ورزقه المكونات الحسية، والمعنوية التي يعيش ويتمتع بها إلى أن يعود إليه في الآخرة .

ولم أفرق في كلامي بين الرجل والمرأة ، فهم سواء في دين الله تعالى ، وكلاهما يرتع في نعم الله تعالى .

والأمل

أن يعود الإنسان إلى نفسه ليرى قدرة الله ﷻ، ويشاهد آياته في عناصره، ويذللها لخالقها، ويدفعها إلى طاعة الله تعالى التي يتم بها كل خير في صفاء وإخلاص وحُسن .

أ . د أحمد أحمد غلوش

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
١٣	الباب الأول : تهيئة المحضن الصحيح لإيجاد الولد
١٧	الفصل الأول : الولد في عالم الغيب
٢٠	المبحث الأول : الولد هبة من الله تعالى
٢٧	المبحث الثاني : مرحلة البحث والاختيار
٤٧	الفصل الثاني : التوجيه العملي لصناعة الولد
٥٠	المبحث الأول : توثيق الاختيار بالخطبة
٥٢	المبحث الثاني : ضرورة المهر
٥٥	المبحث الثالث : إتمام العقد
٦٣	الباب الثاني : الجنين في بطن أمه
٦٧	الفصل الأول : أطوار الجنين في بطن أمه
٧٠	المبحث الأول : استقرار النطفة
٧٤	المبحث الثاني : تكوين العلقة
٧٥	المبحث الثالث : تخليق المضغة
٧٧	الفصل الثاني : الأحكام الشرعية لأعمال تتصل بالحمل
٨١	المبحث الأول : التلقيح الصناعي
٨٣	المبحث الثاني : تنظيم النسل
٩٣	الفصل الثالث : رعاية الجنين في بطن أمه
٩٦	المبحث الأول : رعاية النمو البدني للجنين والأم
٩٩	المبحث الثاني : تأخير عقوبة الحمل
١٠١	المبحث الثالث : المحافظة على هدوء الحامل

١٠٣	المبحث الرابع : تحريم العدوان على الجنين
١٠٧	الباب الثالث : استقبال الولد
١١١	الفصل الأول : الأعمال الشرعية لاستقبال الولد
١١٤	المبحث الأول : البشر والسرور بمجيء الولد
١٢٠	المبحث الثاني : التصرفات الشرعية مع الولد
١٢٠	المطلب الأول : الأذان والإقامة في أذن المولود
١٢٤	المطلب الثاني : تحنيك المولود
١٢٦	المطلب الثالث : حلق رأس المولود
١٣٤	المطلب الرابع : ختان الولد
١٣٤	المطلب الخامس : ثقب أذن البنت
١٣٦	المبحث الثالث : التصرفات الشرعية في مجتمع الولد
١٣٦	المطلب الأول : تسمية الولد
١٤٣	المطلب الثاني : عقيقة الولد
١٥١	الباب الرابع : صناعة الطفولة في الإسلام
١٥٥	الفصل الأول : رضاعة الطفل
١٥٨	المبحث الأول : مفهوم الطفولة ومراحلها
١٦٠	المبحث الثاني : إرضاع الطفل
١٦٢	المطلب الأول : مفهوم الرضاعة
١٦٤	المطلب الثاني : إرضاع الأم الولد
١٦٩	المطلب الثالث : حكم إرضاع الولد
١٧٤	المبحث الثالث : طرق رعاية الطفل في مرحلة الرضاعة
١٧٩	الفصل الثاني : حضانة الطفل ورعايته
١٨٢	المبحث الأول : مفهوم الحضانة
١٨٤	المبحث الثاني : الأحكام الشرعية للحضانة

١٨٧	المبحث الثالث : كفاءة القائم بالحضانة
١٨٩	المبحث الرابع : مدة الحضانة
١٩٢	المبحث الخامس : رعاية الصغير في مرحلة الحضانة
١٩٥	الفصل الرابع : الولاية على الصغير
١٩٨	المبحث الأول : الولاية على النفس
٢٠٤	المبحث الثاني : الولاية على المال
٢٠٥	المطلب الأول : الفرق بين الولاية على المال والولاية على النفس
٢٠٦	المطلب الثاني : شروط الولاية على المال
٢٠٨	المطلب الثالث : مدى الولاية على المال
٢٠٩	الفصل الرابع : تكامل رعاية المحضون
٢١٧	الباب الخامس : دقة صناعة الإنسان
٢٢١	الفصل الأول : المحافظة على عناصر الإنسان
٢٢٤	المبحث الأول : التعريف بالإنسان
٢٢٨	المبحث الثاني : التعريف بعناصر الإنسان
٢٢٨	العنصر الأول : الجسد
٢٣١	العنصر الثاني : العقل
٢٣٣	العنصر الثالث : الروح
٢٣٥	المبحث الثالث : وحدة عناصر الإنسان
٢٣٧	الفصل الثاني : نظام الإسلام في المحافظة على البدن
٢٤٠	المبحث الأول : التغذية بالحلال الطيب
٢٤٥	المبحث الثاني : تقوية البدن بالتربية البدنية
٢٥٠	المبحث الثالث : تيسير العمل والتكليف
٢٥٧	المبحث الرابع : العناية بالصحة الوقائية والعلاجية
٢٥٨	أولاً : الصحة الوقائية

٢٦٣ ثانياً : الصحة العلاجية
٢٦٥ المبحث الخامس : منع العدوان على البدن
٢٦٧ الفصل الثالث : نظام الإسلام في المحافظة على العقل
٢٧٢ المبحث الأول : دور العقل في الإنسان
٢٧٤ المبحث الثاني : تنمية العقل بالتعليم
٢٧٨ المبحث الثالث : تنمية العقل بالحق الثابت
٢٨٠ المبحث الرابع : تنمية الذكاء العقلي
٢٨٥ الفصل الرابع : نظام الإسلام في بناء الروح
٢٨٨ المبحث الأول : وجود الروح في الإنسان
٢٩٠ المبحث الثاني : تنمية الروح
٢٩٣ المبحث الثالث : ربط الروح بمجالها
٢٩٥ المبحث الرابع : تحقيق سعادة الروح في عبوديتها لله تعالى
٢٩٧ الفصل الخامس : تراكيب عناصر الإنسان
٣٠١ ١- دليل الخلق والإبداع
٣٠٢ ٢- دليل الغاية
٣٠٤ ٣- دليل الكمال
٣٠٥ ٤- دليل القيم السامية والخلق الكريم
٣٠٩ ٥- دليل الحسن والجمال
٣١٣ الباب السادس : ركائز الإيمان في صناعة الإنسان
٣١٧ الفصل الأول : ركائز الإيمان في الخلق والإبداع
٣١٩ أولاً : أصالة الإنسان وتكريمه
٣٢٣ ثانياً : الجمال في صورة الإنسان
٣٢٤ ثالثاً : تكامل عناصر الإنسان
٣٢٦ رابعاً : تحقيق السعادة والأمن
٣٢٩ الفصل الثاني : ركائز الإيمان في سرعة الاستجابة والتغيير

٣٣٢	١- القدوة القائمة
٣٣٤	٢- القرآن الكريم
٣٣٦	٣- التطبيقات العملية المشروعة
٣٣٧	٤- الترغيب و الترهيب
٣٣٩	الفصل الثالث : ركائز الدعوة في إشباع العواطف المتعارضة
٣٤٥	الفصل الرابع : الإنسان وركائز الإيمان
٣٤٨	المبحث الأول : ركائز الإيمان في الإنسان
٣٥٨	المبحث الثاني : قصور المسلم المعاصر
٣٦٢	الخاتمة
٣٦٣	الفهارس

تم بحمد الله تعالى وحسن توفيقه

